عنها ومعرفة أبعادها . لقد انهار الستار الحديدي الآن وأصبح الكثير من الأبواب المغلقة مفتوحاً . وتوفير أو محاولة توفير الوثائق التي ظلت مجهولة سنين طويلة أمر في غاية الأهمية لمعرفة كيف كان يفكر الروس خاصة أثناء العقود التي كانوا فيها إحدى القوتين العظميين اللتين تهيمنان على مصائر العالم كله .

لقد كتب كثير من الروس عن الخليج . بل إن بعضهم تخصص في هذه المنطقة . وقدموا للمكتبة العالمية بعض الإسهامات الهامة التي تعكس وجهة نظر لاغنى عن معرفتها لتكتمل أبعاد كثير من الصور . ولكن هذه الكتابات مثلها مثل معظم الكتابات الأجنبية عن المنطقة عليها الكثير من التحفظات . وربما كانت المعطيات أو المصادر المتاحة أمام الكتاب سبباً في عدم إحاطتهم إحاطة كاملة بكثير من الظروف الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية التي حكمت العلاقات بين الأفراد والجماعات بل والدول في المنطقة .

وإذا كان لقاء البحرين قد فتح نوافذ على بعض ما في الأرشيفات الروسية من وثائق فإننا نأمل في أن تظل هذه النوافذ مفتوحة يطل منها الكتاب الروس الذين حضروا اللقاء على حقيقة الحياة في المنطقة ويعرفون من خلال اتصالهم بزملائهم من الخليج أو المنطقة العربية بعامة كثيرا مما خفيت عليهم معرفته نظراً للظروف التي كانت تحكم حركتهم في الفترة الماضية .

لا شك أن في الأرشيفات الروسية كثيرا من الوثائق التي نريدها ولا شك أن لدينا الكثير مما يريده المؤرخون والكتاب الروس قد حقق هذا اللقاء الكثير في هذا الصدد .

لقد سبق للأمانة أن فتحت قنوات مع الأرشيفات العثمانية ، وأقامت جسوراً مع بعض الأرشيفات الهندية . وكل ذلك يأتي ضمن سعي الأمانة العامة لتحقيق ما يصبو إليه مئات المؤرخين والباحثين من توفير أكبر قدر ممكن أو متاح من المصادر التاريخية اللازمة لحركة التأريخ النشطة في المنطقة ، خدمة للبحث التاريخي وخدمة للدارسين من أبناء المنطقة وخدمة للقراء بصفة عامة . إننا نرجو أن تكون الأمانة العامة قد حققت بعض ما تصبو إليه وهو كثير .

والله الموفق

عبد الله بن خالد آل خليفة

# الشيخ محمد

| ولادته | توليه الحكم | حكم إلى | عمره | وفاته |
|---|---|---|---|---|
| ١٢٢٨هـ<br>١٨١٣م | ١٢٥٨هـ<br>١٨٤٢م | ١٢٨٥هـ<br>١٨٦٨م | ٧٩ سنة هجرية<br>٧٧ سنة ميلادية | ١٣٠٧هـ<br>١٨٩٠م |



١٣ - الوثيقة

# بن خليفة آل خليفة

بقلم :

**الدكتور علي أباحسين**

هو الشيخ محمد بن خليفة بن سلمان بن أحمد ( الفاتح ) بن محمد بن خليفة آل خليفة ، رابع حكام البحرين من الأسرة الخليفية ، ولد في البحرين عام ١٢٢٨هـ /١٨١٣م وبدأ حياته عسكرياً يأتمر بإمرة عم والده الشيخ عبد الله بن أحمد آل خليفة حين طلب منه أن يقاتل أبناءه الثلاثة وهم ( محمد وأحمد وعلي ) الذين اعتمدوا على أخوالهم من آلبنعلي فانشقوا على أبيهم الشيخ عبد الله وبارحوا البحرين فنزلوا (الحويلة) وهي قرية تقع في الطرف الشمالي الشرقي من بر قطر فلبى الشيخ محمد بن خليفة طلب عم أبيه وخرج نحوهم بحراً ١٢٦٠هـ



/١٨٣٤ ـ ١٨٣٥م ، وبعد قتال شديد انكسر أبناء الشيخ عبد الله وأذعنوا لطاعة أبيهم وطلبوا العفو فعفا عنهم وسمح لهم بالعودة للبحرين وسميت هذه المعركة بوقعة (الحويلة) ، وكان للنصر الذي أحرزه الشيخ محمد بن خليفة في هذه الوقعة كبير الأثر في تطلعه إلى الحكم خاصة وقد بلغ الشيخ عبد الله من العمر عتيا وخرج عليه بعض أبنائه وشهدت السنوات الأخيرة من حياته السياسية تطلع الدول الأجنبية للتدخل في أمور البلاد وقد لعبت دوراً خطيراً لتحقيق أطماعها فمرت البحرين بظروف قاسية نتيجة الخلافات الأسرية بين الشيخ (عبدالله) والشيخ (محمد بن خليفة) الذي ثار على عم أبيه الشيخ عبدالله (وكأنه يتقاضاه أجر تأديب أولاده)[1] . هذه الرواية كتبها النبهاني بينما كتب أحد مؤرخي البنعلي أن سبب انشقاق أبناء الشيخ عبد الله على والدهم بعد أن حارب في (دارين وتاروت) وحاصر (سيهات) عام ١٢٤٩هـ /١٨٣٣ ـ ١٨٣٤م ثم صالحه أهلها على مال يؤدونه إليه فاستأثر الشيخ عبد الله بما غنمه من المال في حرب القطيف وقد خاطبه أولاده في زيادة معاشاتهم ولم يعطهم ومن هذا السبب زعلوا على والدهم وتحولوا مع أخوالهم البنعلي في بلد (الحويلة) .

أما انتقال البنعلي من البحرين إلى الحويلة وترك أملاكهم في البحرين فالأسباب مجهولة لا نعلمها بالتفصيل إلا أنهم تحولوا مغاضبين لحاكمهم (الشيخ عبدالله بن أحمد) . وحدث أن توفى الشيخ (خليفة بن سلمان بن أحمد) الفاتح في أثناء حصارهم لسيهات والقطيف على أثر حمى أصابته ودفن في البحرين . وفي رواية أنه لم يحدث قتال

ولا مناوشة بين أولاد الشيخ عبد الله بن أحمد الثلاثة وهم (**محمد وأحمد وعلي**) حين لجأوا إلى أخوالهم البنعلي في الحويلة في قطر وغاضبوا والدهم الشيخ عبد الله وأرسلوا سفينتين لمواجهة الشيخ (**محمد بن خليفة**) الذي أرسله والدهم بسفينتين هو الآخر ، إلا أنه لم تحدث واقعة في الحويلة بل انسحب الطرفان دون قتال فلا صحة لما أورده

النبهاني عن وجود وقعة حدث فيها حرب شديدة وترجح الرواية التي تقول أنه تم الصلح بين الطرفين .

وجدير بالذكر فإن الشيخ (**عبد الله بن أحمد**) كبير السن ولم يعين ولياً للعهد من بعده بل جعل ولاية العهد مفتوحة خاصة وأن أبناء الشيخ سلمان قد توفوا ومنهم الشيخ خليفة والشيخ أحمد لذا أخذ كل من أبناء الشيخ عبد الله وأحفاد الشيخ سلمان يتطلع للحكم ومن هنا بدأ الصراع حول المشيخة دون أن يحسمها الشيخ عبد الله . وعاصر الشيخ (**محمد بن خليفة**) وهو في العقد الثالث من عمره أحداثاً حدثت في الجزيرة العربية أيام حكم عمه الشيخ (**عبدالله بن أحمد**) فقد سيطر (**خورشيد باشا**) على الأحساء وعين (**محمد أفندي رفعت**) حاكماً عليها وكان الشيخ مبارك بن عبد الله بن أحمد وقتئذ في قلعة الدمام فأمر خورشيد باشا (**محمد رفعت**) أن يزور حاكم البحرين فزار الشيخ عبد الله بن أحمد في قلعته الواقعة في خور حسان (**على ساحل قطر في الشمال الغربي**) وذلك في ٢٦ يناير ١٨٣٩م / الموافق في شهر صفر ١٢٥٥هـ وعقد معه اتفاقية جاء فيها : **أنه وقع الصلح والرأي بيني (محمد أفندي رفعت) وبين (عبد الله بن أحمد آل خليفة) فصار العهد منه مطابق الوكالة عن سعادة أفندينا على أنه صديق لصديق أفندينا (خورشيد باشا) وعدو لعدوه وأن عليه زكاة البحرين من حول السُنة إلى حول السنة ثلاثة آلاف ريال فرانسي (لعبد الله بن أحمد) منها خاصة سبعمائة وخمسين ريال والباقي ألفين ومايتان وخمسين ريال يدفعها سنوياً إلى المشار إليه من ابتداء حول ١٢٥٥هـ وعاهدناه على أن أمر البحرين في يده دون غيره ونائبه الذي يحطه من تحت يده وما كان من رعاياه سابق من أهل البحرين أو غيرهم والقاطنين بها . وأهل بلدان ساحل بحر قطر تحت يده ليس لأحد غيره تسلط عليهم والقوانين الذي له عليهم من سابق فهي له ولنا عليه أن يقوم بالمساعدة مع أفندينا المشار إليه فيما يتعلق بالمساعدة على قدر استطاعته والله على ما نقول وكيل .** (كتبت هذه الاتفاقية في قلعة الشيخ عبد الله بن أحمد آل خليفة في خور حسان على ساحل بحر قطر) وعلى أثر ذلك كثرت المراسلات والاتصالات بين

الإنجليز وشيخ البحرين بهدف إلغاء هذه الاتفاقية .

وقدمت بريطانيا على يد (**هينل**) المقيم في الخليج احتجاجاً للقائد (**خورشيد باشا**) بصدد خططه نحو البحرين ، بينما خولت حكومة الهند قائد الأسطول البحري بصلاحية مفاوضته لشيخ البحرين وأن يؤكد له في حالة طلبه الحماية موافقة بريطانية للتدخل من قبل الأسطول البريطاني لحمايته ، ثم طلب (**هينل**) من الشيخ عبد ا لله أن يمزق الاتفاقية فرفض طلبه لأن بريطانية رفضت أن تقدم أية مساعدة أو حتى نصيحة منه ، ولما هدده المقيم البريطاني قال الشيخ عبد الله : إن البحرين ملكنا ورثناه عن أجدادنا وليس بيننا شروط لأن نكون رعية (للسركار) أي للحاكم العام ولم أظهر أي سبب لذلك غير الصداقة وليس للسركار أن يتعدى علينا فأما إذا كنتم تشرعون في الحرب قوة واقتداراً فإننا سنبذل كل ما في وسعنا في سبيل حماية ملكنا وأهلنا وعيالنا وديننا وليحصل بعد ذلك ما يحصل . وقد قدم (**هينل**) للشيخ احتجاجا كتابياً على الاتفاقية . وحدث أن نزل (**محمد رفعت أفندي**) للبحرين وهو في طريقه للأحساء فقابل شيخ البحرين وشرح له ما دار بينه وبين (**هينل**) فكتب (**محمد رفعت أفندي**) لخورشيد باشا حول ذلك مشيراً لأهمية البحرين وضغط بريطانيا على شيخ البحرين ورغبتها بالسيطرة على البحرين ولكن (**محمد علي باشا**) ألغى الاتفاقية المعقودة بين خورشيد باشا وشيخ البحرين بينما تمسك شيخ البحرين بمبدأ عدم الاستسلام للإنجليز(٢) .

وربما كان ذلك من الأسباب التي جعلت بريطانيا تثير الفتن ضده ، وتؤجج الصراعات الأسرية في عهده حتى تحقق لها ما تصبو إليه من مآرب استعمارية .

وقد بدأت الخلافات بين الشيخ (**عبد الله بن أحمد**) والشيخ (**محمد بن خليفة**) بعد انسحاب العثمانيين من الأحساء عام ١٨٤٠م /١٢٥٦هـ واقترح بعض سكان المنطقة هناك على البحرين أن يبقى (**الشيخ محمد بن خليفة بن سلمان**) في الأحساء وهنا اعترض الشيخ (**عبد الله بن أحمد**) على هذا الاقتراح فبدأت الخلافات وحدثت المجابهة بينهما وإن توصلا إلى تفاهم مؤقت بعد بضعة أيام إذ طلب الشيخ محمد

مساعدة بريطانيا وغادر البحرين إلى قطر لكي يقيم لنفسه حكماً هناك كان في بعض الأحيان أقوى من حكم عم أبيه[٣].

وهكذا شهد عام ١٨٤٠م/١٢٥٦هـ بداية للاضطرابات والانقسامات القبلية والأسرية.

وقد كتب القبطان **(بروكس)** في ٢٢ أغسطس ١٨٤٠م والذي عاصر الأحداث فرفع تقريراً إلى المقيم في الخليج **(توماس ماكنزي)** جاء فيه : أن الشيخ **(عبد الله بن أحمد آل خليفة)** وأبناءه حاولوا عزل الشيخ **(محمد بن خليفة)** من كافة السلطات إثر وفاة والده الشيخ **(خليفة بن سلمان)** ، إلا أن القبائل منعتهم عن ذلك وبلغت الأزمة ذروتها وأعربت القبائل عن ولائها لحكومتها المشتركة وتفانيها بالأموال والأرواح في مواجهة أي عدو أجنبي إلا أنها تلتزم الحياد في النزاعات الداخلية بين آل عبد الله وآل سلمان وكان كل من الطرفين يحاول كسب تأييد أكبر عدد من القبليين وسكان البادية ولكن الصراع كان يتفجر بين الطرفين المتنازعين . خاصة وأن الشيخ عبد الله كان يملك ثلاث سفن حربية وسفينة شراعية وله ستة أبناء إلا أنهم لا يميلون إليه كثيراً فأما ابنه الكبير مبارك فقد سكن الدمام ولديه نحو ألفين من القبائل البدوية ومن المحتمل أن يتمرد على أبيه ويستغل الظروف لنفسه ـ على حد قول بروكس ـ بينما يبلغ عدد تابعي أبناء الشيخ عبد الله الآخرين نحو مائة وخمسين مقاتلاً ورغم أن الشيخ **(عبد الله بن أحمد)** لا يدفع راتباً للبدو الذين يقدر عددهم بين ٢٠٠٠ ــ ٣٠٠٠ محارب إلا أنه رجل ثري جداً وبذا فهو يكسب التفوق العددي والمالي على الشيخ **(محمد بن خليفة)** الذي لا يملك سوى سفينتين حربيتين بينما يملك عمه الشيخ **(أحمد بن سلمان)** سفينة شراعية ومن حيث المراكب يتساوى الاثنان ويتمتع الشيخ **(محمد بن خليفة)** بتأييد عدد من أقاربه وأتباعه وهم ما بين مائة تابع ومائتين من الأقرباء مع نحو ١٢٠٠ شخص من عشائر قطر و٣٠٠ من الدواسر وكان يقدم لأتباعه راتباً ضئيلاً. واستطرد القبطان بروكس بقوله : وأخبرني الشيخ **(محمد بن خليفة)** نفسه بأن **(عيسى بن طريف)** سيشاركه عند اللزوم لأن الطرفين متساويان من حيث القوة . وقد فقد الشيخ **(محمد بن خليفة)** شعبيته أخيراً لأنه فرض ضريبة

على جميع سكان البحرين سواء كانوا من العرب أو الأجانب كي يعوض مؤيديه وهذا أمر استغله الشيخ (**عبد الله بن أحمد**) ليضعف نفوذ الشيخ (**محمد بن خليفة**) بين أتباعه . ويبلغ مدخول البحرين من ضريبة الأراضي نحو مائة ألف دولار وإن كان بعض القبائل لا يدفعون الرسوم المفروضة التي تبلغ نحو عشرين ألف دولار ، وكان نصف مدخول البحرين يدفع إلى الشيخ (**عبد الله بن أحمد**) والنصف الآخر يتسلمه الشيخ (**محمد بن خليفة**) ويفرض الشيخ عبد الله ضريبة على مراكب صيد اللؤلؤ في المياه المحيطة بالبحرين حتى سواحل قطر وفي هذا العام كان مقدار الضريبة دولارا واحداً لكل غيص ونصف دولار على كل شخص آخر في مركب الصيد كما تفرض حكومة البحرين رسماً جمركياً على السفن البحرينية التي تحمل وثائق التسجيل ويبلغ عدد السفن من طراز (**بغلة**) نحو ٤١ سفينة وتقوم بنقل البضائع التجارية من الهند إلى البحر الأحمر والساحل الشرقي لأفريقيا وكانت سفينتان تنقلان السلع من وإلى أفريقيا كل عام . ويتمتع الشيخ عبد الله بنفوذ واسع عند القبائل لكني ــ والقول للقبطان **بروكس** ـ بناءً على المعلومات التي جمعتها بأنها لن تتردد في القضاء على كل من الشيخ (**عبد الله بن أحمد**) والشيخ (**محمد بن خليفة**) فقد قمت بعملية مسح في البحرين في عام ١٨٢٥م / ٤٠ و ١٢٤١هـ ورأيت في هذه الفترة هبوطاً في حماس الناس عامة كما غادر الأثرياء البحرين تاركين وراءهم أملاكهم . وبلغ عدد سكان البحرين في عام ١٨٢٥م نحو ٤٨ ألف نسمة والآن ـ ١٨٤٠م ـ أي بعد خمسة عشر عاماً لا يزيد عددهم على ثلاث وخمسين ألف نسمة ولا يشعر الناس بالأمان تجاه أرواحهم وأموالهم وعائلاتهم ولم يتم أي اتصال بيني وبين الحكومة ، إلا أن الشيخ (**محمد بن خليفة**) زارني مرة فرحبت به بكل احترام وأثار موضوع نزاعه مع الشيخ (**عبد الله بن أحمد**) فقلت له أن يراجع المقيم السياسي وأكدت له حياد الحكومة البريطانية تجاه الصراعات الأسرية مادامت مقتصرة على البر ولم تؤد آثارها على سلامة الأمن في مياه البحر ، وقد أبدى الشيخ (**محمد بن خليفة**) ارتياحه بموقفي وتفهمه الكامل لما شرحت له وختم بروكس تقريره له . وفي هذا العام

كان حصاد صيد اللؤلؤ متوسطاً والسفن التجارية تبحر إلى الهند بأمان .

وكان الشيخ عبد الله بقلعته في (**خور حسان**) في الساحل الغربي لقطر حيث كان الشيخ عبد الله يقيم فيها نرى أن الشيخ (**محمد بن خليفة**) يعود إلى البحرين فأسرع الشيخ عبد الله عائداً إلى البحرين ليطرد الشيخ محمد منها وذلك في يونيو من عام ١٨٤٢م / جمادى الأولى ١٢٥٨هـ فاتجه الشيخ محمد إلى قطر ليحتل مكان الشيخ عبد الله الحصين هناك واستولى على حصن (**مرير**) بالقرب من (**الزبارة**) ثم (**الفويرط** ) ومن هناك وجه حملة على جزيرة البحرين كللت بالنجاح[٤] .

وتدهورت الأحوال بين الشيخ (**محمد بن خليفة**) والشيخ عبد الله الذي توجه إلى البحرين لمحاولة تسوية خلاف شخصي ولكن دون جدوى فبدأ الطرفان بتعبئة أنصارهما من البدو الذين تدفقوا من البر الرئيسي وأصبحت (**المحرق**) مقراً للشيخ عبد الله بينما جعل الشيخ (**محمد بن خليفة**) مقره في المنامة وفرض الشيخ عبد الله حصاراً بحرياً على المنامة لأنه يملك أسطولاً أقوى من أسطول الشيخ محمد ونشبت اشتباكات[٥] ولما كان الشيخ (**محمد بن خليفة**) لا يملك إلا خمس سفن ولم تكن تكفيه لنقل القوات الموالية له لذا فقد أرسل في المقدمة قبيلة النعيم إلى البحرين وأمرهم أن ينضموا إلى ما يجمعه أخوه (**الشيخ علي**) من المقاتلين فلما وصلوا خرج لهم الشيخ علي يقود جمعاً عظيماً وكان معه سائر آل سلمان من الخليفيين وأتباعهم ماعدا الشيخ محمد و الشيخ حمود إبنا سلمان فإنهما كانا مع عمهما الحاكم فسار الشيخ (**علي بن خليفة**) بمن معه من الجموع نحو (**الرفاع الشرقي**) حتى نزل قرب ماء يسمى (**الحنينية**) والتقى هناك بجيش الشيخ عبد الله يقوده ابنه ناصر وكان قد وصل الموقع قبل وصول قوات الشيخ محمد فحصل القتال بين الطرفين وأسفر عن انتصار جيش الشيخ علي فتقدم إلى الرفاع واستولى عليها بعد أن قُتل الشيخ (**محمد بن أحمد بن سلمان آل خليفة**) وسميت هذه الوقعة (**بوقعة الحنينية**) نسبة إلى الماء الذي وقعت بقربه المعركة وذلك سنة ١٢٥٨هـ / ١٨٤٢م وبعد أن استولى (**الشيخ علي**) على الرفاع وصل إليه أخوه الشيخ (**محمد بن خليفة**) ببقية الجيوش المتقدم ذكرها إلى البحرين ونزل بجموعه على المنامة فاحتلها وتولى

أخوه الشيخ علي الحكم في المنامة وذلك في مارس ١٨٤٣م برغبة من سكانها الذين ليس لهم ولاء للشيخ عبد الله ولا لأتباعه بسبب تصرفهم نحو سكان المنامة في العام الماضي[٦] فتقلصت قوة الشيخ عبد الله إلى المحرق ولم يبق بيده سواها[٧] فحاصره في المحرق ١٢٥٨هـ/ ١٨٤٢ - ١٨٤٣م فما كان من الشيخ عبد الله إلا أن جهز جيشين من بني هاجر فيوجه أحدهما بقيادة ابني أخيه **(محمد بن سلمان)** و **(حمود بن سلمان)** الساكنين في الرفاع ليقودا هذا الجيش إلى قتال ابن أخيهما الشيخ **(محمد بن خليفة)** بينما قاد الشيخ عبد الله الجيش الثاني بنفسه متوجها إلى موضع **(سوق الخميس)** فلما علم الشيخ **(محمد بن خليفة)** بهذه الخطة العسكرية أراد أن يعزل حركة الجيشين فيضرب كلاً منهما على انفراد فيبدأ بضرب الجيش الأول الذي يقوده عمّاه محمد وحمود قبل وصولهما إلى هدفهما ، ثم يتعرض بالقسم الأكبر من قواته للجيش الثاني الذي يقوده الشيخ عبد الله ، وقد سارت الخطة كما رسمها الشيخ محمد وحال دون وصول الجيش الأول إلى هدفه حين تواقع معه في موضع **(الناصفة)** ودحره فانسحب إلى **(الحورة)** في المنامة ومنها التحق بالجيش الثاني في موضع **(سوق الخميس)**[٨] وهناك تعرضت قوات جيش الشيخ **(محمد بن خليفة)** لمجابهة ومقاومة شديدة من قبل جيش الشيخ عبد الله فانسحب الشيخ **(محمد بن خليفة)** من ميدان المعركة بعد تكبده خسائر كبيرة وقُتل أخوه **(دعيج بن خليفة)** كما قُتل حفيد الشيخ عبد الله واسمه **(محمد بن مبارك)**[٩] وهناك ظهر اسم الشيخ **(علي بن خليفة)** الذي وكله أخوه الشيخ محمد بأن يهيئ جيشا ينظمه بصورة سرية ويكون متأهباً حيث الطلب . بينما اتجه الشيخ **(محمد بن خليفة)** نحو نجد يطلب المدد فلم يوفق فعاد إلى قطر واستنجد بـ **(آل بن علي)** الذين سبق وأن ظعنوا من البحرين مغاضبين الشيخ **(عبد الله بن أحمد)** فلبوا طلب الشيخ **(محمد بن خليفة)** خاصة وأنهم أخوال الشيخ **(علي بن خليفة)** وكان يرأس آل بنعلي شيخهم **(عيسى بن طريف)** ومعه آل بوكوارة وفي قول أنه هو الذي وصل إلى **(السابة)** بينما وصل الشيخ **(محمد بن خليفة)** إلى جزيرة **(قيس)** ومنها إلى قطر وذهب مع بني هاجر إلى البحرين ، أما

الشيخ محمد فقد اجتمع مع أخيه الشيخ علي في الرفاع وسارا إلى المنامة ومنها إلى المحرق ومن القبائل الأخرى التي لبت طلب الشيخ محمد والشيخ علي قبيلة النعيم ورئيسها الشيخ (**جبر بن ناصر**) والجلاهمة ورئيسهم (**بشر بن رحمة بن جابر**) وكذلك آل بوكوارة ورئيسها (**محمد بن سعد**) ومن البوكوارة آل نبهان[١٠] وفي إبريل ١٨٤٣م / ربيع الأول ١٢٥٩هـ اتجه الشيخ (**محمد بن خليفة**) نحو الشيخ عبد الله في (**المحرق**) ونزل عند ينبوع ماء عذب في البحر يسمى (**الساية**) وبه سميت الوقعة وأمر جميع قومه أن يغرقوا سفنهم هناك وذلك لئلا يتخذوها ملجأ لهم فتحدثهم أنفسهم بالفرار عند المضايقة ، ولما انتهت الوقعة عادوا إليها فأخرجوها وذلك بعد انكسار جيش الشيخ عبد الله الذي كان جيشه ينقصه النظام فلما شعر بهزيمة جنده توجه نحو قلعة (**بوماهر**)[١١] في جنوب المحرق ، بينما اعتصم بعض أبنائه في قلعة (**عراد**) فلم يتعرض لهم الشيخ محمد بل أخذ يثبت حكمه في المحرق وأخذ أتباع الشيخ عبد الله يتسربون إلى خارج البحرين بينما نزل الشيخ عبد الله ومن معه في موضع يقال له (**نخل هاشل**) من بلدة (**نابند**) على الساحل الشرقي للخليج العربي ولم يقتل في هذه الحادثة سوى رجل مختل الشعور يقال له (**صادق**) وأما الجرحى فكثيرون بينما أصيب الشيخ (**يوسف بن محمد بن إبراهيم الخليفة** ) بجراحات مثخنة مات منها بعد بضعة أيام ، وقد أرخ السيد عبد الجليل الطباطبائي هذه الواقعة بقوله (**بوقعة البحرين ذاب مال**) وتاريخها ١٢٥٨هـ /١٨٤٢م وفي إبريل ١٨٤٣م الموافق ربيع أول ١٢٥٩هـ وعقب الاستيلاء على المحرق مباشرة عادت مفرزة قطرية إلى قطر وقد كانت تحارب مع الشيخ (**محمد بن خليفة**) وذلك بسبب هجوم المناصير على أحيائهم ولم يضعف ذلك من قوة الشيخ محمد بن خليفة في البحرين[١٢] وسار بعض أولاد الشيخ عبد الله إلى الدمام فاستوطنوها بينما اتجه الشيخ عبد الله نحو (**الكويت**) فحاول الشيخ (**جابر آل صباح**) المصالحة بين الشيخ عبد الله والشيخ محمد ونزل إلى البحرين لهذا الغرض ومعه ثماني سفن ونتيجة لوساطة الشيخ جابر فقد أصدر الشيخ محمد دعوة للشيخ عبد الله أن يحضر للقائه لكن الشيخ عبد الله تجاهل هذه الدعوة ولم يحضر[١٣] ثم اتجه إلى

ساحل قطر فالبحرين فالقطيف في ١٨٤٥م محاولاً غزو البحرين من هناك ففشل وعاد إلى الكويت ومنها إلى الأحساء في سبتمبر ١٨٤٦م ولما حدثت معركة بين الشيخ محمد وعيسى بن طريف والتي قتل فيها عيسى بن طريف ففقد الشيخ عبد الله آخر أمل له فاتجه إلى مسقط وذلك في ١٢٦٥هـ /١٨٤٨م مستنجداً بالسلطان (**السيد سعيد**) ولكنه توفي بعد وصوله هناك بأيام قلائل وذلك في فبراير ١٨٤٩م الموافق في ربيع الآخر ١٢٦٥هـ وكانت مدة حكم الشيخ عبد الله على البحرين ٢٢عاماً وأشهُر، ومن العلماء المشهورين في زمانه : **الشيخ عبد المحسن الصحاف المالكي والشيخ حسن الدوسري ثم البصري الشافعي**(١٤) .

وفي رواية دوّنها آل بنعلي حول مقتل رئيسهم (**عيسى بن طريف**) في وقعة (**أم سوية**) ١٢٦٤هـ /١٨٤٧م في بر قطر والتي جاء فيها أن سبب الحرب هو أن عيسى بن حمد بن طريف نزل البدع (**الدوحة حالياً**) وبقي فيها ست سنوات وأشهُراً وأراد أن يصلح بين أولاد الشيخ عبد الله بن أحمد وبني عمهم ولما توجه نحوهم ولم يكن معه من قومه البنعلي إلا القليل لأنهم كانوا في الغوص وقتئذ وليس معه إلا أبناء عبد الله بن أحمد وبعض الناصير وبني هاجر وأناس من السلطة وبعض الأتباع ولما نشبت الحرب ذهب البدو بالأطماع وأصيب (**عيسى بن طريف**) ولكنه استمر بالرمي حتى إذا تكاثر عليه القوم قتل مع أصحابه .

ثم أعطى الشيخ (**محمد بن خليفة**) الأمان إلى الشيخ (**سلطان بن سلامة**) على أن يرجع ومعه قومه من البنعلي للبحرين وكذلك ألح المعتمد البريطاني على ابن سلامة أن يرجع مع جماعته للبحرين وكان يخشى الشيخ (**محمد بن خليفة**) من مساعدة البنعلي لأولاد الشيخ عبد الله بن أحمد ولما رجعوا منع الشيخ (**محمد بن خليفة**) جماعة البنعلي من زيارة الشيخ (**علي بن خليفة**) رغم أنهم أخواله وحدث أن جرى كلام بين الشيخ (**محمد بن خليفة**) و (**سلطان بن سلامة**) أثار غضبه وأمر الشيخ (**محمد بن خليفة**) أن يرحل البنعلي عن البحرين خلال مدة لا تزيد على خمسة عشر يوماً ورغم أن الوقت في الصيف والبارح شديد فقد كابدوا مشقة في ذهابهم إلى جزيرة قيس وكان ذلك في ١٢٦٥هـ .

وفي العام التالي توفى الشيخ (**سلطان بن سلامة**) في قيس وصارت رئاسة البنعلي لابنه علي الذي عرف بتقواه وشجاعته وكرمه وساد جماعته حتى وفاته ١٢٧٨هـ وذلك في العبرة وهو قادم من سترة بعد ما نقل جماعة من جزيرة قيس إلى الدمام ولما علم أبناء الشيخ عبد الله أن بين الشيخ (**محمد بن خليفة**) والبنعلي شقاق أرسلوا لهم وهم في جزيرة قيس يطلبون مساعدتهم فلبوا طلبهم واتجهوا نحو البحرين وكان (**علي بن خليفة**) محاصراً آل عبد الله في الدمام ولما وصل البنعلي اشتدت عزيمة آل عبد الله وحدثت (**وقعة الخالي**) وقتل أناس كثيرون حتى ذهب عنهم حصار أهل البحرين وقتل (**بشر بن رحمة**) و (**مريط الهاجري**) وآخرون وذلك ١٢٦٧هـ ، ثم طلب البنعلي أن ينزلوا الدمام مع آل عبد الله فسمح لهم الأمير فيصل بن تركي فنزلوا في ١٢٧١هـ[١٥] .

وبعد أن نزل آل بنعلي في الدمام وأكرمهم الأمير فيصل بن تركي أحس الشيخ (**محمد بن خليفة**) بضيق منهم خشية أن يهاجموه فلام أخاه الشيخ (**علي بن خليفة**) وكلموا المقيم في الخليج فجاءهم في بارجة كبيرة إلى الدمام وواجه (**علي بن سلطان بن سلامة**) وكلمه في الرجوع إلى البحرين مكرمين وتعهد له بأن ليس عليهم زكاة وأخرج الباليوز أو المقيم رسالة مختومة بختم (**محمد بن عبد الله بن أحمد**) وفيها ما يدل على أنه غير متعاون معهم وحبذ الباليوز للبنعلي أن يتعاهدوا مع محمد وأخيه علي في البحرين وعاد الباليوز ليرسل (**علي بن خليفة**) لهم ويرضيهم وجاء الشيخ علي ومعه مهر (**ختم**) أخيه محمد وتعاهدوا مع (**علي بن سلطان**) وعاد مع جماعته إلى البحرين وكان ذلك في عام ١٢٧٢هـ وكتب الشيخ (**علي بن سلطان**) إلى الأمير (**فيصل بن تركي**) يشكره فأرسل إليه الأمير فيصل رسالة مؤرخة في ذي القعدة ١٢٧٢هـ .

ولما وصل البنعلي إلى البحرين أمر الشيخ (**محمد بن خليفة**) المتولي على الجمرك أن يسقط الجمرك عن بغلة (**علي بن سلطان**) وعن بتيله المسمى (طاشان)[١٦] .

## الشيخ محمد بن خليفة آل خليفة ( حاكماً )

لقد استتب الأمر للشيخ (**محمد بن خليفة**) بمساعدة أخيه الشيخ علي الذي

كان يشاركه في القيادة والحكم وهو اصغر سنا منه بعام واحد إذ يبلغ عمر الشيخ (**محمد بن خليفة**) وقتئذ ثلاثين عاما بعد وقعة المحرق سنة ١٢٥٨هـ / ١٨٤٢ و ١٨٤٣م وكانت المعركة الحاسمة والفاصلة بين الشيخ (**محمد بن خليفة**) والشيخ (**عبد الله بن أحمد**) قد حدثت في إبريل ١٨٤٣م الموافق في ربيع الأول ١٢٥٩هـ في المحرق . ووصف النبهاني الشيخ (**محمد بن خليفة**) بالحزم وأصالة الرأي والشجاعة وشدة البأس وقد جمع بين الحلم والوقار والمهابة مع البشاشة وصدق الفراسة والإصابة في الزكاء والذكاء واغتنام الفرص[١٧] فكان يدّعي الولاء في الخفاء لأكثر من دولتين فإذا تحكمت عليه إحداهما ادعى النسبة إلى الأخرى ولكن ذلك لم يرض بريطانيا فأخذت تحرض القبائل المجاورة عليه ولكنه كان يقظا لما يحاك له في الخفاء[١٨] . وكان يسكن قطر من آل خليفة الشيخ (**عبد الوهاب بن عبد الله**) و (**خليفة بن محمد بن عبد الله**)(وخليفة بن محمد بن علي) و (أحمد بن محمد بن علي). ويسكن (**البحرين**) من آل عبد الله (**حسن بن عبد الله بن احمد**) وأخواه (**راشد وحمود**) ويدفع لهم الشيخ (**محمد بن خليفة**) راتبا شهريا . بينما يسكن (**الدمام**) محمد بن عبد الله وأبناؤه الثلاثة وإخوته أحمد وعلي وحسن . ويبلغ عدد سكان البحرين وتوابعها على ساحل قطر نحو خمسين ألف نسمة حسب تقرير الكابتن كامبل[١٩] وعرف عن الشيخ محمد تقريبه لرجال العلم لذا امَّهُ كثير منهم كالشيخ (**عبد اللطيف بن الشيخ عبد المحسن الصحاف المالكي**) ، والشيخ (**راشد بن عيسى المالكي**) والشيخ (**حسن بن يوسف الطيور آل يوسف المالكي**) المتوفى ١٣١٥هـ والشيخ (**عبد المحسن بن جامع الحنبلي**) ، والشيخ (**عثمان بن جامع الحنبلي**) والشيخ (**ملا محمد بن عبد ا لله آل محمود الشافعي**) الذي تولي القضاء ثم استعفى عنه[٢٠] وبدأ الشيخ (**محمد بن خليفة**) يوطد حكمه في كل من قطر والبحرين فخضعت له أغلب العشائر . ففي خريف ١٢٥٩هـ/١٨٤٣م نقل (**عيسى بن طريف البنعلي**) حليف الشيخ (**محمد بن خليفة**) مقر إقامته إلى الدوحة في قطر بعد أن استأذن من الشيخ محمد في ذلك فاسند له الحكم في مقر وظيفته هناك مظهرا انه عامل مخلص ومطيع . ولكنه اخذ بجمع العشائر للحرب وقد لبت طلبه معظم

العشائر عدا قبيلة النعيم التي ظلت موالية لآل خليفة فجهز (**عيسى بن طريف**) ما جمع من العشائر خاصة بعد أن رحبت السلطات البريطانية بتعيينه أولا على الدوحة وثانيا باحتمال قيام الحرب إلى الساحل الشرقي من قطر علاوة على رغبة بريطانية بانتزاع الدوحة من أيدي شيخ قبيلة السودان . ولما أمن عيسى بن طريف الجانب البريطاني أرسل إلى أبناء الشيخ عبد الله المقيمين في الدمام يستقدمهم إليه لإتمام مشروعه فلبى الشيخ (**مبارك بن عبد الله بن أحمد**) دعوته وجاء يقود جيشا من بني هاجر وبدأ عيسى بن طريف يغلظ القول في رسالة يطالب فيها بإعادة أملاك وأموال الشيخ مبارك وإلا سوف يشق شقا لا يرفى فأرسل الشيخ محمد الرسالة إلى أخيه الشيخ (**علي بن خليفة**) في المنامة يستطلع رأيه فأجابه الشيخ علي (**بأن الدم هو الذي يرفو ذلك الشق**) وبعد أن تعهد الشيخ محمد بدفع الزكاة للأمير فيصل بن تركي ومقدارها ٨٤ ألف ربية مقابل عدم تشجيع الأمير فيصل لشيخ البحرين السابق وتفرغ الشيخ محمد لوضع خطة يدحر فيها (**عيسى بن طريف**)[٢١] فحشد الشيخ محمد جنوده ووجهها نحو قطر يقودها أخوه الشيخ علي ونزل بها في الجهة الشرقية من قطر في موضع يقال له (**المرونة**) . بينما توجه الشيخ محمد لنجدة قبيلة النعيم التي امتنعت عن الانضمام إلى عيسى بن طريف وقد تهددها بالحرب وشدد عليها ولكنها أصرت على ولائها لآل خليفة فجاء الشيخ (**محمد بن خليفة**) ونزل عندها وكانت قبيلة النعيم قد استعدت للحرب . فما كان من عيسى بن طريف إلا أن يتجه صوب الشيخ محمد بن خليفة قبل أن يصل إلى جيش أخيه (**علي بن خليفة**) وكان مع عيسى بن طريف قبيلة المناصير والشيخ مبارك بن عبد الله يقود بني هاجر وحدثت المعركة في ٩ ذي الحجة ١٢٦٤هـ/ الموافق ٧ نوفمبر ١٨٤٨م قرب موضع ماء يسمى (**أم سويه**) قرب (فويرط) شرق قطر وسميت الواقعة بهذا الاسم أو (**خراب الدوحة الأول**) لأنها كانت سكنى عيسى بن طريف فكأنها خربت بعد مقتله وانتهت الواقعة بمقتل (**عيسى بن طريف**) وهزيمة جنده فأرسل الشيخ محمد لأخيه الشيخ علي يخبره بالنصر فقدم إليه وهنأه بالظفر ورجعا إلى البحرين حاملين لواء النصر وجدير بالذكر فان (**عيسى بن طريف**) هو الذي

ساعد في فتح ممباسا في شرق أفريقيا مع قبيلة آل بنعلي مساعدة لحاكم مسقط وزنجبار السيد سعيد بن سلطان آل بوسعيدي(٢٢) وذلك في ١٢٥٢هـ بعد أن تجهزوا في ثماني عشرة سفينة .

وفي الثامن من مايو ١٨٤٧م الموافق في ٢٢ جمادي الأولى ١٢٦٤هـ وقع الشيخ (**محمد بن خليفة**) اتفاقية مع الإنجليز تقضي بمكافحة الرقيق(٢٣) وكتب السيد عبد الجليل بن السيد ياسين الطباطبائي إلى خورشيد باشا في ١٧ جمادي الآخرة ١٢٦٣هـ الموافق ٥ يونيو ١٨٤٧م خطابا فصل فيه الحوادث والأخبار بعد وصوله إلى الكويت واستلامه رسائل من البحرين تفيد أن باليوز بو شهر واسمه (**هينل**) قدم للبحرين في مركبين فواجهه شيخها (**محمد بن خليفة آل خليفة**) فقال له: انتم في المدة الماضية لم تكن لكم علاقة بأحد من الملوك فكونوا على ما أنتم عليه من الحال الأول من عدم التعلق بأحد ولا تأخذوا بأقوال السلطان (**العثماني**) وان خفتم من زيادة العشور على طارفتكم فاني أكتب إلى حكومة بومبي في عدم أخذ الزيادة على المعتاد القديم ترغيبا لهم في ترك الأقوال السلطانية وبهذا المعنى خاطبهم به صراحة و (**محمد بن خليفة**) قال لهم: أننا إلى اليوم على حالنا الأول لم يحدث لنا تعلق بأحد من الملوك ونتشاور في هذه المادة بيننا ثم يأتيك الجواب ووعدهم الباليوز بأنه سيرسل الفسح لهم عن زيادة المعشر وادعى الإنجليز أن لهم أرض في (**خرائطهم**) وماؤها قريب من البحر ولا يعرف الباليوز اسمها ويجهل محلها وبموجب وصفه لها هي جزيرة الزخنونية قرب العجير بندر الأحساء وموقعها مهم ولابد من إبعاد الإنجليز عنها(٢٤) .

وفي ١٨٤٨هـ اقترح الشيخ محمد للسلطات البريطانية الحماية للبحرين ودارت مشاورات طويلة ما بين السلطات البريطانية حتى رفضت بريطانية في سبتمبر ١٨٤٩م هذا الاقتراح مع أنها أكدت للشيخ الصداقة وحسن النية على الرغم من رفض الحماية رسميا .

وفي الوقت نفسه فقد كان القنصل الإيراني العام يلعب دورا خطيرا بين الجانبين المتنازعين من الأسرة الحاكمة فهو يكاتب كلا الطرفين يمنيهما بالعون الكامل ويضللهما(٢٥) وقد سبق أن كتب تسعة من أهل البحرين رسالة وختموها بأختامهم وأرسلوها إلى الشيخ (عبد الله

بن أحمد) يعرضون عليه أن أحدهم قد مضى بنفسه إلى شيراز وواجه حاكمها وتعهد الحاكم بإمداده بالعساكر والعتاد وما على الشيخ عبد الله إلا أن يرسل الخشب (السفن) لنقلهم وهم عشرة آلاف من الجند النظامي وألفين خيال وعشرين مدفع وثلاثمائة طوبجي وأن يذهب الشيخ عبد الله إلى الدمام ونحن نأخذ لك البحرين ونسلمها لك ونبين لك مدى إخلاصنا لكم(٢٦) .

و في عام ١٢٦٦هـ/١٨٤٩م ترك بعض التجار البحرين مغاضبين الشيخ (**محمد بن خليفة**) نتيجة لإجراءاته التعسفية و اتجهوا نحو جزيرة قيس و اجتمعوا مع بعض العتوب الساخطين على حكم الشيخ محمد و ذلك بعد وفاة الشيخ عبد الله بن أحمد في مسقط فما كان من الشيخ محمد إلا أن أرسل أخاه الشيخ على للتفاوض مع المقيم في الخليج فطلب منه المقيم أن يكون الشيخ محمد مع هؤلاء اكثر لينا وميلا للتفاهم وتمت المصالحة وعاد التجار وهم : **يوسف بن إبراهيم الطيور والشيخ محمد بن سعيد رئيس قبيلة بو كواره والشيخ جاسم بن محمد**(٢٧) .

وفي عام ١٢٦١هـ/١٨٤٥م وصل الدواسر من نجد إلى البحرين لأول مرة وقيل انهم أقاموا ردحا من الزمن في جزيرة الزخنونية وانهم جددوا القلعة التي بناها الشيخ على بن خليفة هناك، ثم انتقلوا إلى البحرين وسكنوا الزلاق والبديع ومنهم من سكن حوار وبنوا فيها البرك وأقاموا لهم قريتين وصفها (**بريدو**) ١٩٠٩م وقال فيها نحو أربعين بيتا وفيها مسجد وبعض المقابر والتي لازالت آثارها باقية للعيان وأكد ذلك لوريمر في ١٩١٥م(٢٨) .

وشهدت البحرين خلال السنوات من ١٨٤٧-١٨٤٩م سوء الإدارة والضعف نتيجة للصراع الطويل بين شيوخ الأسرة الخليفية الحاكمة.

وكان لوفاة الشيخ (**عبد الله بن أحمد**) وانكسار ولده مبارك في معركة (**أم سوية**) كبير الأثر في وضع خطة ضد الشيخ (**محمد بن خليفة**) ولكن قلة أتباعه من جهة وحزم ويقظة الشيخ (**محمد بن خليفة**) من جهة أخرى حالت دون تحقيق رغباته . وفي ١٢٦٧هـ/١٨٥٠م اتفق مبارك مع اخوته الخمسة الذين كانوا وقتئذ معه في الدمام على الاستنجاد بأمير نجد الأمير (**فيصل**

**بن تركي)** فأمدهم بجيش قاده مبارك واتجه صوب قطر مع ما جمعه من جموع أخرى ونزل في موضع يقال **(مسيمير)** ومن هناك اتجهوا نحو البحرين فما كان من الشيخ **(محمد بن خليفة)** إلا أن جهز جيشين أحدهما بري بقيادة أخيه الشيخ علي وأرسله إلى قطر لمناجزة آل عبد الله بينما قاد الجيش البحري الشيخ **(عبد الرحمن بن عبد اللطيف بن عبد الله بن خليفة)** والتقى الجيش البحري بآل عبد الله في موضع **(رأس تنورة)** وبعد معركة شديدة انكسرت قوات آل عبد الله وقتل مبارك وأخوه راشد ابنا الشيخ عبد الله كما قتل بشر بن رحمه الجلهمي ومريط من بني هاجر وسميت هذه الواقعة **(واقعة التنورة)** وقد حدثت في ١٢٦٧هـ/١٨٥٠م وقد ساءت العلاقات بين الشيخ محمد وبريطانيا في عام ١٨٥٠م عندما وجه خطابا اظهر فيه الغضب والنقد الشديد من تصرفات الكولونيل **(هينل)** وبعثت السلطات البريطانية بسفينة حربية إلى البحرين فما كان من الشيخ إلا أن بعث أخاه الشيخ علي ليعتذر عما بدر من أخيه الشيخ محمد فهدأت الأحوال[٢٩] .

والباحث في تاريخ هذه الفترة يجد تفاصيل حول أسباب الخلاف الذي حدث بين الشيخ **(محمد بن خليفة)** والمقيم البريطاني الكولونيل **(هينل)** في بو شهر وكان **(حاجى جاسم)** الوكيل المحلى للإنجليز في البحرين وهو من أصل فارسي يلعب دورا خطيرا في إثارة الخلاف بين المقيم وشيخ البحرين ففي الثاني من سبتمبر ١٨٥٠ م كتب حاجي جاسم رسالة إلى المقيم **(هينل)** ذكر فيها أنه بعد أن نقل رسالة المقيم إلى الشيخ **(محمد بن خليفة)** وقرأها غضب لأنه رجل متكبر وأن الشيخ قال : المقيم يسخر مني وليست كلماته إلا سخرية وأنني - **والكلام للشيخ محمد بن خليفة** - كتبت له مرارا عن الشخص الذي قتل وهو من العتوب ومن رعاياي حين قتل في مصايد اللؤلؤ وهو يرد علي قائلا بأنه لا يعرف القاتل ، أنني واثق بأن القاتل من **(كونك)** ويعرف كل واحد بأنني أستطيع أن أقتل عددا منهم دون أن يعرفه أحد وذلك حينما يزورون قطر أو أي مكان آخر لكن المقيم إذا اطلع على ذلك سيطلب مني تعويضا باعتبار ذلك نوع من الاغتيالات. وأنا كذلك أستطيع أن أتحالف مع الأجانب وأرفع علمهم ولا أريد شيئا من الإنجليز وإذا

زارت سفنهم البحرين لا ألتفت إليها و لن أزورها ولما أن دخل الشيخ (**علي بن خليفة**) ختم الشيخ (**محمد بن خليفة**) كلامه إلى حاجي جاسم بقوله لا أريد أن أكتب للمقيم بل أنقل له ما قلت لك .
فلما قرأ المقيم (**هينل**) رسالة حاجي جاسم أرسل رسالة إلى الشيخ (**محمد بن خليفة**) مؤرخة في ٢٠ سبتمبر ١٨٥٠م ذكر فيها أنك تتهمني بالإهمال وتستخدم كلمات مهينة ضد الحكومة البريطانية أمام وكيلنا المحلي حاجي جاسم وتقول بأنك تستطيع أن تهزم الأسطول البريطاني بمجرد سفينة واحدة من سفنك واستطرد المقيم في رسالته للشيخ محمد بن خليفة بقوله : **وأني أعرض عليك إما أن تنفى ما نسب إليك أو تعتذر للحكومة البريطانية واطلب من الحاكم العام أن يسمح لي أن أطلب من حاكم البحرين اعتذارا رسميا وإن رفض ذلك افرض عليه حصارا بحريا وإن لزم الأمر أدمر أسطول البحرين الحربي .**

فكتب الشيخ (**محمد بن خليفة**) إلى المقيم (**هينل**) قوله : لقد سمعت من صديقنا محمد بن سعيد بأنك زعلت من الكلمات التي استخدمتها كما نقلها لك بعض الأشخاص وقد يكون له بعض الأساس من الصحة لكنني لم أتصور أن الموضوع يكبر لهذه الدرجة من الخطورة نظرا لأنني شعرت بأني مظلوم تجاه تصرفاتك واستخدمت لهجة خشنة دون أن أقصد أية إساءة فاعتذر لك وأرجو أن يشرح لك أخي الموقف ويزيل سوء التفاهم بيننا لأنه يمثلني تماما ويعتبر كل ما يقوله كأنه صدر عني شخصيا وإن شاء الله هذا يكفينا[٣٠] .

فأجاب المقيم (**هينل**) بالشكر على رسالته الكريمة وأنه أصبح مسرورا بلقائه لأخيه وبخصوص الأشخاص الذين اعتدوا على واحد من رعاياكم فقد أصدرت لهم إنذارا على أن لا يتكرر ذلك منهم ومن المنتظر أن تبحر بعض سفننا باتجاه (**كونك**) قريبا وسوف نكرر الإنذار لأهل كونك مرة أخرى وأضاف المقيم (**هينل**) بأنه يقبل اعتذار الشيخ (**محمد بن خليفة**) بالنسبة للكلمات التي صدرت ضده ولكن بالنسبة لبريطانيا يفضل أن يعتذر شخصيا لقائد القوات البحرية عند زيارته للبحرين على متن سفينته ثم تطرق الشيخ علي إلى موضوع أبناء الشيخ عبد الله بن أحمد الراحل وتواجدهم في (**كونك**)

وعزمهم على شن هجوم على البحرين فأجابه المقيم (**هينل**) أنه سوف يوجه إنذارا لهم[٣١].

وفي نهاية ١٢٦٨هـ/١٨٥١م أعيدت الدوحة في قطر إلى الشيخ (**علي بن خليفة**) أخ الشيخ محمد شيخ البحرين والتي كانت قد انتزعت منه سابقا من قبل الأمير السعودي (**فيصل بن تركي**) وعاد الأمير إلى الهفوف بصورة سلمية وقد توسط الشيخ طحنون شيخ أبو ظبي في إعادة الدوحة إلى شيوخ البحرين[٣٢] وفي العام التالي رفض الشيخ محمد دفع الزكاة للأمير فيصل بن تركي وذلك لاستقرار أبناء الشيخ عبد الله في الدمام تحت حمايته ولكن توسط المقيم من جهة وحكمة الشيخ علي الذي كان دائما أكثر ضبطا للنفس من أخيه الشيخ محمد فقد دفعت الزكاة وانتهت الأزمة بسلام[٣٣].

وقد حدث في عام ١٢٧٠هـ/١٨٥٣-١٨٥٤م أن هاجم آل عبد الله البحرين في وقت الغوص حيث خرج أهل البحرين للغوص كعادتهم فجمع آل عبد الله السفن من أهل قطر وسيروها بالرجال نحو البحرين . وشعر الشيخ علي الذي كان في المنامة بأن السفن القطرية انقطعت عن المجيء كعادتها للبحرين فظن أن في ذلك مكيدة فأخبر أخاه الشيخ محمد بذلك وكان في المحرق وقتئذ واتفق معه أن يطلق طلقتي مدفع إذا هجم آل عبد الله وفي اليوم التالي وصلت طلائعهم فأطلق طلقتين ولكنهم نزلوا في يمين نخل منطقة (**سنابس**) بالبحرين فبادرهم الشيخ علي بالهجوم وساعده أخوه (**راشد بن خليفة**) بجيش من الفرسان فأصلياهم نارا حامية بالمدافع والبنادق فخاب ظن آل عبد الله لأنهم اعتقدوا أن البلاد خالية وأن أهلها ذهبوا للغوص فهاجموها على غرة . فما كان من آل عبد الله إلا أن هربوا منكسرين بعد أن تركوا عشرة قتلى فلما وصل الشيخ محمد من المحرق وجد المعركة قد انتهت بفضل بسالة أخيه الشيخ علي فأثنى على شجاعة أخيه وحزمه وفراسته وأصالة رأيه وعلو همته وكان من ضمن جيش الشيخ علي رئيس قبيلة المنانعة واسمه (**سالم بن درويش**) المعروف بشجاعته وأرخت المعركة بلفظ (**خورعت**) وسميت بواقعة الدولاب وذلك في ١٢٧٠هـ ولقد حدث حصار بحري على الدمام قام به الشيخ (**علي بن خليفة**) حيث كان يسكنها آل عبد الله

الذين لجأوا إليها بعد انكسارهم في البحرين وكان القصد من هذا الحصار منع السفن التجارية من الوصول إليهم والتضييق على مصالحهم الاقتصادية وبقي الشيخ علي محاصرا لهم نحو أحد عشر شهرا ولما رأى بالناظور أن إبلا لآل عبد الله تخرج كل يوم قبيل الظهر لترد من عين تقع جنوب البلدة أرسل لأخيه الشيخ محمد أن يرسل له قوما من الفرسان فأرسلهم بقيادة الشيخ (**صقر بن محمد بن خليفة**)[٣٤] وهناك دبر الشيخ علي خطة عسكرية استطاع بموجبها تحقيق غايته وهي وصول الإبل سالمة للبحرين فلما رأى الفرسان قد أغاروا على الإبل واقتطعوا منها نحو أربعين ناقة عمانية وهو يراقبهم بالناظور تحرك بسفن نحو البلدة وأمر بإطلاق البنادق مظهرا عزمه على إحتلالها فما كان من آل عبد الله إلا أن تركوا أمر الإبل واتجهوا للدفاع عن البلدة حتى إذا ما حملت الإبل بالسفن أمر الشيخ علي أن يكف المقاتلون عن الرمي وقفل راجعا إلى البحرين في عام ١٢٧١هـ/ ١٨٥٤-١٨٥٥م وسمي هذا الحصار (**شد الدمام**) أي حصار الدمام وفي رواية أخرى نرى أنها سميت (**وقعة خالي**) حيث أن أبناء الشيخ عبد الله أرسلوا إلى البنعلي في جزيرة قيس يطلبون منهم المدد فساعدهم حين اتجهوا نحو البحرين وكانوا على خلاف مع الشيخ (**محمد بن خليفة**) فانسحب الشيخ (**علي بن خليفة**) نحو البحرين وفك الحصار الذي ضربه حول آل عبد الله في الدمام .

وفي ١٥ رمضان ١٢٧٢هـ الموافق في العاشر من شهر مايو ١٨٥٦م عقدت اتفاقية في منع تجارة الرقيق وذلك بين القبطان جونس باليوز بريطانيا في الخليج والشيخ (**محمد بن خليفة**) وهي متممة ومؤكدة للاتفاقية السابقة المعقودة بين الشيخ محمد وبريطانية في ١٢٦٣هـ/١٨٤٧م وفيها يتعهد الشيخ محمد أن لا يسمح للسفن التي تنقل الرقيق أن تنزل في البحرين وإذا تحقق توصيل الرقيق فيها فأنه يحجزها مع نواخذها ويمنعها من السفر إلى أن يصل الحكم عنها من الباليوز البريطاني .

ونتيجة للحظر الذي فرضه الشيخ (**محمد بن خليفة**) على السفن التجارية التي تحمل العلم البريطاني من الإبحار للقطيف وزيادة الضرائب على الواردات والصادرات فقد أرسل المقيم فيلكس جونز السفينة الحربية (**كليف**) لتقوم بتحذير الشيخ (**محمد بن خليفة**) ولكن

توسط الشيخ علي بن خليفة أنهى الأزمة ١٨٥٨م ولعل هذا الموقف البريطاني هو الذي دفع الشيخ (**محمد بن خليفة**) للتوجه نحو دول أخرى كالدولة العثمانية فقد شهد عام ١٢٧٥هـ/١٨٥٨-١٨٥٩م اهتمام الدولة العثمانية بالبحرين فأرسلت وفدا برئاسة (**محمد بيك الديار بكرى**) و (**عبد القادر أفندي**) إلى الشيخ (**محمد بن خليفة**) وطلبا منه رفع العلم العثماني على جميع مملكته فلبى طلبهما ووعدهما بذلك ورفع العلم العثماني بالفعل وذلك في زمن ولاية مدحت باشا على بغداد .

وقد عرض الشيخ (**محمد بن خليفة**) استعداده لدفع شئ من المال إلى ميرزا مهدي خان وأرسل حصانين هدية له ونصب العلم الفارسي على قلعته كما أهدى لوزير الخارجية الفارسي سيفاً مذهباً وحصاناً من أنجب الخيول وذلك في ٢١رمضان ١٢٧٦هـ/ إبريل ١٨٦٠م . ولكن في فبراير ١٨٦١م اختفى وكلاء تركيا وإيران جميعا من البحرين وفى العشرين من ذي القعدة ١٢٧٧هـ الموافق مايو ١٨٦١م عقدت معاهدة بين الشيخ (**محمد بن خليفة**) والقبطان فيلكس جونز مأمور البحرية البريطانية والباليوز في الخليج وخلاصتها أنها معاهدة صلح دائم وصداقة مع بريطانية على أن تبقى سائر الاتفاقيات السابقة قائمة وأن لا أتعبث في البحر بحرب ظاهر أم بسبيل البطش ما دامت بريطانية تحافظ على أملاكنا في البحر . ولرعايا الدولة البريطانية أن يتخذوا لهم مساكن في البحرين وتوابعها لأجل التجارة على أن يسلموا العشر وهو خمسة بالمائة على أموالهم التي يتاجرون فيها وأن يقدم لهم كافة التسهيلات كما أن على الإنجليز تقديم كافة التسهيلات لرعايا البحرين القاطنين في الموانئ التي بين حكامها وبين الدولة الإنجليزية رابطة صداقة.

وكان عام ١٢٨٠هـ/ ١٨٦٣ و١٨٦٤م عام سلام وصلح بين آل عبد الله وآل سلمان إثر توسط أمير نجد (**فيصل بن تركي**) بعد أن طلب آل عبد الله من الأمير السعودي التوسط للصلح حيث أيقنوا أنهم عاجزون عن المقاومة لضعفهم أمام آل سلمان الذين وافقوا على الصلح وعفوا عن آل عبد الله وسمحوا لهم بالعودة إلى البحرين ولما قدموا أنعموا عليهم وأكرموهم غاية الإكرام فزالت الضغائن والأحقاد وحلت محلها المحبة والاحترام والخضوع لصاحب السلطان

من بني عمومتهم وأرخ هذا العام بلفظ (فرغ) وتشير إلى انتهاء الخصومات[٣٥].

وفي ١٢٨١هـ/٦٤-١٨٦٥م حج الشيخ (**محمد بن خليفة**) وعلى اثر عودته وجد أن أهل قطر عصوا عامله الشيخ (**أحمد بن محمد بن أحمد بن سلمان آل خليفة**) وفي عام ١٢٨٢هـ حدثت واقعة في الوكرة موقع الحاكم (**أحمد آل خليفة**) ولما لم يكن لدى الحاكم قوة للدفاع فاضطر للتوجه إلى (**الخور**) الواقع في الطرف الشمالي من بر قطر وسميت هذه الواقعة بواقعة (**الوكرة**) فأرسل الشيخ (**محمد بن خليفة له**) جيشا يقوده الشيخ علي بن خليفة إلى الدوحة وحدثت المعركة التي أسفرت عن انتصار الشيخ (**علي بن خليفة**) وخربت البلدة وسميت هذه الوقعة (**خراب الدوحة الثاني**)[٣٦] وذلك في عام ١٢٨٣هـ/١٨٦٦م حدثت معركة في البحر أطلق عليها معركة (**الحمرور**) قرب ساحل قطر وانتهت بأن تفرق الجمعان متناصفين .

وفي السابع من صفر ١٢٨٤هـ/١١ يونيو ١٨٦٧م حدثت واقعة تسمى (**دامسة**) في قطر وسببها أن الشيخ (**قاسم بن ثاني**) توجه إلى البحرين يطلب العفو من الشيخ (**محمد بن خليفة**) عما بدر منه من أخطاء خاصة حينما علم أنه قد جهز جيشا عظيما يقصده به هو وقومه فلما وصل إلى البحرين أمر الشيخ (**محمد بن خليفة**) بالقبض عليه وزجه في السجن دون أن يواجهه ليبدي اعتذاره فثار بعض أتباعه في قطر وحدثت معركة بحرية عظيمة في دامسة انتهت بانتصار شيخ البحرين ولم يكتف بذلك بل تابعهم ونزل إلى أرض قطر . وحدثت المعركة وأختطف الشيخ (**إبراهيم بن علي**) وأسروه لديهم ولم يطلقوه إلا بفك أسيرهم الشيخ قاسم بن ثاني[٣٧] . وفي رواية أخرى أن سبب حدوث وقعة (**دامسة**) أن الشيخ (**محمد بن خليفة**) كتب إلى الشيخ (**قاسم بن محمد بن ثاني**) يدعوه إلى البحرين ليتفاوض معه في أمر عامله على قطر (**أحمد بن محمد آل خليفة**) فلما وصل الشيخ قاسم حبسه فتوجه قومه يطالبونه باطلاق سراحه فأرسل لهم الشيخ محمد السفن بقيادة الشيخ (**علي بن خليفة**) فكسرهم وأمر الشيخ علي أن يستعد لغزوهم وحدثت معركة تسمى (**الوكرة**) في عام ١٢٨٤هـ وفيها انكسر جيش الشيخ علي وتبادل الجانبان الأسرى[٣٨] . ولقد

أدت المعركة البحرية بين الشيخ **(محمد بن خليفة)** وأهالي قطر في **(دامسة** ١٢٨٤هـ/١٨٦٧م إلى تدخل المقيم البريطاني في الخليج الذي كان مقرة بوشهر مستنكرا هجومه على قطر لأن في ذلك خرقاً للاتفاقية الموقعة بين الشيخ **(محمد بن خليفة)** وبريطانيا والتي فيها **(أن لا يجهز الشيخ محمد أي حملة بحرية ولا يتخذ سفن حربية وتتعهد بريطانيا في الدفاع عن أية غارة بحرية تحدث على البحرين)** ولكن بعض قبائل قطر هجموا عليه فما كان من الشيخ **(محمد بن خليفة)** إلا أن ردهم وقد رأى أنه إذا انتظر حتى يخبر المقيم في بوشهر فإنه يخشى على بلاده منهم فبادر بالدفاع عن ملكه فحدثت وقعة **(دامسة)** فاتخذ المقيم من وقعة دامسة هذه ذريعة للتدخل واتجه ببارجته إلى البحرين فترك الشيخ **(محمد بن خليفة)** البلاد وتوجه إلى قطر بعد أن عين أخاه الشيخ علي مكانه ليتفاوض مع المقيم الذي اعتبر خروج الشيخ محمد من البحرين اعترافا بمخالفته للاتفاقية فأمر بضرب قلعة بوماهر فهدمها وأحرق ثلاث سفن حربية من الأسطول الشراعي الخاص بالحاكم وأمر الشيخ علي أن يتقلد الحكم . وبعد جدال عنيف رضى الشيخ علي بالأمر الواقع وتولى الحكم في ١٢٨٥هـ وأرخت بلفظ **(غرفة)** . ومن هنا بدأ الخلاف بين الأخوين . وفي ١٢٨٥هـ اضطر الشيخ **(محمد بن خليفة)** إلى الذهاب إلى الكويت وتوسط الشيخ **(عبد الله بن صباح آل صباح)** في الصلح وحل الخلاف بين الأخوين برسالة نقلها الشيخ **(محمد آل صباح)** إلى الشيخ **(على بن خليفة)** الذي وافق على إرجاع الحكم لأخيه محمد فقدم الشيخ **(عبد الله بن صباح)** مع الشيخ **(محمد بن خليفة)** ولكن الأجانب حالوا دون تحقيق ذلك فقد رجع الشيخ على عن فكرة التنازل لأخيه محمد فعاد الشيخ عبد الله إلى الكويت بينما نزل الشيخ محمد في دارين ليستعد لغزو البحرين[٣٩] .

وقصة الخلاف بين المقيم والشيخ **(محمد بن خليفة)** أدت إلى خروجه من البحرين إلى الكويت ورغم مساعي شيخ الكويت للصلح وعودته إلى البحرين إلا أن موقف المقيم حال دون ذلك حيث استقر به المقام في **(دارين)** مستغلا الاضطرابات التي حدثت في الأحساء فاستولى على سبع أو ثمان سفن من هناك وجهز جيشا من بنى هاجر وأتاه

الشيخ (**ناصر بن مبارك**) من آل عبد الله واتفق معه على أن يسير معه ضمن أتباعه وتوجه نحو البحرين وكانت سفن **الشيخ (على بن خليفة)** حاكم البحرين مشغولة بصيد اللؤلؤ ولم يكن يشك الشيخ على بأن أخاه الشيخ محمد يجرؤ على القيام بالاعتداء على البحرين عن طريق البحر ولما نزلوا البر خرج لهم الشيخ على بجيشه ومعه بقية آل عبد الله وعليهم الشيخ (**محمد بن عبد الله**) إلا أن الشيخ على ارتاب من آل عبد الله حينما علم أن اتفاقا حصل بين أخيه الشيخ محمد وآل عبد الله فطلب من آل عبد الله تجديد العهد فعاهدوه ثانية فأرسل الشيخ على ابنه الشيخ إبراهيم إلى آل عبد الله في معسكرهم يأمرهم بمهاجمة جيش الأعداء فأظهروا له الامتثال وعند عودته كرّ عليه رجل من بنى هاجر فطعنه برمح أرداه قتيلا عن ظهر فرسه. ثم تقدم الشيخ (**على بن خليفة**) نفسه للقتال فالتحمت الصفوف وانتهت المعركة بمقتل الشيخ (**على بن خليفة**) وفر أتباعه إلى بر قطر فعاد الحكم إلى الشيخ (**محمد بن خليفة**) كما قتل قبيل المعركة خطأ أحد أبناء الشيخ (**محمد بن عبد ا لله**) المشهور بالحباب لأنه الولد الوحيد له ولا يعرف من قاتله

وقتل الشيخ (**خليفة بن علي بن خليفة بن مقرن آل خليفة**) والشيخ (**سلطان بن عبد الرازق بن إبراهيم آل خليفة**) والشيخ (**راشد بن عبد الرحمن بن راشد آل فاضل**) وأرخت هذه الوقعة التي سميت (**وقعة الضلع**) في ٢١ جمادي الثانية عام ١٢٨٦هـ/١٨٩٦م وأرخوها بقولهم (**وي لاوال خربت**) وكان للشيخ (**علي بن خليفة**) ١٧ ابناً . ولمحمد بن خليفة ١٤ ابناً ودخل كل من (**محمد بن خليفة**) و (**محمد بن عبد الله**) و (**ناصر بن مبارك**) مدينتي المنامة والمحرق وبرزت خلافات حادة بينهم فأسر كل من (**محمد بن عبد الله وناصر بن مبارك**) شريكهم الشيخ (**محمد بن خليفة**) وسجنوه في قلعة (**بوماهر**) في المحرق وتولى الأخ الأكبر لآل عبد الله وهو الشيخ (**محمد بن عبد الله**) حكم البلدة وتوجه الشيخ (**عيسى بن علي**) ابن حاكم البحرين السابق الشيخ (**علي بن خليفة**) إلى قطر ونزل عند قبيلة النعيم وتبعه سائر اخوته وبني عمه الشيخ محمد بن خليفة ماعدا أخيه (**أحمد بن الشيخ علي**) فإنه توجه إلى نجد فأقام ضيفا لدى الأمير عبد الله بن فيصل آل سعود إلى أن التقى أخوه بالشيخ عيسى الحاكم في البحرين

بعد أن توسط السلطان عن طريق السفارة الإنجليزية للإفراج عنه وذلك في أواخر رجب ١٣٠٤هـ حيث تم تأجير بيت لأمير البحرين في مكة المكرمة وأرسلت له زوجته وأولاده مع اثنين من الخدم[٤٣] وقد حددت الوثائق العثمانية تاريخ وصول شيخ البحرين السابق إلى مكة المكرمة في الرابع والعشرين من شهر كانون الأول عام ١٣٠٣ رومية وقد بلغ عدد أفراد عائلته عشرة أنفار[٤٤] ثم وصل آخرون فأصبح عددهم خمسة عشر شخصا بما فيهم خدمه وقد ورد إلى أبنائه في البحرين كتاب من (**راشد بن سلطان آل زايد**) وهو من وجهاء أهل البحرين وكان إذ ذاك في (**دار الخلافة الإسلامية بإسطنبول**) ينبئهم فيه بتشفيع السلطان (**عبد الحميد الثاني**) في أبيهم وأنه سينقل إلى مكة المكرمة فطلب منه أن يتوجه أحدهم إلى عدن لمساعدة أبيهم على السفر إلى مكة المشرفة فتوجه نجله سمو الشيخ إبراهيم بن محمد إلى البصرة ومنها إلى عدن فلم يجد عند حكومتها خبرا عما جاءه من الخبر فتوجه إلى جدة فمكة فالطائف حيث قابل فيها الشريف (**عون الرفيق بن محمد بن عون**) ووالي مكة (**صفوت باشا**) فشرح لهما المسألة فأبرقا إلى دار الخلافة يسترحمان تأكيد الخبر فصدر الأمر السلطاني إلى عدن بإطلاق سراح الشيخ (**محمد بن خليفة**) فتوجه مع ابنه إبراهيم إلى مكة المشرفة فوصلاها في ١٣٠٥هـ[٤٥] .

توفي الشيخ (**محمد بن خليفة آل خليفة**) في ٢ ذي الحجة ١٣٠٧هـ الموافق ٢١ يوليو ١٨٩٠م ودفن في مكة المكرمة . كما حددت الوثيقة العثمانية تاريخ وفاة الشيخ (**محمد بن خليفة**) شيخ البحرين السابق في ٢ ذي الحجة ١٣٠٧هـ مخلفا زوجة اسمها لطيفة وأخرى اسمها نور هانم ودفن بمكة المكرمة وهو الأصح[٤٦] بينما أوردت الوثائق الإنجليزية أن الشيخ (**محمد بن خليفة**) توفي (بالمدينة المنورة). كما أن وثيقة إنجليزية تذكر أن الشيخ (**محمد بن خليفة**) نفسه طلب موافقة من دولة الهند بأن يقضي بقية عمره في الاعتكاف في الأماكن المشرفة بالحجاز وصدرت الموافقة له في ١٦ فبراير ١٨٨٧م الموافق ٢٢ جمادي الأولى ١٣٠٤هـ ولذلك لا يكون في خواطركم تشويش من أجل هذه المرحمة على الشيخ (**محمد بن خليفة**) الكبير السن ومما يناقض الوثائق الإنجليزية أن التماسا تقدم به ابنه علي بن محمد بن خليفة طالبا إطلاق سراح

والـده في عـدن وذلـك في ٢٣ شـعبان ١٢٩٦هـ/١٢ أغسطس ١٨٧٩م أمـا الشيخ النبهـاني فذكـر أن وفـاة الشـيخ (**محمد بن خليفة**) بمكة المشرفة كـانت في الثـامن من ذي الحجـة ١٣٠٧هـ . رحمه الله تعالى . بينما حـددت الوثيقـة العثمانية سنة وفاتـه في مكـة المكرمـة في الثاني من ذي الحجة ١٣٠٧هـ . وكما أوردنا فـإن الوثيقـة الإنجليزيـة جعلت وصوله إلى المدينة المنورة وهذا خطأ بـل إلى مكـة المكرمـة في ٢٢ جمـادي الأولى ١٣٠٤هـ بينما الوثيقة العثمانيـة ذكـرت وصولـه إلى مكـة المشـرفة في الرابـع والعشرين من كانون الأول ١٣٠٤ رومـي وهكـذا اختلفـت الروايـات وأرجحـها الرواية العثمانيـة لأن الدولـة كـانت قد خصصت راتبا له ولحاشيته واستأجرت له منزلا في مكة المكرمة وليس في المدينـة المنورة علـى حـد مـا ورد في الوثيقـة الإنجليزيـة فـأنظر كيـف اختلفـت الروايـات في مكـان وزمـان وفـاة الشـيخ محمد بن خليفة رحمه الله تعالى[٤٧] .

# الهوامش

١ - محمود بهجت سنان ، البحرين درة الخليج العربي ص ١١٦ / ط ١ / ١٩٦٣م والتحفة النبهانية ، ص ١٥٧ . يقول الريحاني أن السبب في مثل هذه الفتن المألوفة في بيوت أمراء العرب الحاكمين هو غالبا تعدد الزوجات التي تنشأ منه ضغائن بين الإخوان ومنافسات الأمهات خصوصاً إذا كن من قبائل مختلفة . وانظر أر/ ١٥ /١ / ١٤٣ من كمبل إلى أندرسن في ١ / ٧ / ١٨٥٤م .

٢ - راشد بن فاضل البنعلي ، المتوفى بدارين ١٣٧٦هـ ١٩٥٦م شاعر ومؤرخ . والوثيقة ١١ / ٣٠-٤٠ .

٣ - لوريمر ، ص ٨٦٦ ( الطبعة الإنجليزية ) . والمصدر السابق ٣ / ١٢١٢ القسم التاريخي / وذكر لوريمر ( حكم عمه ) والأصح حكم عم أبيه الشيخ عبد الله بن أحمد .

٤ - آر / ١٥ / ١ / ٨٩ / ١٣٠ / تقرير من القبطان بروكس على ظهر السفينة ( كوت ) إلى المقيم في الخليج ( توماس مكنزي ) بتاريخ ٢٧ أغسطس ١٨٤٠م . وانظر تقرير بروكس الذي أعده في ٢١ أغسطس ١٨٢٩م برقم ٥٦٣ حيث يقول : وكانت سيادة شيخ البحرين في قطر تشمل ساحل قطر من رأس ركن إلى البدع شرقا ومن رأس ركن إلى حوار غربا . وذكر لوريمر أن الدواسر وصلوا البحرين ١٨٤٥م انظر لوريمر ٣ / ١٢١٢ القسم التاريخي المترجم والقسم التاريخي ص ٨٨٣ النص الإنجليزي . بينما ذكر بروكس عن الدواسر في البحرين كقوة عسكرية عددها ٣٠٠ محارب في عام ١٨٤٠م / ١٢٥٦هـ وهو شاهد عيان وقد عاصر الأحداث وكتب تقريره وهو القبطان ( بروكس ) لذا فإن ما ذكره ( لوريمر ) يحتاج إلى دقة في التوقيت .

٥ - لوريمر ، ص ٨٦٢ الطبعة الإنجليزية .

٦ - دليل الخليج ص ٨٧٠ / ودفن الشيخ محمد بن أحمد بن سلمان في الرفاع الشرقي وقبره معروف في شارع رقم ٣٥١ وقام علي بن أحمد بتحويط القبر بجدار طوله حوالي ١٢ قدما وعرضه ٨ أقدام وارتفاعه ٥ أقدام وهو غير مسقف وقائم إلى اليوم . أما ا بن الشيخ محمد واسمه أحمد فهو الذي قتل في الحمرور ١٢٨٣هـ / ١٨٦٦م .

٧ ـ التحفة النبهانية ، ص ١٦٠ .

٨ ـ التحفة النبهانية ، ص ١٥٧ و ١٥٨ ، ط ٢ سنة ١٣٤٣هـ / والبحرين درة الخليج العربي ، ص١٦٧.

٩ ـ البحرين درة الخليج العربي ، ص ١٦٧ .

١٠ ـ التحفة النبهانية ، ص ١٥٩ .

١١ ـ سميت قلعة بوماهر نسبة إلى بوماهر وهو وزير الشيخ جبارة . انظر الوثيقة الهولندية ، ودليل الخليج ص ٨٧٠ .

١٢ ـ لوريمر ٣ / ١٢١٣ .

١٣ ـ دليل الخليج ص ٨٧٢ الطبعة الإنجليزية .

١٤ ـ التحفة النبهانية ، ص ١٦٢ .

١٥ ـ مذكرات راشد بن فاضل البنعلي ، ص ٢١ – ٢٦ ، رسالة من الأمير فيصل بن تركي إلى الشيخ علي بن سلطان بن سلامة مؤرخة في ٢٧ ذي القعدة ١٢٧١هـ .

١٦ ـ مذكرات راشد بن فاضل البنعلي ص ٢٨ / وصورة رسالة من الشيخ محمد بن خليفة إلى ملا حسين متولي الجمرك في البحرين مؤرخة في ١٧ شوال ١٢٧٦هـ وأصل الرسالة محفوظ لدى راشد البنعلي كما ورد في مذكراته .

١٧ ـ التحفة النبهانية ، ص ١٦٣ .

١٨ ـ البحرين درة الخليج العربي ، ص ١٣٤ .

١٩ ـ ار / ١٥ / ١ / ١٤٣ / من كمبل إلى أندرسن في ١ / ٧ / ١٨٥٤م .

٢٠ ـ التحفة النبهانية ، ص ١٦٤ .

٢١ ـ دليل الخليج ٣ / ١٢١٣ و ١٣٣٠ والتحفة النبهانية ، ص ١٦٤ و ١٦٥ .

٢٢ ـ التحفة النبهانية ، ص ١٦٦ .

٢٣ ـ انظر صورة الاتفاقية .

٢٤ ـ انظر الوثيقة المؤرخة في ١٧ جمادى الآخرة ١٢٦٣هـ .

٢٥ ـ دليل الخليج ، ص ٨٨٢ ، الطبعة الإنجليزية .

٢٦ ـ رسالة مؤرخة في ١٨٤٢م .

٢٧ ـ مختارات بومباي عن العتوب ٢٤ / ص ٤٢١ .

٢٨ ـ دليل الخليج ٣ / ص ١٣٣٣ .

٢٩ ـ دليل الخليج ، ص ٨٤٤ ، الطبعة الإنجليزية / ٣ /١٣٣٥ و ١٣٣٦ القسم التاريخي المترجم .

٣٠ ـ رسالة من الشيخ محمد بن خليفة إلى هينل بتاريخ ٢ أكتوبر ١٨٥٠م وبرقم ١٠٤٥٣

٣١ ـ من هينل إلى الشيخ محمد بن خليفة برقم ٤٥٣ ر ١٠ وتاريخ ١١ أكتوبر ١٨٥٠م ، وانظر تفاصيل المقابلة في الوثيقة رقم ٧٦ والمؤرخة ١٦ ديسمبر ١٨٥٠م / ٨ .

٣٢ ـ دليل الخليج ١/ ٨٨٥ الطبعة الإنجليزية ٣ / ١٣٣٧ القسم التاريخي المترجم .

٣٣ ـ نفس المصدر ٣ / ١٣٣٧ .

٣٤ ـ ورد في التحفة النبهانية ص ١٧٧ : أنه صقر بن محمدٍ بن علي بن محمد بن خليفة ولكن لم يرد في شجرة آل خليفة أن لمحمد بن علي ولداً اسمه صقر ، أنظر الشجرة التي رسمها خلدون أبا حسين في ١٩٨٢م . وتحقيق مجلس العائلة الخليفية .

٣٥ ـ التحفة النبهانية ، ص ١٧٩ و (فرغ ) الفاء ٨٠ + الراء ٢٠٠ + الغين ١٠٠٠ = ١٢٨٠ هجرية . ودليل الخليج ٣ / ١٣٣٨ ـ ١٣٤٢ ، القسم التاريخي / ومذكرات راشد بن فاضل البنعلي ص ٢٦/٢١.

٣٦ ـ التحفة النبهانية ص ١٨١ و ١٨٢ .

٣٧ ـ التحفة النبهانية ، ص ١٨٥ .

٣٨ ـ مذكرات راشد بن فاضل البنعلي ص ٢٨ و ٢٩ .

٣٩ ـ التحفة النبهانية ، ص ١٨٥ ـ ١٨٩ / انظر رسالة المقيم ( بيلي ) إلى حكومة بومباي برقم ١٦٥ / بتاريخ ١١ سبتمبر ١٨٦٩م وكان قد سبق وأخبر المقيم حكومة بومباي أن الشيخ محمد بن خليفة قد ذهب إلى الكويت وذلك كما ورد في الرسالة المؤرخة في ٢٤ أبريل ١٨٦٩م .

٤٠ ـ رسالة رقم ١٦٥ / ١٨٦٩م من الكولونيل بيلي إلى حكومة بومباي بتاريخ ١١ سبتمبر ١٨٦٩م . والتحفة النبهانية ، ص ١٨٩ ـ ١٩٣ ، ومذكرات راشد بن فاضل البنعلي ص ٢٩ و ٣٠ .

٤١ ـ رسالة من عراق وحجاز أردوي همايون مشيري وبغداد أيالتي واليسي إلى الشيخ محمد بن خليفة بتاريخ شعبان ١٢٧٦هـ . ورسالة من ملتزم القاطعات ورئيس البوابين (عبيد ) إلى الشيخ محمد بن خليفة في ٨ ذي الحجة ١٢٧٦هـ .

٤٢ ـ وثيقة رقم ٨٠٩٠٥ / إرادة داخلية مؤرخة في ٢٣ رجب ١٣٠٤هـ / ٥ نيسان ١٣٠٣ رومي ومرفق أصل للوثيقة باللغة العثمانية وترجمتها بالعربية . أنظر صورة الوثيقة العربية وفيها تاريخ نقله إلى عدن .

٤٣ ــ إرادة ــ داخلية رقم ٧٨٩ م ٨ في ٥ محرم ١٣٠٥هـ / ١٠ أيلول ١٣٠٣ و ١٦ صفر ١٣٠٥هـ .

٤٤ ـ إرادة ـ شورى الدولة العدد ٢٤٢ في ٣ رمضان ١٣٠٥هـ ، في أيار ١٣٠٤ رومي

٤٥ ـ إرادة ـ شورى الدولة العدد ٣١ في ٢٩ / رمضان ١٣٠٥هـ .

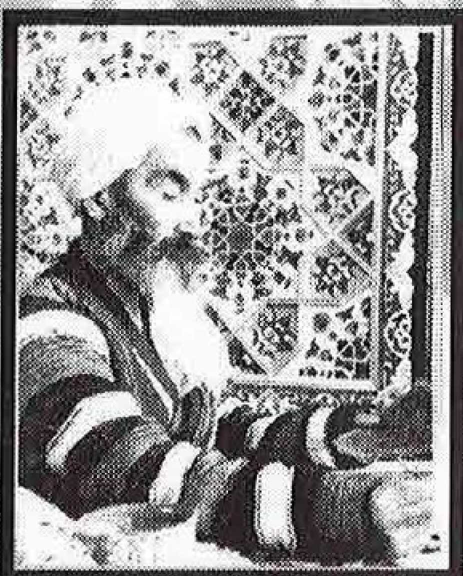
٤٦ ـ إرادة ـ شورى الدولة ٤٩ / ١٠ شعبان ١٣٠٨هـ .

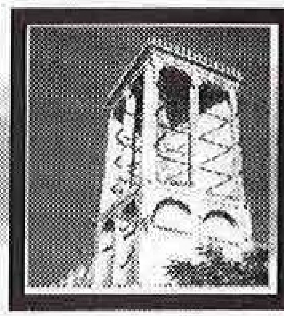
٤٧ ـ من كرنل ( راجي ) بالیوز في الخليج إلى الشيخ عيسى بن علي غرة (٧١) / ١٨٩٧ / وانظر الوثيقة رقم ٢٩ ــ هند ٤ / ص ٢٦٢ . التحفة النبهانية ، ص ١٢٥ ، الطبعة الأولى ١٣٣٢هـ / وص ١٩٦ الطبعة الثانية ١٣٤٢هـ .

# منهج للتواصل بيـ

## تفعيل الحوار العالمي مسئولية جميـ

## مطلوب إيجاد إطار حضاري عالمي يجمع أكـ







# ـــن حضارات العالم

## ـــع الأطراف بالتساوي والتوازي

## ـــر قدر من عناصر التميز لكل الشعوب

بقلم معالي الدكتور :

**علي فهد الزميع**

يعيش العالم الآن فترة انتقال حضاري حافلة بالكثير من قوى التغيير والتفاعلات الثقافية . . وقد جاءت هذه المرحلة في ختام قرن من الصراعات الفكرية والاقتصادية والصدامات العسكرية والاستراتيجية . . كانت دماء وأرواح الكثير من البشر وقودا لها . .

وفي هذه المرحلة تبرز الحاجة إلى الحوار كمطلب ضروري يكتسب أهمية بالغة ، لتمهيد طريق التواصل وإرساء ودعم وتعزيز منهج التقارب والتعاون بين الحضارات المختلفة ، ومساهمة في البحث عن إيجاد الإطار الحضاري الذي يقوم على عناصر القوة المستمدة من خلاصة التجارب الحضارية للبشرية جمعاء .

حضارياً ، والتعاون بين الشعوب على صالحها العام .

• ومن دواعي اللجوء إلى الحوار الحضاري - أنه لا تزال بعض التيارات الفكرية في العالم تفكر بمعايير عصر الصدام ، وترى أن الصدام أمر حتمي . . وأن انتهاء حلقة من هذا الصدام ، لابد وأن تتلوها حلقة أخرى تختلف فيها أطراف الصراع ومضامينه . . ومن هذا ما نشاهده من بعض الآراء التي ترى في الإسلام العدو المرشح للغرب بعد سقوط الشيوعية .

• وأخيراً يجب أن نعترف بأن ميزان القوى في العصر الحالي قد مال لصالح الغرب . . ولهذا فهو يسعى إلى نشر ثقافته ، ونمطه الحضاري على العالم بادعاء أنه السبيل لتحقيق حياة أفضل للبشرية من وجهة نظره . . ولهذا يلاحظ أن هناك تيارات تدعو إلى فرض نمط الحضارة الغربية باستخدام كافة وسائل الهيمنة الثقافية والاقتصادية ، وهو ما ظهر في مناسبات ومحافل دولية مختلفة ( مثل : مؤتمر السكان بالقاهرة ١٩٩٤م ، ومؤتمر المرأة في بكين ١٩٩٥م ) . . ومن شأن هذه الدعوات أن تغذي مظاهر الصراع الحضاري بين البشر ، وتدخله في حلقات جديدة أكثر عنفاً وضراوة . . ومن ناحية أخرى فإن هناك تيارات تدعو إلى التعايش بين الحضارات ، والتواصل الإيجابي بينها لإبراز العناصر التي تعزز تقدم البشرية ، ويجب على جميع القوى المستنيرة في العالم - ومن بينها نحن المسلمين - أن تدعم هذه التيارات التي تدعو إلى احترام مختلف الحضارات .

## أهداف الحوار الحضاري

◆ لعل في الاعتبارات التي تبرز أهمية اللجوء إلى الحوار الحضاري إيحاء بما يجب أن تكون عليه أهداف هذا الحوار . . ويجب أن نعي أن هذه الأهداف يجب أن تلقى قبولاً لدى مختلف الأطراف . . وهذا لا يتنافى مع مفهوم الإسلام للتدافع بين البشر . . بمعنى التنافس الحضاري بين الأمم . . وهو الذي يتيح لجميع الأطراف فرصة تقديم ما يعمل على خدمة البشرية جمعاء . .

ويمكن أن نعطي إشارة موجزة إلى ما يلوح الآن من أهداف للحوار الحضاري العالمي . . والتي تتركز في :

- التعريف بالإسلام وقيمه ومبادئه ومقاصده السامية على النحو السابق الإشارة إليه .
- تجنب الأطروحات التي تدفع الشعوب نحو صدامات جديدة تستخدم فيها شتى أساليب القوة وعدم احترام الإرث الحضاري للبشر .
- الاعتراف بالتعددية الحضارية ، وبأهميتها لتقدم البشرية . . وتكريس احترام الخصوصية الثقافية لمختلف الأمم .
- توجيه ما تأكله الحروب من طاقات بشرية ومادية إلى تحقيق مزيد من التقدم والرفاهية للبشرية جمعاء .
- تيسير التعاون بين أمم العالم وشعوبه والذي سيكون أمراً محتماً نتيجة دخول عصر ثورة المعلومات والاتصالات ، وما سيفرضه من أنماط ومعايير جديدة لحياة البشر وأنشطتهم .
- تحقيق الاستفادة المشتركة من الإنجازات الحضارية المختلفة ، والسعي نحو العمل على إيجاد إطار حضاري عالمي يجمع في تكوينه أكبر كم ممكن من عناصر التميز الحضاري التي تتمتع بها ثقافات الشعوب المختلفة . . إذ أنه من غير الجائز القبول بإهدار أي رصيد حضاري إيجابي ساهم في ازدهار وتقدم البشرية في أي مرحلة من مراحل التاريخ .

## من هم أطراف الحوار الحضاري العالمي ؟

إن تفعيل الحوار الحضاري العالمي مسئولية جميع الأطراف بالتساوي والتوازي . . ولن يكون هذا الحوار هادفاً دون مشاركة الجميع وحرصهم المخلص على إنجاحه وتفهم الأطروحات المتبادلة من خلاله ، ولن تتحقق الغايات النبيلة والآمال الكبيرة من الحوار ، والتي ترمي إلى تعزيز أواصر التفاهم والتقارب والتعاون بين الحضارات إذا انفردت به القوى السياسية والاقتصادية وحدها ، دون بقية القوى الحضارية الأخرى .

وعلى ذلك يمكن تصنيف الأطراف المشاركة في الحوار بأكثر من معيار . . وذلك على النحو التالي :

• **المعيار الثقافي** : وهو المعيار الذي يتعامل مع مختلف الحضارات ، والتي يجب أن يشارك ممثلون لها

جميعاً كأطراف متساوية في الحوار الحضاري .

* **المعيار الإنمائي** : من المعروف أن هناك تفاوتاً كبيراً في المستوى الإنمائي الذي حققته مختلف شعوب العالم . . وهذه الشعوب يتساوى حقها ومسئوليتها في إحداث الحوار الحضاري العالمي وفي إنجاحه . . ووفق هذا المعيار ينبغي أن يشارك في الحوار ممثلون عن الدول الصناعية ، والدول النامية ( وهي إجمالاً الدول التي في سبيلها إلى تحقيق مستويات متقدمة من النمو ) ، والدول الأقل نمواً .

* **المعيار المؤسسي** : من الضروري لإنجاح الحوار الحضاري العالمي أن تساهم فيه جميع الدوائر والمؤسسات التي تنظم انتماءات البشر على مختلف الأصعدة . . ولذلك فإن المؤسسات التي يمكن اعتبارها أطرافاً في هذا الحوار يمكن الإشارة إليها على النحو التالي :

♦ **التنظيمات الدولية** ، وهي هيئة الأمم المتحدة ، والتنظيمات التابعة لها . . وفي مقدمتها هيئة اليونسكو . . التي تتمتع بما يؤهلها بدور مميز في تنظيم الحوار الحضاري والدعوة إليه .

♦ **التجمعات الإقليمية** . . مثل: منظمة المؤتمر الإسلامي ، وجامعة الدول العربية ، ومجلس التعاون لدول الخليج العربية ، ,منظمة الدول الأمريكية ، والاتحاد الأوروبي ، ومنظمة دول جنوب شرق آسيا ، ومنظمة الوحدة الأفريقية ، ومنظمة دول عدم الانحياز . . وغيرها من المنظمات الإقليمية والمؤسسات المتخصصة التابعة لها .

♦ **المنظمات والمؤسسات التطوعية القُطرية والدولية .**

♦ **الجامعات ومراكز البحوث والدراسات .**

♦ **الأحزاب والتجمعات السياسية والفكرية .**

♦ **المؤسسات الاقتصادية** ( ودورها يتميز من خلال المساندة والتمويل اللذين يمكن أن توفرهما لفاعليات الحوار الحضاري العالمي ) .

* **المعيار التخصصي** : وهنا نتطرق إلى الأفراد والشخصيات ذات الإسهام الخاص في عملية الحوار الحضاري العالمي . . وتتسع دائرة هؤلاء الأفراد بحسب تخصصهم لتشمل الفئات المؤثرة . . مثل رجال الدين ، والمفكرين ، والسياسيين ، ورجال

الثقافة والفنون ، ورجال الاقتصاد والمال ، والعلماء والباحثين ، ورجال الإعلام والصحافة ، والقيادات والرموز المجتمعية وقيادات الحركات النسائية . . . إلخ .

## محتوى الحوار ومضامينه

من العسير أن نلم في عجالة بمحتوى الحوار الحضاري العالمي ومضامينه . . وذلك لاتساع هذه القضية ، وتعدد أبعادها ، وتجدد أطروحاتها مع تجدد الحقائق المتغيرة في العالم ، إلا أنه يمكن الإشارة إلى عدد من الملامح الرئيسية لمادة هذا الحوار وأهمها :

**◆ احترام جميع الأطراف لخصوصية الحضارات المختلفة :**

يجب أن يركز الحوار الحضاري على إشاعة قيم احترام الرصيد الحضاري لمختلف الأمم . . إيماناً بأن في التنوع مصدر قوة . . وبالتالي يصبح لزاماً أن نبحث في إيجاد الأساليب التي تمكن من مراعاة الخصوصية الحضارية لكل من الشعوب والأمم من خلال الإطار الحضاري العالمي المشترك الذي نسعى إليه .

**◆ إبراز العناصر المشتركة بين الحضارات السائدة في العالم :**

وهنا يحاول الحوار الحضاري أن يعالج بعض الآثار التي خلفتها الصراعات القديمة . . فطالما عم الجهل بالمفاهيم ، والقيم الحضارية المشتركة بين مختلف الأمم . . وتم التركيز في حالات كثيرة على مواطن الاختلاف والتباين بأسلوب غير موضوعي يدفع إلى تغذية عوامل الصدام والصراع والهيمنة والسيطرة والاستعلاء .

**◆ التكامل بين مكامن القوة في الأنماط الحضارية المختلفة :**

وهذه نقطة البداية ، ومحور عملية الحوار ذاتها . . لأن نجاح الجهود الساعية إلى إيجاد إطار حضاري عالمي مشترك لن يتم من خلال اجتياح حضارة لغيرها من الحضارات - كما كان يحدث في مراحل التاريخ الأولى . . ولكن من خلال دعم وتعزيز التوجهات المعاصرة التي تؤمن بالتعايش والتفاعل ، والاحترام المتبادل بين الحضارات ، لذا فإن الحوار الحضاري يجب أن يركز على كيفية تحقيق التكامل بين مكامن القوة في الأنماط الحضارية السائدة في العالم الآن .

◆ البرامج التنفيذية للحوار الحضاري العالمي :

النتيجة والثمرة التي نسعى للحصول عليها من خلال الحوار الحضاري العالمي يجب أن تتمثل في شكل برامج ومشروعات تنقل هذا الحوار ومضامينه إلى واقع البشر وحياتهم . . ودون ذلك يكون الحوار – في الحقيقة – غير هادف ، ومجرد شيء من الترف الفكري . . كما يجب في هذا السياق أن يتم رسم أدوار للعمل الإيجابي لمختلف الأطراف ، والمؤسسات في عمليات تنفيذ هذه البرامج والمشروعات وفي دعمها .

من هذا كله نجد أن المنهج الإسلامي يؤصل الدعوة إلى الحوار الحضاري واعتماد مبدأ التواصل الإنساني والتعايش ، والتفاعل بين الحضارات المختلفة من أجل استمرار عملية النهوض الحضاري للبشر جميعاً بالاعتماد على العطاء الإيجابي للثقافات المختلفة .

◆ متطلبات إسلامية للحوار :

تساعد مجموعة من العوامل والمتطلبات على توفير الشروط اللازمة لإنجاح حوار الحضارات كما تؤثر إيجاباً على تقدمه في المسار الصحيح وبالفاعلية المرجوة . .

وفيما يلي أبرز تلك المتطلبات . . .

## تأهيل الخطاب الفكري لمواجهة تحديات الحوار :

إذا كانت هناك مقتضيات ، ودواعٍ عديدة تدفع إلى ضرورة تجديد مفردات خطابنا الفكري ولا مجال للتعرض لها في هذا السياق ، إلا أن الحوار مع الآخر يأتي ليكون سبباً إضافياً ضمن دواعي هذا التجديد . . . وذلك لأن هذا الحوار سوف يشهد تركيزاً مرجعياً بالغاً على الخطاب الديني كخطاب ثقافي وحضاري متكامل ، مطالب باستدعاء ، وتقديم القيم والمفاهيم والرؤى والأطروحات الإسلامية ، لتحرير موضوع الحوار ومناقشاته ومداولاته وسجالاته المتوقعة ، وهو ما يقتضي ويتطلب ضرورة العمل على تأهيل خطابنا الفكري لمواجهة تحديات هذا الحوار .

وإذا جاز لنا أن نشير بإيجاز لبعض العناصر التي ينبغي أن تضبط وتوجه مسار عملي التأهيل ، فإننا نرى التركيز فيما يتصل بالحوار الحضاري على التوجهات التالية :

## الانطلاق من الخصوصية الحضارية

تصدر نقطة الانطلاق في الحوار مع الآخر من الخصوصية الحضارية التي تتميز بها أمتنا ، وهي خصوصية تستند إلى واقع لا سبيل إلى إنكاره . . واقع التعدد الحضاري في الجماعة الإنسانية المعاصرة ، التي تعرف وجود عدة بنًى وتشكيلات حضارية مختلفة ومتنوعةً ، ولكل واحد منها خصوصياته وسماته ومكوناته الذاتية . .

وهذا الاختلاف في الخصائص الحضارية من أمة إلى أمة يقتضي بالضرورة تعدد طرق ومشاريع النهوض والتقدم لأن كل طريق منها يجسد المعطيات الخاصة بالأمة ، ومكوناتها القيمية ، والتراثية ، والاجتماعية ، والثقافية ، كما يلبي طموحاتها وتطلعاتها نحو النهوض الحضاري ، ومن ثم فإننا نرى خطأ المقولة التي تقول بأن للتطور الإنساني طريقاً واحداً يجب الأخذ به ، وأن الحضارة المعاصرة حضارة كونية يتعين تعميم وفرض معاييرها ومبادئها على الجميع . . .

إن علينا – على طاولة الحوار – أن نكرس مبدأ الحق في الاختلاف الحضاري ، وفي أن يكون لنا مشروعنا النهضوي الحضاري المستقل في مضامينه ومناهجه ووسائله . وذلك في مواجهة من ينكرون هذا الحق . ويشككون في قدرة وإمكانيات هذا الاختيار المستقل . . . على أن ذلك يفرض علينا في المقابل تكثيف الجهود والمحاولات الإبداعية التي تعمل على إبراز الخصوصية الإسلامية ، واستجلاء عناصرها المميزة ، والكشف عما يمكن أن تضيفه للمسيرة الإنسانية المعاصرة من قيم ومبادئ ، ومفاهيم تترجم التواصل ، والتفاعل بين الحضارات الذي تدعو إليه .

## الانفتاح على الحضارات الأخرى

إن الاعتزاز بالهوية ، والخصوصية الحضارية ، لا يعني إهمال الحضارات الأخرى أو الانغلاق في مواجهتها وادعاء التميز عليها ، ورفض نتاجها الإنساني ، فمثل هذا الموقف الإنعزالي السلبي لا ينسجم مع متطلبات الحوار ومقتضياته ، وهو يصدر عن فهم غير موضوعي للتاريخ الحضاري الذي هو في مجمله ثمرة الجهد الهائل ، والمتراكم للمسيرة الإنسانية على مدار التاريخ .

لقد كان جوهر العلاقة بين الحضارات على ما شابها من مظاهر الصراع والحروب هو التفاعل والأخذ والعطاء . . وعلى هذا النحو كانت حضارتنا الإسلامية حضارة عالمية وإنسانية ، وكانت الثقافة العربية الإسلامية ثقافة متفتحة قابلة لاستيعاب كل أنواع الثقافات التي احتكت بها .

إننا ندرك على ساحة الحوار أنه لا تعارض إطلاقاً لدينا بين الالتزام بالثوابت الدينية والمحافظة على الهوية ، وبين الأخذ والاقتباس من الحضارات الأخرى ، والإفادة من التراث والنتاج المشترك للحضارات الإنسانية على مدى العصور المختلفة ، ومنها النتاج الحضاري المعاصر ، بما يساعدنا على حل مشاكلنا ، ويخدم قضية تقدمنا وتطورنا . . ذلك أن الأخذ والتفاعل والتواصل ، يتم بميزان من قيمنا الأصلية وبمراعاة خصوصيات هويتنا . . وهو تفاعل وتواصل تفرضه وبدرجة غير مسبوقة الحقائق الجديدة في عالم اليوم ، الذي أضحى أكثر اتصالاً وترابطاً ، وتشابكاً في مصالحه وقضاياه . . .

## إبراز الطابع الإنساني للفكر الإسلامي

إن خطابنا الإسلامي المعاصر في حاجة إلى التركيز على إبراز الخاصية الإنسانية في الإسلام على وجه ملائم بعد أن ظل طرحنا لهذا البعد الإنساني الهام ضعيفاً ومحدوداً ، ومما يضاعف من هذه الحاجة ، ما نلاحظه على الصعيد الإسلامي من ضآلة الوعي بالقيم والمنطلقات الإنسانية المستمدة من شريعتنا ، والتي يتعين أن تشكل نسيجاً للعلاقات والروابط الداخلية والخارجية للمسلمين لصالح تنامي بعض التيارات والاتجاهات والنزعات ، والسلوكيات الخاطئة التي لا تعطي لهذا البعد اعتباره الواجب ، وتقدم عليه بعض الممارسات والرؤى الخاطئة ، فضلاً عما نلاحظه من تنامي الهجمات الإعلامية المعادية والمغرضة في بعض الدول والتي تعمل على تشويه صورة الإسلام ، وتصويره للرأي العام الدولي على أنه دعوة للعنف والتطرف ، وردة ، ومعادٍ للتطور، ولقيم الحريات وحقوق الإنسان.

ومن هنا تبدو الأهمية البالغة لإعادة الكشف عن الحقائق الأصلية الخاصة

بمنظومة القيم الإنسـانية المتكاملـة الـتي تميز الإسلام ، والتركيز على إبراز تلـك القيم الإنسانية الأساسـية والجوهريـة في خطابنا الحواري وتبدو تلك الأهمية على أكثر من مستوى منها :

- ترسـيخ الوعـي بأبعـاد الطـابع الإنساني للثقافة الإسلامية في العقل والوجدان الإسلامي المعـاصر ، ومـا يرتبـه ذلـك مـن آثـار إيجابيـة ثقافياً ، وسلوكياً .
- إظهـار حقيقـة الوجـه الحضـاري والإنسـاني للإسـلام علـى الصعيـد العالمي .
- دعم الاتجاه الذي يرى الانفتاح على نتاج الفكر ، والحضارة المعـاصرة ، والإفـادة مـن التعـايش الحضـاري واتخاذ الحـوار كأسـاس للعلاقـات بين الحضارات المختلفة .
- التأكيد على قدرة الإسلام على وضع مبادئ وقيم أخلاقيـة روحيـة ذات أهميـة عاليـة توجـه وترشـد تطـور المجتمع الإنساني المعاصر ، خاصة مع تزايد الإحسـاس العـالمي بأزمـة الإنسـانية في ظـل التطـورات الاجتماعيـة والاقتصاديـة والثقافيـة المتسارعة ، حيث يؤكد هذا الطابع الإنساني قدرة الإسلام على أن يوفر لحركة الحيـاة كلهـا قيمـاً حافظـة للعلاقات الإنسانية قادرة علـى زرع بذور الاستقرار والأمـن والسكينة ، في عالم يشوبه القلق وفقدان الشعور بالأمن وضحالة وتصدع المشاعر ، والعلاقات الإنسانية .

## التأكيد على المضمون الحضاري للخطاب

ينبغي أن يكون خطابنا في مواجهة الآخرين خطاباً حضاريـاً متكـاملاً ، وفي مقدمة الخصائص التي تكسب الخطـاب طابعاً حضارياً اتسامه بالواقعيـة . . أي ارتباط الخطـاب بحركـة الواقـع الراهـن إسلامياً ودولياً ، وبإشكالياته وقضاياه وتحدياته . . وعلى ذلـك يبـدو ضرورياً أن يمتلك الخطـاب القـدرة علـى قـراءة وفهـم هـذا الواقـع والتعـرف علـى عنـاصره ، ومكوناتـه ، وقـواه المختلفـة وتطوراتـه ، ومتغيراتـه ، وتحولاتـه المتسـارعة بأشـكالها وصورهـا ، وميادينهـا المختلفـة ، والـتي تفـرض أوضاعاً محلية وإقليمية ودوليـة جديـدة تتطلـب الحاجـة إلى إدراكهـا والتعـامل معها ، وأن يعمل على صياغة تصورات ومفـاهيم وحلـول ملائمـة تسـتجيب

لمتطلبات واحتياجات النهوض بهذا الواقع ، انطلاقاً من المبادئ والقيم والمقاصد الإسلامية .

ولأن الكثير من القضايا والإشكاليات المطروحة على ساحة الحوار سوف تتعلق أصلاً بأزمات التخلف والنمو ، والتراجع والتقدم الحضاري ، وهي قضايا اكتسبت في المرحلة الراهنة أهمية بالغة على صعيد العلاقات الدولية ، فإن المحتوى والمضمون التنموي لخطابنا الفكري يبرز ليكون محوراً جوهرياً ورئيسياً من محاور الطرح الحضاري . . غير أن المهمة الكبيرة التي تنتظرنا في هذا الصدد ، هي تأكيد حيوية خطابنا وقدرته على الإبداع الحضاري ، وذلك بالكشف عن القيم والمفاهيم ، والتصورات التنموية في المنظور الإسلامي ، والتعريف بما يمكن أن يقدمه الفكر الإسلامي من معالجات ، وصيغ متميزة في المجالات التنموية المختلفة .

ويبرز أخيراً المستقبل - مستقبل الأمة ومستقبل البشرية - بصوره وآفاقه ومتطلباته ليكون واحداً من أبرز القضايا المطروحة على الحوار وذلك بالنظر إلى الأولوية التي يحتلها على سلم اهتمامات الأطراف الأخرى . . وهي أولوية ينبغي أن نلتفت إلى خطورتها البالغة . . وعلينا هنا أن نقبل على هذا التدافع الحضاري ، وألا يتخلف خطابنا نحو التوجه إلى المستقبل ، واستشرافه ورسم وصياغة مساراته ، وأن ينشغل بتحدياته المتوقعة حتى تأتي تطوراته ومتغيراته - وهي قادمة لا مفر منها - واعية ومقصودة .

## ارتباط حوار الداخل الإسلامي بالحوار مع الآخر

يبدو أمراً هاماً وضرورياً لنجاح حوارنا مع الآخر أن يسبق هذا الأخير ويواكبه ، ويرتبط به حوار إسلامي - إسلامي يتصل بمجمل قضايا وإشكاليات الشأن الإسلامي ، وتكون قضية الحوار الحضاري بالضرورة في مقدمة هذه القضايا . . إن الأمر يتصل أساساً بأهمية العمل في البيئة الإسلامية على توفير ثقافة حوارية بدرجة كافية ، وأرضية صحيحة وسليمة ومتينة تستند اليها ، وتنطلق منها وتنمو فيها علاقاتنا الحوارية ، وتولد وتتأصل فيها التقاليد ، والأعراف الحوارية كمنهج وأداة ووسيلة لازدهار وإثراء حياتنا الفكرية والثقافية .

والحوار هو الأداة الحضارية لتبادل الآراء ومناقشة الأفكار والتعرف على المواقف المتباينة ، والبحث عن فهم أو أرضية مشتركة . . ولقد أصبح الحوار في عالم اليوم لغة ضرورية لدوام التعايش وتحقيق المصالح بين الشعوب ، والأمم وإدارة الاختلاف والتنوع بين التجمعات والقوى والتيارات المختلفة ، وبينما الحال كذلك من حولنا فإننا نأسف لتراجع هذا المنهج الحضاري من على قائمة العلاقات بين التيارات والمدارس الفكرية على الساحة الإسلامية لحساب شيوع منهج خاطئ يشكل واحداً من أبرز الإشكاليات الإسلامية الراهنة .

إنه منهج المواجهة والصراع والخصومة ، والعداء والتجريح المستمر ، وتبادل الاتهامات ، منهج الضيق بالمخالفين ، والمسارعة إلى اتهامهم في أفكارهم ونياتهم ، وأخذهم بالشبهة ، وسوء الظن ، ، أو النيل من دينهم وتقواهم . . ولقد كان من آثار شيوعه انقطاع سبل الاتصال والحوار . . وفقدان القدرة - في حالات كثيرة - على الحوار والمناقشة ، والمناظرة والشورى ، والتقويم والنقد الذاتي ، وبروز ضروب من التخويف والإرهاب والتعصب الفكري ، دفعت بعض العلماء والمفكرين إلى العزوف عن الجهر بآرائهم والمشاركة في إثراء وإنماء الفكر ودفع مسيرته نحو تجاوز حالة الأزمة التي يمر بها .

علينا إذن أن نعمل على الأخذ بمبدأ الحوار ، وأن نجعله مبدأ المبادئ الذي يحكم العلاقات بين الأطراف ، والمدارس ، والتيارات الإسلامية وأن نحرص على تأكيده وإشاعته في العقل المسلم ، وأن نضع له أكثر الصياغات سعة ومرونة ، والأسس والضوابط التي تضمن تحوله من ممارسة عشوائية إلى ممارسة منظمة وواعية ، لأنه بالحوار والثبات عليه نفتح الطريق رحباً فسيحاً لبناء علاقات صحية قوامها التآلف ، والتفاهم والمشاركة البناءة من أجل صياغة المفاهيم والتصورات الملائمة التي تساعدنا على حل الكثير من مشاكلنا ، ومواجهة الكم المتراكم من قضايانا .

## آلية إسلامية للحوار

لن تتحقق لنا القدرة على التعامل الصحيح ، والسليم مع الحوار بندية وكفاءة مرجوة ، إلا بامتلاك الأداة والآلية التي يناط بها إدارة كل ما يتعلق بالحوار الحضاري في مراحله المختلفة ، والإحاطة بكل ما يتصل به على نحو علمي منظم ومؤسسي .

إن مثل هذه الآلية تصبح ضرورية لدواع عديدة ، ومنها مواجهة القنوات المتاحة للحوار اليوم وهي في معظمها لدى الأطراف الأخرى ( *مثل لجنة الحوار بالفاتيكان ، ومجلس الكنائس العالمي ، ومجلس كنائس الشرق الأوسط* ) فضلا عن أن التخطيط للحوار ووضع البرامج الخاصة به والإعداد له ، وتحديد أهدافه وأولوياته وأسلوبه وكيفية التعامل معه ، وتعبئة أفضل الطاقات الفكرية المتاحة لخدمته ، وإنجاز البحوث والدراسات المتصلة به . . وطرح وتحليل الرؤى المختلفة . . والتوصل إلى صياغات مشتركة . . وتوجيه وتقويم ومراجعة نتائجه ، وتحديد مساراته المستقبلية ، والتنسيق بين البلدان الإسلامية بخصوصه . . وغير ذلك من الأمور التي تتصل به هي في حاجة إلى عمل مؤسسي يضطلع بمهامها ، ويضع كل الجهود ضمن منظومة موحدة توفر المقومات والإمكانات والشروط اللازمة لإنجازه على وجه ملائم وتضمن له الاستمرارية والفاعلية معاً .

وليكن هذا البناء المؤسسي المقترح ، والخاص بشئون الحوار في شكل مكتب دائم أو سكرتارية دائمة لدى منظمة المؤتمر الإسلامي .

## المبادرة إلى الحوار والتصدي بصراحة لإشكالياته

إذا كانت هناك الكثير من الأسباب الحقيقية التي دفعت إلى عدم اهتمامنا بالحوار مع الآخرين ، وإلى تزايد الشكوك والمخاوف لدى البعض من حقيقة الدعوة إلى هذا الحوار وجدواه ، وهي أسباب تقف وراءها الموروثات التاريخية للصراع التاريخي الطويل بين الإسلام والمسيحية ، ومرحلة الاستعمار الغربي للبلدان الإسلامية وأخيرا محاولات الهيمنة الحضارية الراهنة ، والتي اكتسبت صوراً عديدة . . إلا أنه في المقابل ، ولأسباب أشرنا إلى بعضها علينا أن نعي بأن حاجتنا للحوار لا تقل عن حاجة الآخرين له إن لم تزد .

ولهذا فواجبنا أن نبادر به وأن نكون أكثر حرصاً عليه . . وأن نمتلك الجرأة على الإقدام عليه والإصرار على مواصلة مسيرته مهما كانت العقبات ، ويغدو الاعتراف بإشكاليات ومصاعب الحوار وتعقيداته في هذا السياق أمراً ضرورياً لنجاحه . . ولن نتمكن من مواجهة وتقليص تلك العقبات والإشكاليات ، وتجاوز أزمة الثقة ، وحالة سوء الفهم المتبادل – إلا

بالمكاشفة الشجاعة ، والوضوح والصراحة التي تستند إلى اعتبارات موضوعية تعبر عن نفسها بلغة خطاب عقلاني بعيدا عن الطابع الدعائي ، والانفعال العاطفي .

## لجنة تحضيرية للإعداد للحوار

وحتى يمكن أن نتوفر على أفضل الشروط والظروف الموضوعية المواتية لإجراء الحوار فإننا نقترح تشكيل لجنة تحضيرية للإعداد للحوار من نخبة متميزة من علماء ومفكري العالم العربي والإسلامي – تضع أمامها مجموعة من الأسئلة الجوهرية التي تتصل بالحوار ، وتعمل على الإجابة عليها لتكون تمهيداً ومقدمة ضرورية تهيئ وتوجه للحوار المقترح . . إن اللجنة التحضيرية مطالبة بالإجابة على تساؤلات من مثل . . تحديد المقصود بالحوار ومبرراته ، وأهدافه وغاياتها وأطرافه . . والمشاركين فيه . . وأصوله ووسائله ، ومستوياته التنظيرية ، أي إطاره الفلسفي . . والقضايا التي يجب أن تحظى بالاهتمام قبل غيرها . . والمفاهيم الأساسية التي تشكل تصورنا الثقافي والحضاري . . . إلى غير ذلك من العناصر والقواعد الرئيسية التي تتصل به . . .

. . . . . .

إننا نأمل في صياغة علاقات حضارية متكافئة بين الإسلام والحضارات الأخرى ، تكون أكثر عدلا وإنصافاً وتوازناً ، وتقوم على إرساء دعائم الاحترام المتبادل ، والتفاهم والتعاون الإيجابي ، والعمل المشترك لخير الإنسانية كلها ، وتلك مسئولية على درجة بالغة من الأهمية . علينا أن نضعها في مقدمة همومنا وانشغالاتنا .

معالي الدكتور

**علي فهد الزميع**

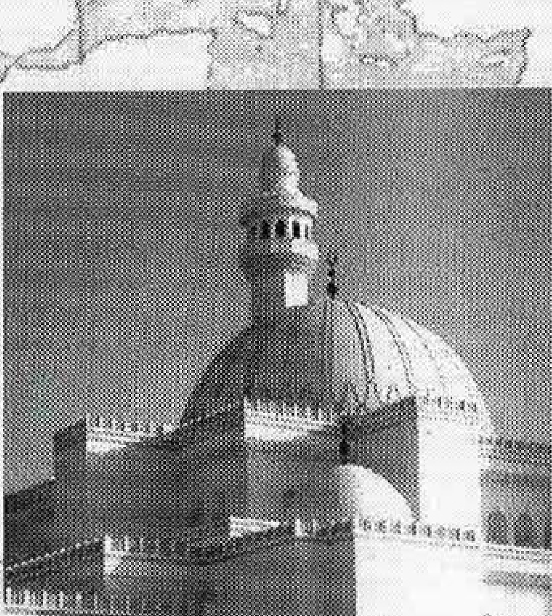
( الكويت )

# نظرة على الحوار العربي

## مازالت آثار غزو الشمال للجنوب تحز فى النفو

### القوة الوحيدة المتوفرة للعرب حالياً هي في نبذ الخلافات وجمع

### أكثر كتب التاريخ التي تدرس في أوروبا تحتاج إلى مراجعة تخدم المو





# الأوروبي

# وتثير القلق

## الكلمة وتوحيد الصف

## وعية وتتوخى الحقيقة

بقلم الدكتور :

**ناصر الدين الأسد**

حوار الثقافات ، أو حوار الحضارات ، أو حوار الأديان ، أو الحوار الإسلامي المسيحي أو حوار الشمال والجنوب ، أو حوار الإسلام والغرب ، أو الحوار العربي الأوروبي ، كلها عناوين لموضوع واحد ، أو لموضوعات متقاربة متداخلة ، لا تكاد تتمايز إلا بشيء من التعميم أو التخصيص . وهي موضوعات كثر تناولها في عدد من الكتب والمقالات والمحاضرات والندوات والمؤتمرات . وقد سبق لكاتب هذه الدراسة تناولها ، أو تناول جوانب منها ، في مناسبات واجتماعات مختلفة ، وعرض حينئذ جوهر الأفكار الواردة هنا في صور متعددة . ومع ذلك فالموضوع جدير بإعادة القول فيه ، والصبر عليه ومداورته ، لتوسيع نطاق المتفهمين له والمقتنعين به من الجانبين ، عسى أن ينتقل الأمر من مرحلة الفهم والاقتناع إلى مرحلة التعاون على العمل المشترك بين جميع المؤمنين بالسلام والعدل واقتلاع بذور الأحقاد بين الشعوب.

ويتبــادل العالَمــان المخــاوف والاتهامات . فلا تزال آثار غزو الشمال للجنوب تحز في النفوس وتثـير القلق ، فمن الحروب الصليبيـة ، إلى الاستعمار الأوروبي ، إلى الاستعمار الجديد ، إلى مناصرة القـوى الغاشمـة والتدخـل في الشئون الداخلية لأكـثر دول هـذا العالم الإسلامي ، والطمع في ثرواتهـا . . إلى غير ذلك من آثار هذه العلاقة المضطربـة بين العالَمين .

وللشمال ، أو الاتحـاد الأوروبـي ، مخاوفه أيضاً ، وهي مخاوف لها دويّها الإعلامي ، ولها علماء ، ومراكز بحوث وساسة يروجونهـا ، ويقـترحون مـن وسـائل مقاومتها مـا يُصبح خططـاً استراتيجية تتبناها الحكومات . ويتمثل أهـم هـذه المخاوف في أمريـن ، همـا : هجرة عدد كبـير مـن أهـل الجنوب إلى دول الاتحـاد الأوروبـي ، وتهديـد مـا يسمونه خطأً بالأصولية الإسلامية لتلك الدول .

ومع كل هذه المخاوف والاتهامـات المتبادلة فـإن محـاولات إقامـة علاقـات ثقافية بـين الجـانبين مستمرة في صـورة أنـواع مختلفـة مـن مؤتمـرات الحـوار وندواته ؛ فمن حوار عربي أوروبي ، إلى حـوار الشـمال والجنـوب ، إلى حـوار إسلامي مسيحي ، ومع أن هـذا الحـوار بمختلف أنواعه بدأ – في صورته المنظمة الحديثة – منـذ مـا يزيـد علـى عشرين عـاماً ، فإن كثيرين يشككون في جدواه ، ويرون أنه لم يحقق شيئاً ذا قيمة .

* * *

في خضم هذا الجو من عدم الثقـة ، ومن عقابيل الماضي والحـاضر ، لم يعد يكفي أن يقف المرء موقف المشـاهد غير المبالي ، ولا موقف التسامح السلبي ، أو أن تكتفي الشعوب بأن تكون متجاورة ، بينهـا علاقـات سلام ، بـل لابـد مـن موقـف إيجـابى مـن التفـاهم وإقامـة علاقـات متداخلـة تقـوم علـى تبـادل مصـالح مشـتركة . وكذلـك لابـد مـن محاولة تفهـم الآخـر ، وتقبلـه كمـا هـو دون أن يعني ذلك تطـابق جميـع الآراء والاتجاهـات أو الموافقـة عليهـا . فالتواصل – شأنه شأن التعددية – إنمـا يعني احتفـاظ كـل فريـق بخصائصـه وصفاتـه ، وقبـول الآخـر علـى حالـه ، وإلا انتفى معنى التواصل والتعددية .

ولابـد في هـذا المجـال مـن التفرقـة بـين الأفكـار والمواقـف وبـين التعـاون وتبادل العلاقات الثقافية . وكذلك لابـد

في المجال الديني من التفرقة بين العقيدة والمعاملة . فإن المرء - أو الشعب - يستطيع أن يحتفظ بآرائه ، وبمواقفه القومية والوطنية ، وبعقيدته الدينية ، وفي الوقت نفسه يقيم مع من يخالفه العلاقات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية ﴿ **ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتي هي أحسن ، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين** ﴾ (٣) ﴿ **ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم . . .** ﴾ (٤) ﴿ **لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين ، إنما ينهاكم ا لله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون** ﴾(٥) .

هذا هو الموقف السليم من التعامل مع الآخر على ألا يكون من أحدهما اعتداء أو ظلم ، كاحتلال أرض من يراد إقامة العلاقات معه ، وعلى ألا يكون من الفريق الثاني تفريط في عقيدته ، ولا تنازل عن حقه إلا بالقدر الذي يأخذ مقابله حقاً يعادله أو يفوقه ، ليتحقق معنى التواصل والتبادل والتعاون والعلاقات المشتركة .

* * *

وفي خضم هذا الجو المضطرب ينشأ السؤال المهم ، وهو : كيف نستطيع إقامة علاقات ثقافية بين أوروبا والبلاد الإسلامية ، وما مستقبل هذه العلاقات؟

لابد أولاً من البدء بالنظر فيما وراء الخلافات القائمة ، سواء كانت ظاهرة أم مستترة ، لتلمس أسبابها ثم لتوضيح وجوه الشبه والتقارب التي يبنى عليها مستقبل العلاقات الثقافية . وربما كان من أوضح المواقف في هذا المجال وأصدقها الموقف الذي اتخذته الفاتيكان في عام ١٩٦٩م حين أصدرت باللغة الإنجليزية كتاباً عنوانه " دليل الحوار بين المسلمين والمسيحيين " (٦) . وهو مجموعة مبادئ وجهتها " لجنة شئون غير المسيحيين " بالفاتيكان إلى المسيحيين أنفسهم . وقد ذكر الكاردينال بول ماريلا ، رئيس تلك اللجنة حينئذ، في مقدمته للكتاب ما يوضح الهدف منه بقوله (٧) : " إننا - حين نخص المسيحيين بخطابنا - فإنما نرغب في أن تحفز قراءة هذه الأوراق إلى بدء حوار مع هذه اللجنة ليصل كل منا - بالتعاون

معاً – إلى تهذيب شعورنا بالاحترام للعالم الإسلامي . وبهذه الطريقة نستطيع أن نعد أنفسنا للدخول في حوار حقيقي مع المسلمين ، حين نخلص للحقيقة ونتجرد من الأنانية في صداقتنا " .

ومن أهم ما جاء في هذا الكتاب – وكله مهم – ما ورد في الفصل الثاني بعنوان " يجب علينا أن نعمل على معرفة قيم الإسلام ومثله " وفيه عرض موجز ولكنه صحيح دقيق لبعض مبادئ الإسلام . وكذلك ما جاء في الفصل الرابع بعنوان " كيف نعد للحوار " . ومن عناصر هذا الفصل : " علينا – نحن المسيحيين – أن نعترف بالمظالم التي ارتكبت في الماضي .

ونحن إنما أردنا بإيراد هذه الاقتراحات أن نتخذ من ذلك الكتاب مدخلاً للإجابة عن موضوع هذه الدراسة . ويتضح من محتويات الكتاب أن الفهم الصحيح للفريق الآخر : لتاريخه وحاضره ولتراثه وثقافته ، هو أساس التفاهم ، وأنه لا تفاهم بغير فهم . ولا يكون الفهم صحيحاً إلا إذا تحلى بروح العدل والإنصاف والموضوعية ، لأن كثيراً من محاولات الفهم هي محاولات تؤدي إلى فهم سقيم قائم على الهوى والغرض ، ثم يُبث ويُنفث كما تنفث السموم فتسري في عقول الكثيرين ونفوسهم فتسممها . وتقف حواجز بين الشعوب تحول دون تفاهمها وتعاونها . ثم إن الفهم الصحيح لا يكفي وحده حين يكون كامناً أو ساكناً ، ولابد من الجهر به ، وإشاعته وإعلانه ليصبح قادراً على مد جسور الثقة وقنوات التقارب بين هذه الشعوب ، كما فعلت الفاتيكان في الكتاب الذي أصدرته علناً فدل على الصدق والشجاعة .

وعلى قيمة كل ما تقدم فإنه وحده لا يحقق الغرض ، إذ يظل محصوراً في نطاق ضيق مهما يبلغ انتشاره ، ولا يتاح له التأصيل والتأسيس إلا إذا توافرت له عوامل أخرى ، من أهمها : ما يمكن أن يسمى بتوازن المصالح . فكما أن لدول أوروبا مصالح في البلاد الإسلامية تحرص على تحقيقها ، فإن لدول هذه البلاد الإسلامية مصالح كثيراً ما تتجاهل وتُهدَر ، فينشأ من ذلك شعور بالظلم ، وتسود المخاوف من إقامة أي علاقات لأنها ستكون علاقات غير متوازنة بين قوي وضعيف .فمعرفة هذه المصالح والاعتراف بها وإقامة تبادل

متكافئ بينها عامل مهم من عوامل بناء الثقة . وفي مقدمة هذه المصالح مصلحة الأمة في تحقيق ذاتها . وفي حرية تصرفها في ثرواتها ، وفي الاعتراف بلغتها وثقافتها وعقيدتها ، بعيداً عن محاولات تذويب تلك الذات وطمس معالمها ، وبعيداً عن فرض ثقافة الآخر وطغيان لغته ومصطلحا ته ومفاهيمه .

ثم إنه لا يعقل أن تقوم علاقات طبيعية بين شعوب يُنَشّأ أطفالها في مدارسهم على كتب تزخر بالطعن على الآخرين ، وتتهمهم بأسوأ الاتهامات ، وتنزل بهم من مصاف البشر إلى منزلة الوحوش ، وتزري بهم وبعقيدتهم وبحياتهم الاجتماعية والثقافية ، وتحط من شأن مكانتهم في تاريخ الحضارة الإنسانية ، وما يلقنه التلاميذ في مدارسهم من الكتب وشرح معلميهم يرسخ في أذهانهم ونفوسهم ويصاحبهم في مراحل حياتهم [٨] . فلا بد إذن من تنقية هذه الكتب الدراسية مما فيها من معلومات أملاها روح التعصب والاستعلاء العرقي والنظرة الاستعمارية ، فجاءت بعيدة عن الحقيقة ,النظرة الموضوعية في معرض الحديث عن الشعوب الأخرى .

والحديث عن الكتب المدرسية يقود إلى الحديث عن كتب التاريخ عامة للصغار والكبار ، لجمهرة القراء وللمتخصصين . فهي كتب في أكثرها تحتاج إلى مراجعة وإعادة كتابة بحيث تلتزم الموضوعية وتتوخى الحقيقة ، وتجيء بعيدة عن الإثارة وزرع الأحقاد ، دون جَوْرٍ على وقائع التاريخ ولا حذف شيء من حقائقه . فتلك الوقائع والحقائق أصبحت ملكاً للماضي الذي لا سبيل إلى تغييره . وحذفها عمل من أعمال التزوير والتزييف ، لا يقل نكراً عن إقحام وقائع لم تقع ، وإضافة أحداث لم تحدث . وإنما المقصود بالدعوة إلى الابتعاد عن الإثارة وتجنب زرع الأحقاد هو أسلوب العرض والتناول وطريقة التعامل مع الوقائع والحقائق التاريخية . هذا إذا كانت آثار ذلك الماضي بوقائعه قد زالت ، ولم يعد لها أثر في حياة أبناء الحاضر .

فالحروب الصليبية مثلاً ، قد انقضت وزالت آثارها ، وأصبحت لا تعدو أن تكون ذكرى تاريخية ، تُدرَس وتُمَحَّص ، ويجتهد الباحثون من المؤرخين في بيان أسبابها وشرح مراحلها ، واستخلاص العبر منها ، فهي حقيقة حدثت ، ومن غير المقبول

ولا المعقول أن يُغفَل ذكرها ، وأن تحذف من سجل التاريخ . ولكن البحث فيها لا يجوز أن يكون عاملاً من عوامل إحياء الصراع وتأجيج الأحقاد . وهذا كله يختلف كل الاختلاف عن التأريخ لعدوان لا يزال قائما وظلم لا يزال واقعاً . فإن من غير العدل أن ترتفع ، في هذه الحالة ، دعوات إلى نسيان الماضي ، وتصفية النفوس ، وبدء مراحل جديدة . فذلك الماضي – في الحقيقة – لم يصبح ماضياً ، فهو مازال مستمراً في صورة هذا العدوان الواقع في الظاهر، والذي يزداد استفحالاً وتفاقماً . ومثل هذه الدعوات إنما هي دعوات إلى تثبيت الواقع الذي فرضته القوة ، وإلى اعتراف بالظلم وقبول به ، وليست دعوات إلى تصحيح الخطأ وإحقاق الحق .

ولا يقل تأثيراً في نفوس الناس تلك " الأفلام السينمائية " ، والبرامج التلفازية والإذاعية ، والمقالات الصحفية، التي تشوه صورة الشعوب وحياتها الاجتماعية والثقافية ، وتسخر من عقائدها ، فتقف حائلاً دون التفاهم والتقارب ، بما تثير من عوامل النزاع ، وعوامل الصراع . والأمثلة على كل ذلك أكثر من أن تسرَد في هذا النطاق الضيق . وحسبنا أن نستشهد هنا بمثالين : أولهما تلك المقالة التي نشرها[9] جاك شاهين ( مستشار شبكة سي. بي. إس التليفزيونية لشئون الشرق الأوسط ومؤلف كتاب " العربي كما يظهرها التليفزيون " ) وهي تتضمن عرضا موجزاً للأفلام السينمائية والمسلسلات التليفزيونية التي أنتجتها هوليوود من سنة ١٩٦٠ إلى ١٩٩٦م وأحدثها فيلم " قرار تنفيذي ". وهي كلها تظهر العرب والمسلمين في صورة كاريكاتورية مشوهة غالباً ما تكون صورة الإرهابيين . وبالرغم من احتجاجات الهيئات العربية والإسلامية الأمريكية ، واعتذار الشركات المنتجة اعتذارات شكلية ، فإن شيئاً جدياً لم يحدث ، ولم تقدم تلك الشركات أي برنامج يبرز صورة إيجابية عن العرب والمسلمين يمَكن للمشاهد الأمريكي التعاطف معها . ثم علق جاك شاهين على ذلك بقوله : " . . . إن صانعي الأفلام بإثارتهم مشاعر المشاهدين يستثيرون الأحقاد ، ومتى اشتعلت نار الحقد فهي لا تبقي على شيء . . . " ويقول أيضاً : " ويوحي منتجو الفيلم ( فيلم قرار تنفيذي ) من بدايته إلى نهايته أن العنف جزء لا يتجزأ من

الديـن الإسـلامي والقـرآن الكريـم ، وتحـاول مشـاهد الفيلـم الربـط مـا بـين الممارسات الدينية الإسلامية والإرهـاب فيمـا يـردد الإرهـابيون صيحـات : ا الله أكبر " .

أما المثال الثاني فتلك المقالـة التي كتبها صمويل هنتنجتـون أستاذ العلوم السياسية ومدير معهـد جـون م أولـين للدراسـات الإسـتراتيجية في جامعـة هارفرد ، ونشرتها مجلة " فورين أفـيرز " الأمريكية سنة ١٩٩٣ بعنوان " صـدام الحضارات " (١٠) وهـي مقالـة تحـذر شعوباً من شعوب بسبب مـن ثقافتهـا ، ويرى كاتبهـا أن ثقافـات بعينهـا – وفي طليعتها ثقافة الإسلام وحضارته – هـي مصدر الخطـر وعـامل التهديـد لثقافـة الغرب وحضارته ، بل هي العدو الـذي تجـب محاربتـه والقضـاء عليـه . وقـد نالت هذه المقالة منذ نشرها شهرة مدوية حتـى قيـل أنهـا أصبحـت الخطـة " الإسـتراتيجية " للولايـات المتحـدة في مواجهـة تحديـات المستقبل . وتوالـت عليها الردود المؤيدة والمفندة (١١) .

فإذا كانت هذه هي آراء جمهرة من الذين يتكلمون ويكتبون ويخططـون وهـم في مركز القوة ، فهـل يجـدي أن يرفـع الذيـن هـم في مركـز الضعـف أصواتهـم وينادوا بالتعاون والتفاهم بـين الثقافـات والحضـارات ؟ نعـم ، إن ذلـك مجـدٍ ، بـل هـو واجـب ، لأن المنـادين بـه هـم أصحـاب دعـوة ، وحملـة رسـالة ، ينطلقـون مــن موقـف إنسـاني يؤمـن بالشعوب ومسـتقبلها والتعـاون بينهـا ، على حين ينطلـق الآخـرون مـن موقـف معـادٍ للإنسـانية ، ملـيء بالشـك في الشعوب ومسـتقبلها ، وهـم لا يـرون الحضارة والرقي إلا في أمتهم التي عليها أن تشن الحروب وتخوض أنواع الصـراع لإخضـاع الشعوب الأخـرى دفاعـاً عـن الحضارة ومستقبل البشرية .

• • •

ومع ذلك فإن حملة رسالة التفاهم والتعـاون بـين الشـعوب ، وأصحـاب الدعوة إلى بناء علاقـات ثقافيـة حقيقيـة بينها ، موجودون في كل جانب ، وهـم يجهرون بكلمة الحق ، ويقفون مواقـف العـدل والصدق . وكمـا استشـهدنا في مطـالع هـذا الحديـث بالكتـاب الـذي أصدرته لجنة شئون غـير المسيحيين في الفاتيكـان ، واقتبسـنا بعـض عباراتـه ، فإن واجب الإنصاف يقتضينـا أن نشـير إلى رجل جهر بما يعتقد أنه الصـواب ،

هو الأمير تشارلز ولي عهد بريطانيا ، الذي وقف محاضراً في مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية [١٢] عن " الإسلام والغرب " . وما يدخل في صميم موضوعنا أن نستشهد بالرجل وموقفه وأن نقتبس بعض عباراته . وكان مما قاله [١٣] :

" . . . إن سوء الفهم بين الإسلام والغرب مازال مستمراً ، بل ربما أخذ يزداد . إن سوء الفهم هذا ، بالنسبة للغرب لا يمكن أن يكون حصيلة الجهل . . . إن الإسلام يحيط بنا من كل جانب ومع ذلك يستمر الشك والخوف وانعدام الثقة . . . فالذي يربط بين عالمينا أقوى بكثير مما يقسمهما . . . لقد عانى حكمنا على الإسلام من التحريف الجسيم . . . أرجو أن تتذكروا أن دولاً إسلامية مثل تركيا ومصر وسوريا منحت نساءها حق التصويت في نفس الفترة التي منحت أوروبا نساءها الحق نفسه ، بل قبل فترة طويلة من اتخاذ سويسرا نفس الخطوة [١٤] . وفي هذه البلاد تتمتع النساء منذ وقت طويل بالمساواة في مجال الأجور . . . كما أن القرآن الكريم قد نص قبل أربعة عشر قرناً على حقوق المرأة المسلمة في الأملاك والإرث وبعض الحماية في حالة الطلاق وممارسة التجارة . . . وفي بريطانيا على الأقل كانت بعض هذه الحقوق غريبة حتى على جيل جدتي . . . فالتطرف ليس حكراً على الإسلام بل ينسحب على ديانات أخرى بما فيها الديانة المسيحية [١٥] . . . إذا كان هناك قدر كبير من سوء الفهم في الغرب لطبيعة الإسلام ، فإن هناك أيضاً قدراً مساوياً من الجهل بالفضل الذي تدين به ثقافتنا وحضارتنا للعالم الإسلامي . . إن هذين العالمين ، الإسلامي والغربي ، قد وصلا الآن إلى ما يشبه مفترق طرق في علاقاتهما ، ولا يجوز أن ندعهما يفترقان ، وأنا لا أوافق على مقولة إنهما يتجهان نحو صدام في عهد جديد من الخصومة والعداء ، بل إنني على قناعة تامة بأن لدى عالمينا الكثير الذي يقدمانه إلى بعضهما . . . " .

والمحاضرة - لنفاسة معانيها وسلامة اتجاهها - تغري بكثرة الاقتباس منها ، وهو ما فعلنا ، وحسبنا منه ما قدمناه لاتصاله الوثيق بموضوعنا ولتوضيح جوانب منه .

• • •

وكل ما ذكرناه كلام قيل مثله وأضعافه في مناسبات كثيرة ، ولم ينته إلى شيء حقيقي ، سوى ما عبر عنه ذلك الكلام من فكر سديد ونيات حسنة . وهما لا يغنيان شيئاً في الواقع العملي إذا لم يرتبطا بتحقيق مصالح عملية أو معنوية . وقد نشط الحوار العربي في بدء عهده حين أدركت أوروبا مدى قوة النفط العربي وشدة حاجتها إليه . فأخذت زمام المبادرة واتصلت بجامعة الدول العربية والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم وبعض الحكومات العربية ، ودعت إلى تنظيم عدد من ندوات الحوار للتقارب والتفاهم ، وكانت تلح عليها وتتابعها ، ثم أخذت تحرص على نوع واحد من الحوار وهو الحوار الاقتصادي ، وتركز عليه ، وتتغاضى عما سواه من أنواع الحوار ، وخاصة الحوار الثقافي الذي كانت تحرص عليه المنظمات والدول العربية وتطلبه . ومع الزمن تراخت الجهود ، وسقط الحوار كله ولم ينته - بعد عشرين عاماً - إلى نتائج ذات قيمة ، وإن استمر مظهر الحوار وإطاره الخارجي بعد أن فرغ من مضمونه ، حين فقدت أوروبا اهتمامها الحقيقي به لأنه لم يعد يحقق لها المصالح التي كانت تتوقعها في البداية ، ولأن هذه المصالح قد تحققت من خلال الاتصال المباشر بالحكومات العربية بوسائل مختلفة ونتيجة لتفرق الصف العربي . إن تبادل المصالح هو الذي يُحدِث التوازن بين طرفي معادلة الحوار والتعاون . ولابد لحدوث هذا التوازن من وجود قوة وراءه . والقوة الوحيدة للعرب في الوقت الحاضر تتمثل في التضامن وجمع الكلمة وتوحيد الصف . وبذلك تعود للحوار حرارته وقوته ، ويصبح الحديث عن التعاون الثقافي حديثاً مؤدياً إلى الغاية محققاً للهدف . ولا يكون ذلك إلا إذا قامت بهذه الرسالة هيئة أو مؤسسة أو منظمة عربية مشتركة أعضاؤها من ذوي الخبرة والتصور الصحيح والرؤية المستقبلية السليمة ، تدعمها الحكومات العربية دون أن تملي عليها هذه الحكومات علاقاتها المتقلبة فيما بينها ولا علاقاتها الخارجية ، وعلى أن تترك لها حرية التحرك في نطاق المصالح القومية . وما ينطبق على الحوار العربي الأوروبي ينطبق - من حيث الإطار ووسائل التنفيذ والتوجهات - على الحوار الذي ننشده بين المسلمين والأوروبيين ، إذ من غير الطبيعي أن نستمر في علاقات

يواجهنا فيها غيرنا بمواقف موحدة أو متقاربة ، وبتصورات وخطط واضحة ونظل نحن متفرقين دون وضوح في التصورات والخطط ، بل ربما كنا أحياناً نقبل على الندوات والمؤتمرات دون إعداد كاف ودون أن نعرف ما نريد ، فتذهب مشاركتنا أدراج الرياح . وحين يعود ممثلونا ووفودنا بشيء ذي قيمة - وما أقل ما يحدث ذلك - فإنه يضيع في غياهب الأدراج . أما بقيام هذه الهيئة أو المؤسسة المستقلة فإنها تضع الخطط والبرامج ثم تتولى التنسيق والمتابعة . وكل عمل ليس له متابعة هو عمل منقطع يضيع قبل الوصول إلى غايته . وما أكثر الأعمال التي تبدأ ثم لا تنتهي إلى شيء ! !

الأستاذ الدكتور

**ناصر الدين الأسد**

عمان - الأردن

# الهوامش

==================

١ – قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعـارفوا ﴾ الحجرات : ١٣ .

٢ – قال تعالى : ﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولايزالون مختلفين إلا من رَحِم ربُّك ، ولذلك خلقهم . . ﴾ هود : ١١٨ و ١١٩ .

٣ – النحل : ١٢٥ .

٤ – العنكبوت : ٤٦ .

٥ – المتحنة : ٨ – ٩ .

٦ – **Guideines for a Dialogue Between Muslims and Christians** أصدرتـه بالفاتيكان : **Secretariatus Pro Non - Christians** ورئيسـها : **Cardinal Paul Marella .**

٧ – **Guidelines for a Dialogue ... pp. 5 - 6 .**

٨ – أنظـر : الدكتـورة مـارلين نصـر ، صـورة العـرب والإسـلام في الكتـب المدرسية الفرنسـية ، والإشارات الـواردة فيه إلى كتب أخرى أُلِّفت في الموضوع عن الكتب المدرسية في أقطار أخرى ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ١٩٩٥م .

٩ – جريدة الحياة التي تصدر في لندن ١٣١٠٩ ، ١٩٦٩/٤/٢٠م .

١٠ – **Huntington, Samuel P. , Foreign Affairs, Summer, 1993 .**

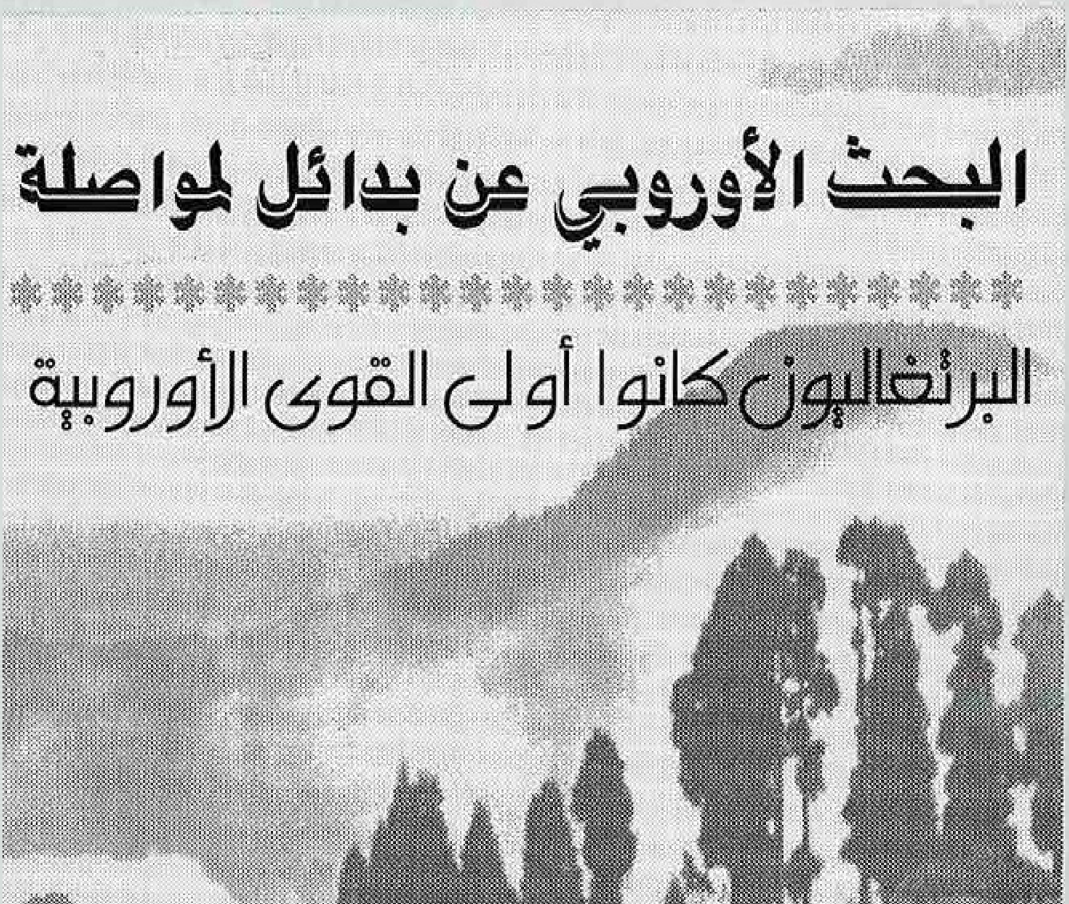
١١ – أنظر المقالة المسهبة المنشورة في : **The Economist, August 6th - 12th 1994** والتعليقات على هذه المقالة في العدد التالي من المجلة بتاريخ ١٩٩٤/٩/٣م .

١٢ – وهو مؤسسة مرتبطة بجامعة أوكسفورد ببريطانيا ، وانظر المحاضرة في النشرة الصادرة عن المركز باللغة العربية ، والتي طبعتها شركة يونيسكيل ، إنشام ، أوكسفورد .

١٣ – ص ١٠ وما بعدها ، وقد حافظنا على الترجمة العربية كما جاءت في النشرة مع أسلوبها .

١٤ – لم يذكر الأمير تشارلز أن النساء في زمن البعثة النبوية منذ أربعة عشر قرناً كان لهن حق التصويت ، وبيعة النساء لرسول الله صلى الله عليه وسلم معروفة ، بالإضافة إلى النساء اللاتي بايعنه عليه السلام مع الرجال في عدة مناسبات .

١٥ – في هذا عدم دقة وخلط بين الدين نفسه وبين أتباعه الذين يتطرفون لأسباب سياسية واقتصادية واجتماعية ، ويوهمون أنفسهم وغيرهم أنهم إنما يفعلون ذلك دفاعاً عن دينهم ويستشهدون بنصوص من الكتب المقدسة يسيئون فهمها وتفسيرها .



# البحث الأوروبي عن بدائل لمواصلة

## البرتغاليون كانوا أولى القوى الأوروبية

بقلم :
د. إسماعيل نوري الربيعي

# التجارة مع آسيا ١٥٠٠ - ١٨٠٠م

## التي حظيت بعلاقات تجارية مع آسيا

تفردت التجارة الأوروبية مع آسيا بميزة ذات طابع خاص . كان تمثلها واضحاً في توجه الأوروبيين وحرصهم في الحصول على بضائع آسيا المتنوعة والمثيرة . ويكاد يكون التنوع في الإنتاج الآسيوي أحد أهم العوامل ، بالإضافة إلى تحقق تفوق بارز لآسيا في الميزان التجاري على حساب أوروبا ، التي كانت تدفع " الذهب والفضة " في سبيل الحصول على البضائع الآسيوية . مما جعل العديد من الباحثين الأوروبيين يشيرون إلى تلك العلاقات التجارية ، وتحميلها وزر الأوضاع الاقتصادية المتردية التي نالت أوروبا ، وجعلتها تعاني من شح واضح في المعادن الثمينة (١) . وحتى أواخر القرن الخامس عشر ، لم يتمكن التجار الأوروبيون بطريق مباشر من الحصول على مرادهم من البضائع الآسيوية . فيما كان ظهور البرتغاليين في الموانئ الآسيوية أحد العوامل التي ساهمت في توسيع التبادل ، والتنازل عن المزيد من المعادن الثمينة ، على الرغم من مظاهر القوة التي زحفوا بها نحو المنطقة .

**وبقدومهم الذي حفزه التوابل والنفائس ، لم يكن لديهم ما يبادلون به تجار الموانئ الآسيوية . والواقع أن مستوى الإنتاج الذي بلغه حرفيو آسيا ، وتراكم خبراتهم ، وحصولهم على الموارد الطبيعية التي تكفل لهم حياة مستقرة دون عوز أو حاجة ، كان من العوامل التي وضعت قادة الأسطول البرتغالي في حيرة من أمرهم . فمن أين لهم بسلع توازي أهمية الأرز أو الشاي أو المنسوجات القطنية والحريرية والتوابل والأعشاب [٢] .**

كانت أوروبا تحصل على البضائع الآسيوية عبر منطقة الشرق الأدنى وبجهود حثيثة من قبل التجار الإيطاليين الذين احتكروا ذلك العمل وتخصصوا في نقل التوابل والفلفل والحديد . إلا أن عبور البرتغاليين لرأس الرجاء الصالح عام ١٤٩٨م ، ساهم في تحويل الصورة إلى حد بعيد ، إلا أن الطلب الأوروبي شهد زيادة في الإقبال ، حتى كانت البضائع تقسم إلى أصناف وفق شدة الرغبة والإقبال ، فكانت التوابل والفلفل والأنسجة القطنية تحتل المرتبة الأولى ، فيما كانت سلع الحرير والنحاس والسكر والقهوة والملح الصخري والنيلة والألماس والأفيون في المرتبة الثانية (٣) ، واحتلت الأعشاب المرتبة الثالثة في الطلب .

على مدى الفترة الممتدة من ١٥٠٠ - ١٨٠٠م ، توجه الأوروبيون في تركيز حصولهم على البضائع الآسيوية عن طريق دفع الفضة والذهب ، التي كانوا يحصلون عليها من مناجم العالم الجديد " أمريكا " فيما تمكنوا من الحصول على بعض المال لتمويل تجارتهم واستمرارها عن طريق بيع بعض السلع في الموانئ الآسيوية . ولم تكن غائبة الفعالية التى برعوا فيها ونشطوا ، ممثلة في توسيع أنشطة تجارة الموانئ الآسيوية والتي وفرت لهم موقعاً مميزا في طبيعة الاتصال التجاري والحصول على الأرباح الوفيرة . ولا يمكن إغفال الأعمال العسكرية التي أقدم عليها الأوروبيون والنهب الذي مارسوه في سبيل الحصول على الموارد والأموال والمواقع المميزة ، حتى كان القرن السادس عشر شاهدا على فظائع البرتغاليين ، والقرنان السابع عشر والثامن عشر حيث نشط الهولنديون [٤] في أرخبيل الملايو ، وما فعله الإنجليز خلال القرن الثامن عشر في الهند .

ساهم الذهب الأمريكي في تنشيط عرى العلاقات التجارية الأوروبية – الآسيوية ، وبحاستهم التجارية المستندة إلى الخبرة وتراكم السنين ، استوعب الآسيويون الرغبة الملحة التي كانت تعتمل في نفوس الأوروبيين ، حتى كانت مسألة رفع أسعار السلع ليست بالأمر العسير ، لاسيما وأن أوروبا ، بدأت تظهر عليها تخمة الذهب مما كان له وقعه على اندفاع السفن الأوروبية بكل قوتها نحو نقل البضائع من آسيا إلى أوروبا . والواقع أن الكميات الوفيرة التي تم نقلها من أميركا ، كان لها الوقع الكبير في حجم التجارة مع آسيا ، فقد تم نقل ثلث الفضة الأميركية خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ، على شكل مدفوعات نقدية من أجل بضائع آسيا . فعلى مدى الأعوام ١٥٧٠ – ١٧٨٠م نقل حوالي من أربعة آلاف إلى خمسة آلاف طن من الفضة إلى آسيا ، فيما قدر بعض الباحثين كمية الفضة الواصلة إلى الشرق خلال الأعوام ١٥٠٣ – ١٦٥٠م ما يعادل سبعة عشر ألف طن .

وكان لتركيز التبادل السلعي على معدني الفضة والذهب ، أن اتجهت اهتمامات الشركات الشمالية ، لاسيما شركة الهند الشرقية الإنجليزية ، إلى حث خطواتها للاستفادة القصوى من ذلك المعدن ، ونتيجة لارتفاع معدل سعر صرف الفضة إلى الذهب في أوروبا والبالغ خمسة عشر إلى واحد ، عمدت إلى تركيز محاولتها في أوروبا مقارنة بمعدل الصرف الموجود في آسيا والبالغ تسعة إلى واحد ، خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر [٥] .

احتلت الفضة مكانة واسعة في حجم النشاط التجاري الأوروبي الآسيوي ، وكانت تنقل بأشكال متنوعة منها ما هو مسكوك يحمل شعار المناطق التي جلب منها ومنها ما يؤتى به بالكميات ، وكانت فعالية البيع والتبادل تتم عادة بالوزن . ومن أبرز المسكوكات الأوروبية ، أو التي جلبوها ، كانت عملة " دوكاتون " الفضية التي يتم سكها في هولندا لغرض التبادل التجاري مع آسيا بالذات . وحظيت تلك العملة بعناية خاصة من قبل التجار الآسيويين نتيجة لارتفاع نسبة معدن الفضة فيها ، بالإضافة إلى التصميم الفني المثير والذي كان يستقطب رغبات وأهواء الآسيويين بشكل عام . إلا أن هذه العملة وبنسبة النقاوة العالية فيها ، تعرضت للكثير

من عمليات الصهر [٦] ، ليعاد سكها في عملات محلية جديدة تمثلت في الروبيات .

وظهر في الأسواق الآسيوية عملات أسبانية ومكسيكية مثل " البيسترز " ، كما ظهرت عملة " ريال المارك " والتي كان يتم التعامل بها بالوزن . وقد شاعت تلك العملة خلال القرن الثامن عشر وساهمت الشركات التجارية الأوروبية في نشرها ، وإذا ما كان اهتمامنا منصباً على دراسة تمويل التجارة الأوروبية ، فإن المناجم الأميركية كانت تقدم المعادن الثمينة بوفرة خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر حتى أن أوروبا كانت تحصل على الفضة من مناجم المكسيك ، فيما كان الذهب يصل إليها من البرازيل . وقد قيض للصادرات الأوروبية والتي بدأت تأخذ مكانها في الأسواق الآسيوية ، من تقليل الاعتماد الواسع والمباشر على المعادن الثمينة . إلا أن هذا القول لا يعني أن بضائع أوروبا قد احتلت منزلة رفيعة في التجارة الآسيوية ، فقد كانت على درجة من المحدودية ولم تحقق لناقليها سوى الحصول على أسعار التكلفة بالإضافة إلى قلة تنوعها ومحدودية الإقبال والرغبة فيها . ويمكن حصر البضائع الأوروبية بالأنسجة الصوفية وبعض الكميات من الحديد والنحاس والرصاص والزئبق وسكاكين المطبخ ، وإبر الخياطة وقدور الطبخ ،وعلى الرغم من النشاط الذي كان يبديه التجار الأوربيون في ترغيب السكان المحليين في بضائعهم المكدسة مقابل وكالاتهم التجارية ، إلا أن الفشل كان حليفهم [٧] .

لم يحظ من البضائع الأوروبية بالأهمية ، سوى بعض المواد المتعلقة بالأسلحة النارية وصناعة السفن ، إلا أن رصانة القوى المحلية الحاكمة وقوتها ، كانت حائلاً دون اتساع تلك الأهمية ، فقد كان لآسيا جيوشها المحكمة التأسيس والتي غالباً ما كانت تعتمد في تسليحها على إمكاناتها الذاتية ، ومن أبرز تلك القوى ، جيش الإمبراطور المغولي أورنجزيب ١٦٥٨ - ١٧٠٧م ، وجيوش الإمبراطورية العثمانية ، وجيش نادر شاه في بلاد فارس ، وجيش الإمبراطورية الصينية . والواقع أن تجارة السلاح ، كانت من المشاكل التي واجهت الأنشطة التجارية الأوروبية في آسيا ، فقد حرصت العديد من القوى الحاكمة على منع وصول تلك الأسلحة إلى الفئات المتنفذة داخل

كياناتها السياسية . فخلال القرن السابع عشر عمدت اليابان إلى منع التجارة الأوروبية داخل أراضيها ، خشية من وصول الأسلحة الأوروبية إلى طبقة " الدايميوز " (٨) .

كان البرتغاليون أولى القوى الأوروبية التي حظيت بعلاقات تجارية مباشرة مع آسيا ، ولم يجدوا صعوبة في تنظيم شئون تجارتهم ، حيث اعتمدوا على مصادر متنوعة للتمويل ، تمثل الأول في المعادن الثمينة المجلوبة من مناجم أميركا ، فيما كان الثاني يتمثل في النقود المحصلة من الضرائب التي فرضوها على الموانئ التي وقعت تحت سيطرتهم . والمصدر الثالث كان يتم عن طريق عمليات السطو والنهب المباشر التي كانت تباشرها السفن البرتغالية في المياه الآسيوية . وبقدوم الهولنديين إلى المنطقة بدأ التفكير الجدي في مسألة توفير مصادر التمويل وما يمكن أن يجلبوه معهم من بضائع إلى آسيا حتى وجدوا ضالتهم في الاتجاه نحو " تجارة الموانئ الآسيوية " وتوسيع آفاق العمل بها من أجل الحصول على أرباح ، تضمن لهم استمرار تدفق البضائع الآسيوية نحو أوروبا . أما الشركات الشمالية والتي برزت إلى ساحة النشاط خلال القرن السابع عشر ، فقد حرصت على خلق نوع من الموازنة في عملية التبادل السلعي ، لاسيما في مجال دفع الكميات الهائلة من المعادن الثمينة ونقلها إلى آسيا . ولا يمكن إغفال أثر التحولات في السياسة التجارية الأوروبية ، حيث مثل النشاط التجاري البرتغالي احتكاراً حكومياً ، في حين أن شركة الهند الشرقية الإنجليزية ١٦٠٠ ، وشركة الهند الشرقية الهولندية ١٦٠٢م بالإضافة إلى شركات أخرى قد اعتمدت في أنشطتها على مساهمة رؤوس الأموال الخاصة ، مما كان له أبلغ الأثر في تحديد مجالات الأنشطة وتهذيبها بما يتوافق والأرباح المتوقعة ، فلم يعد الحماس والرغبة في توكيد عوامل أخرى كالسياسية والدينية في الاتجاه نحو الشرق ، بقدر ما تركز الاتجاه نحو الامتيازات التجارية وطموحات الأرباح (٩) .

وإذا ما كنا بصدد التعرض لتلك الشركات ، فإنه من الأجدى أن نشير إلى طبيعة الفعاليات التي كانت تؤديها تلك الشركات والظروف المحيطة بها . فالشركة الهولندية أفادت وبشكل ملفت للنظر من الرفاهية التي بلغتها هولندا ، خلال حكم الإمبراطور شارل الخامس

١٥١٩ - ١٥٥٦م والذي جعلها تحت نفوذ السيادة الأسبانية وقدم لتجارتها امتيازات هائلة كان لها الأثر البالغ في تنشيط عملياتها . حتى كان لهم السيطرة وبشكل مطلق على تجارة أوروبا الغربية خلال القرن السادس عشر ، فيما انشغل الأسبان والبرتغاليون في توسيع رقعة نفوذهم في آسيا وأميركا ، وعدم ظهور أي بادرة من قبل الإنجليز في دخول حلبة المنافسة إبان تلك الحقبة . لقد أفادت الشركة الهولندية من وفرة الأموال في بلادها ، حتى تمكنت من الانطلاق في فعالياتها برأسمال ثابت بلغ ما يعادل عشرة أضعاف رأسمال الشركة الإنجليزية . وبرأسمال كهذا توافرت لها الإمكانيات الهائلة في تدعيم موقفها في السوق الآسيوي ، حتى تمكنت من فرض سيطرتها التامة على جزر أرخبيل الملايو ، وجعل تلك الجزر في خدمة أهدافها التجارية بالإضافة إلى توسيع رقعة علاقاتها التجارية مع مناطق أخرى من آسيا ، حتى قيض لها الحصول على الفضة من اليابان مقابل تقديمها لبعض السلع المنتجة في أوروبا (١٠) .

تتسم فعاليات شركة الهند الشرقية البريطانية بالمحدودية ، إذا ما قورنت بما كانت تقوم به الشركة الهولندية خلال القرن السابع عشر . والواقع أن الشركة الإنجليزية كانت تحت وطأة العديد من العوامل ، يقع أهمها في عدم وجود رأسمال ثابت ، بقدر ما كانت تعتمد على رأس المال المساهم وتوزيع الأرباح بعد عودة السفن إلى أوروبا ، ولم تحقق الشركة سعة في حركة السفن حتى أن قيمة ما تم نقله على مدى الأعوام ١٦١٥ - ١٦٢٤م قد بلغ خمسين ألف باوند استرليني سنوياً علما بأن هذا المبلغ لم يبلغ نصف الأرباح التي كانت تحققها الشركة الهولندية ، التي تمكنت من الحصول على الفضة من نشاطها التجاري مع موانئ الخليج العربي ، مما مكنها من تنويع مصادر تمويلها (١١) .

إزاء النجاحات المطردة التي كانت تحققها الشركة الهولندية ، تعرضت الشركة الإنجليزية للعديد من المشاكل ، والتي برزت في شكل خاص في إنجلترا

وتكمن تلك المشاكل في الانتقاد الذي وجه من قبل الاقتصاديين والمؤكد على طرفين للنهوض بالاقتصاد الإنجليزي يتمثلان في ضرورة المحافظة على المعادن الثمينة والإبقاء عليها في

البلاد ، أما الطرف الثاني فيتركز في توسيع الأسواق للصناعة الوطنية وتصريفها والإقلال من استيراد المواد الاستهلاكية . وكان الاتجاه السائد في ضرورة توسيع نشاط التصدير من أوروبا إلى آسيا قد برز في الشرط الذي وضع في الامتياز الجديد الذي وقعته مع الحكومة الإنجليزية عام ١٦٩٣م والقاضي بتصدير بضائع إنجليزية إلى آسيا بما يقدر بمائة ألف باوند استرليني سنوياً . وقد حاولت الشركة تصدير الأنسجة الصوفية لاسيما في مناطق نفوذها المثل في الهند ، إلا أن حرارة مناخ الهند ، جعل المهمة غير مجدية ، مما حفزها للبحث عن أسواق جديدة ، حتى وجدت ضالتها في بلاد فارس ذات الشتاء الطويل نسبياً ، إلا أن المنافسة التي برزت من قبل الشركات الأخرى كان لها الأثر البالغ في تحديد ذلك النشاط ، ولم تكن المنافسة تأتي من البحر فقط ، بقدر ما كانت كميات كبيرة تصل فارس عن طريق الشمال [١٢] وعبر الطرق البرية المتصلة بموانئ البحر المتوسط .

وإذا ما كان الوصف الذي ألصق بالشركة الإنجليزية ، والنشاطات الواسعة والعملقة الاقتصادية التي بلغتها ، فإن هذا الأمر لم يمنع من ظهور العديد من المشاكل والمعاناة التي أحاطت بأنشطتها . لاسيما في مجال تصدير البضائع الإنجليزية إلى آسيا . فمعظم المنسوجات الصوفية الإنجليزية التي بلغت البنغال ، كانت تعاني الكساد ولم تكن الحال هذه مقتصرة على منطقة واحدة ، بقدر ما كانت تشمل مختلف مناطق الهند التي شملها النفوذ الإنجليزي . وعلى الرغم من الشكوى التي كان يرفعها الوكلاء إلى مقر الشركة في لندن ، إلا أن اتجاه تصدير البضائع الإنجليزية إلى مناطق آسيا ، كان جزءاً من السياسة التجارية التي حرصت على تطبيقها الحكومة الإنجليزية لاسيما في النصف الثاني من القرن الثامن عشر[١٣].

لم تحقق البضائع الأوروبية المصدرة إلى آسيا ، أي نتائج إيجابية في مجال تعديل الميزان التجاري أو الإقلال من ضخ الفضة والذهب إلى آسيا . وقد وجدوا ضالتهم بتعزيز دورهم في تجارة الموانئ الآسيوية . والتي كان محيطها في أرخبيل الملايو وموانئ الصين واليابان والهند والبحر الأحمر والخليج العربي وشرق أفريقيا . وتقوم على تبادل البضائع التي تنتجها آسيا ، حيث

برزت الهند في إنتاج الأنسجة القطنية ، والصين بالحرير والفخار والخزف ، واليابان بالفضة والنحاس ، وأرخبيل الملايو بالتوابل ، وبلاد فارس بالحرير والسجاد ، وبلاد العرب بالخيول والأعشاب الطبية [١٤] .

وجد الأوربيون في تجارة الموانئ الآسيوية مجالاً هائلاً للربح ، حتى أنهم وبمقارنة أرباحهم مع التجارة الأوروبية ، اتجهوا نحو تعميق نشاطهم وتركيزه . والواقع أن البرتغاليين لم يتنبهوا إلى تلك التجارة ، وإنما تركوها للتجار الآسيويين ، ليؤدوا جميع الفعاليات المتعلقة بها . في حين أن مقدم الشركات الشمالية إلى آسيا ، ساهم في إحداث نقلة هائلة في النشاط التجاري بصفة عامة خلال القرن السابع عشر . أما الهولنديون فقد ركزوا جهودهم على تجارة التوابل ، وحاولوا أن يوطدوا نفوذهم في منطقة مركزية لتسهل لهم عملية النشاط التجاري ، حتى كانت جزر أرخبيل الملايو مركزاً ومحطة لأنشطتهم ، وقد وجدت الشركة الهولندية أن الاتجاه نحو الموانئ الآسيوية أكثر جدوى وأكثر ربحاً من الاتجار مع أوروبا وذلك للكميات الكبيرة من المعادن الثمينة التي يجب جلبها من أوروبا لغرض دفع ثمن التوابل الذي ركزت عليه الشركة الهولندية بصفة خاصة [١٥] .

وضع الهولنديون نصب أعينهم السيطرة على التجارة الأوروبية - الآسيوية بشكل كامل . والتركيز بشكل واضح على احتكار تجارة الصين . وتتألف خطتهم في إنتاج السفن الهولندية بعدد كبير وضمان التسليح الجيد وتوفير التمويل اللازم . وقد وضع للخطة مرحلتان ، الأولى تمثلت في الساحل الجنوبي الشرقي للهند ، حيث الحصول على الأرباح الواسعة ، ومن بعدها يتم العمل بالمرحلة الثانية والمركزة على بلوغ الصين بالأرباح التي يتم جنيها من الاتجار مع الموانئ الآسيوية ودون الحاجة إلى نقل المال من هولندا[١٦] .

حققت الشركة الهولندية أرباحا طائلة خلال القرن السابع عشر من نشاطها التجاري مع الموانئ الآسيوية . فقد حصلت في العام ١٦٣٨ - ١٦٣٩م على أرباح في ميناء بندر عباس بلغت مائتين وستين ألف جلدرز . وكانت توجهات التبادل السلعي قد بلغت أنواعاً ومناطق آسيوية مختلفة ، حتى

كانت الوكالة التجارية الهولندية في ميناء بندر عباس تحصل على جوزة الطيب والقرنفل من جاوة وسومطرة ، والقرفة من سيلان والهيل من ساحل الملبار ، والزنجبيل من الصين والهند ، والسكر من الصين وتايوان ، وتمكنت من الحصول على النيلة والصمغ وخشب الصندل . بالإضافة إلى القصدير من آجن الواقعة شمال سومطرة ، والنحاس من اليابان ، والخزف من الصين ، والبخور والكافور من سيام . وكان لميناء بندر عباس من الأهمية ، أن المال الهولندي[17] المتداول فيه ، قد فاق جميع المال الذي استخدمه البرتغاليون في تجارة الفلفل مع آسيا.

لم تبق الصورة على حالها ، إذ برزت عدة مؤثرات ساهمت في تقدم الشركة الإنجليزية على حساب الشركة الهولندية خلال القرن الثامن عشر ، وكانت السياسة التي اعتمدها الإنجليز أحد أهم الدعائم التي ساهمت في بروز دورهم ، فقد تم السماح للنشاطات التجارية الخاصة التي يقوم بها الإنجليز في الموانئ الآسيوية وقدمت لأولئك التجار الدعم والرعاية والأمن . فيما تفرغت الشركة لأداء فعالية التجارة الأوروبية – الآسيوية . وكان هذا الأمر ينبع من الإمكانات المادية الشحيحة للشركة الإنجليزية . في حين أن الهولنديين لم يسمحوا لأي من رعاياهم في إبداء أي نشاط خارج عن احتكار ونطاق شركتهم . مما أفسح المجال أمام الأطماع الشخصية والخلافات أن تتفاقم وتؤدي إلى ضعف عمَّ مفاصل أداء الشركة[18] وجعلها تتراجع أمام منافسة الشركة الإنجليزية التي تمكنت من فرض هيمنتها على تجارة الموانئ الآسيوية في النصف الثاني للقرن الثامن عشر ، لتحقق لبلادها أرباحاً هائلة ساهمت في تدعيم القوة الاقتصادية ، التي كان لها الأثر البالغ في اتساع رقعة الإمبراطورية البريطانية .

وطدت الشركة الإنجليزية نظاماً إدارياً صارماً ، حقق لها المزيد من الأرباح وترصين الموقف . حتى أن مصادر تمويلها قد تعددت ، ولم تقصرها على مجال واحد . فاتجهوا نحو تحصيل الضرائب من التجار الإنجليز الذين يشحنون بضائع على سفن الشركة ، ولم يقتصر الأمر على هذا الحد ، بل كان دور التجار ذوي النشاطات الخاصة في دعم التجارة الأوروبية وتقليل الاعتماد على عملية نقل الأموال من

أوروبا [١٩] . بعد أن وجدوا ضالتهم في اتساع أنشطتهم مع الموانئ الآسيوية .

احتلت تجارة الصين أهمية استثنائية في آمال وتطلعات الشركة الإنجليزية ، إلا أنها جوبهت بعائق التكاليف العالية التي تتطلبها تلك التجارة . وبالعزوف الذي تعلمه الشركة لدى الآسيويين بالنسبة للبضائع الأوروبية . فوجدت أن البديل الذي يمكن أن توفره ، يأتي من خلال نقل البضائع الهندية إلى الصين ، لتوفر المال اللازم للمضي بتلك التجارة وتوسيع آفاقها ، لاسيما وأن النفوذ البريطاني كان قد تغلغل في الهند خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر . مما جعل من الهند وما تنتجه من بضائع مكرساً لخدمة أهداف شركة الهند الشرقية البريطانية ، ومصدراً هائلاً يوفر للشركة المال اللازم لإتمام التجارة مع الموانئ الآسيوية ، فعلى سبيل المثال كانت الشركة تصدر من الهند المنسوجات القطنية والأفيون إلى الصين [٢٠] ، لتحصل بالمقابل على الشاي والبضاعة التي برز الإقبال عليها بشدة في أوروبا إبان تلك الحقبة .

**د. إسماعيل نوري الربيعي**
**الجامعة الأردنية**
كلية الآداب – قسم التاريخ

# الهوامش

==================


١ - Simkin, The Traditional Trade of Asia, London 1968 . P.252 .

٢ - Michal Greenberg, British Trade and the Opening of China 1800 - 1842, Cambridge 1969 .

٣ - Quoted in R.C. Dutt, The Economic History of India, Vol. 1, P.215 .

٤ - Simkin, Op.cit, P. 252 .

٥ - Pierre Choraunu, Les Philippines et Le Pacifique des Iberiques . XVI, XVII, XVIII Siecles, Paris 1960, P. 269 .

٦ - Parry, Trade and Dominion, New York 1971, P. 67 .

٧ - Ibid. P.66 .

٨ - د. عبد الأمير محمد أمين ، نظرة جديدة للإنجازات السياسية والعسكرية والتجارية البرتغالية في آسيا ، مجلة دراسات ، الجامعة الأردنية ، ١٩٨٨ .

٩ - Masselman, The Caidle of Colonialism, London 1963, P.72 .

١٠ - Carlton Hayes and others, History of Europe, New York 1955, P. 453 .

١١ - Wilson, Holand and Britain, London 1946, P.75 .

١٢ - Van Luer, Indonesian Trade and society, The Haghe 1955, P. 6 .

Saldanha, Selections from State Papers, Bombay, Regarding the East India Company's Connection with the Gulf , with Summary of Events 1600-1800, Calcutta 1908 . - ١٣

Van Luer, OP. cit, P.6 . - ١٤

Masselman, OP. cit, P. 195 . - ١٥

Simkin, Op. cit. P.184 . - ١٦

Steensguard, The Asian Trade Revolution of the Seventeenth Century, London1974, P. 407 . - ١٧

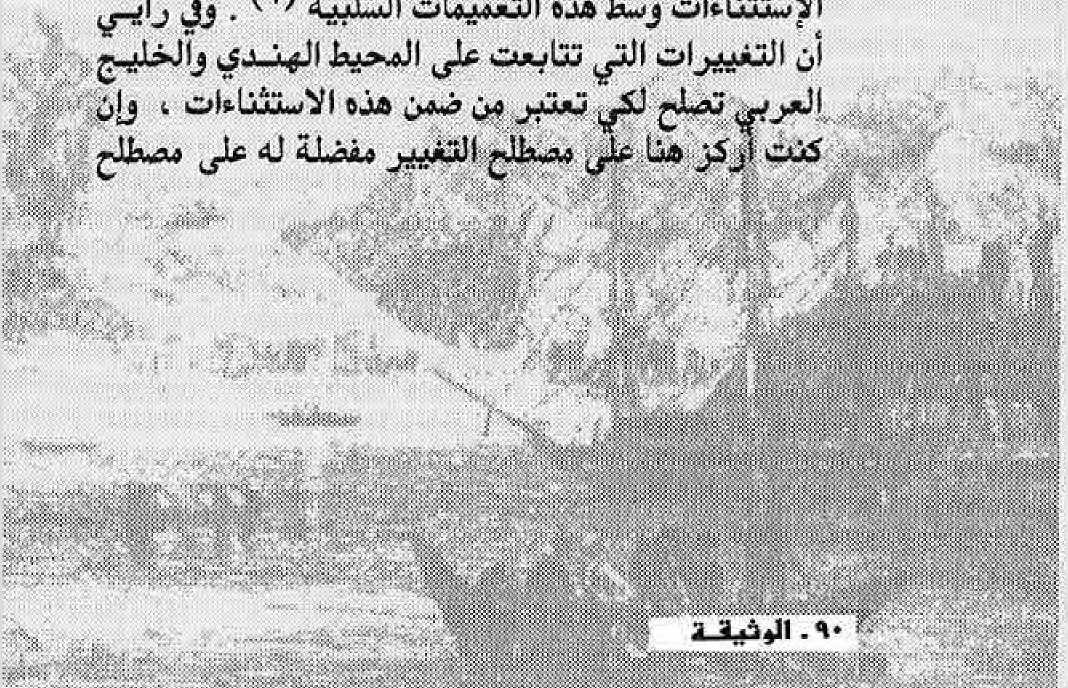
Furber, Rival Impires of Trade in the Orient 1600-1800, Oxford 1976, P. 273 . - ١٨

Ibid,P. 275 . - ١٩

Greenberg, Op.cit. P. 9 . - ٢٠

# نظرة جديدة على العلاقات العماني

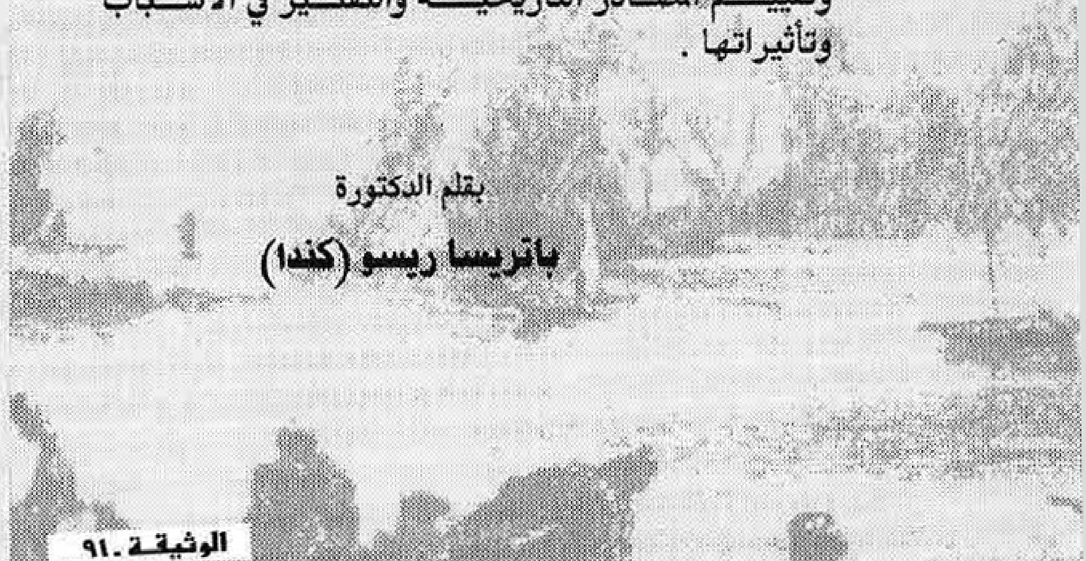
تمثل بداية العصر الحديث في العالم الإسلامي . . عصر التأخر أو على أحسن تقدير عصر الجمود . . فقد شهدت هذه البداية تدهور ثلاث إمبراطوريات كبيرة ورئيسية هي الإمبراطورية الصفوية ، والإمبراطورية المغولية ، والإمبراطورية العثمانية . . . ولكن هذا التدهور لم يكن متماثلا مما يشد الباحث إلى البحث عن الإستثناءات وسط هذه التعميمات السلبية (١) . وفي رأيي أن التغييرات التي تتابعت على المحيط الهندي والخليج العربي تصلح لكي تعتبر من ضمن هذه الاستثناءات ، وإن كنت أركز هنا على مصطلح التغيير مفضلة له على مصطلح



# ـــة البحرينية ١٧٩٩ - ١٨٠٣م

## وجهة نظر كندية

التدهور . إن دراسة هذه المنطقة البحرية الشاسعة خلال الفترة المبكرة من العصر الحديث ، أي قبل هيمنة بريطانيا في القرن التاسع عشر ، مازالت في حاجة إلى مزيد من البحث والتقصي ، نظراً لما يشوب الدراسات الموجودة بالفعل من مظاهر النقص والقصور . خاصة بعد أن بدأت الأبحاث التاريخية في الاستفادة من معطيات العلم الحديث ومن الأساليب المبتكرة في وسائل البحث . . وهذا يفتح المجال لوضع أسس جديدة لتدوين التاريخ وتقييم المصادر التاريخية والتفكير في الأسباب وتأثيراتها .




بقلم الدكتورة

**باتريسا ريسو (كندا)**

لقد شهدت منطقة الخليج في القرن الثامن عشر سلسلة مشوقة من الصراع للسيطرة على البحرين ، هذه السلسلة التي يظهر فيها الفرس والهولة والعتوب والمساقطة وآل مذكور .

فعندما حاول نصر بن مذكور – من بوشهر – أن يدافع عن سيطرته على البحرين ضد آل خليفة ، حكام الزبارة ١٧٨٢م ، لم تظهر مسقط على مسرح الأحداث في هذا الصراع . . وكان هذا العام هو العام الأخير في حياة أحمد بن سعيد مؤسس الأسرة البوسعيدية الذي كان منهمكاً في الشئون الداخلية لبلاده مما لم يجعله يولي اهتماماً كبيراً للحروب البحرية رغم وجود الكثير من النصائح التي كانت تدعوه لذلك . في نفس الوقت شهد هذا العام نشاطاً كبيرا لتجار مسقط من العرب أو الهنود الذين كان لهم دورهم البارز في ترسيخ أقدامهم في تجارة الخليج . ورغم أن البحرين كانت في ذلك الوقت كما كانت في كل الأوقات تحظى بشهرة واسعة في تجارة اللؤلؤ ، إلا أننا لم نسمع كثيرا عن هذه الجزر حتى نهاية القرن . مع ملاحظة أن كل ما كنا نعرفه عنها في تلك الفترة ، إنما جاء بطريق غير مباشر .

وقد حاولت مسقط ثلاث مرات في الفترة بين ١٧٩٩ و ١٨٠٢م السيطرة على البحرين ، وسوف أحاول في هذه السطور تحديد تعاقب الأحداث وتطورها ، مع التدقيق في البواعث التي كانت كامنة وراء هذه المحاولات الثلاث .

## أولاً : الأحداث

في سنة ١٧٩٩م كان يحكم البحرين الشيخ سلمان بن أحمد آل خليفة ، وكان يحكم مسقط سلطان بن أحمد البوسعيدي الأول . وكان سلطان بن أحمد متحمساً أكثر من أبيه للشئون البحرية والتجارية . . وقد اتخذ في سنت ١٧٩٩م من عدم دفع البحرين لضريبة متفق عليها ذريعة لإعداد حملة على البحرين . . وقد طلب سلطان بن أحمد من الإنجليز في بومباي منع أي سفينة متجهة إلى آل خليفة ، واستجاب الإنجليز لهذا الطلب (٢) ، ثم حاول سلطان بن أحمد بعد ذلك الحصول على مساعدة بحرية من موانئ جنوب فارس دون جدوى ، فأبحر بمفرده . وقد أحرزت هذه الحملة نجاحاً محدوداً . . وقد بدأ سلطان بن أحمد باحتجاز ثلاث سفن تجارية من

سفن آل خليفة أثناء عودتها إلى البحرين قادمة من الهند . وقد بادر شيخ البحرين بالكتابة إلى الشيخ ناصر حاكم بوشهر وكان شبه تابع للقاجار أو تحت حمايته مقابل خراج يحصل عليه القاجار ، باعتبار سكان بوشهر رعايا إيرانيين . وقد تلقى الشيخ ناصر رسالة آل خليفة فاتجه إلى البحرين على رأس قوة بحرية مما أجبر سلطان بن أحمد على الانسحاب . وانتقاماً من الشيخ ناصر قام سلطان بن أحمد باحتلال جزيرة خرج بالقرب من بوشهر ، وكانت تابعة للشيخ ناصر . وهكذا وجد سلطان بن أحمد والشيخ ناصر نفسيهما متورطين في صراع دام ستة شهور كاملة (٣) ، وتحولت الحملة الأولى إلى مجرد مناوشات صغيرة بعيداً عن البحرين ودون أن تحقق نتائج ملموسة .

* * *

أما حملة مسقط الثانية على البحرين فحدثت في خريف عام ١٨٠١م . وحدثت في ظروف مختلفة تماماً .

فقد تدهورت العلاقات بين البحرين والقاجار فتح علي شاه بسبب توقف البحرين عن دفع الخراج له وهو الخراج الذي اتفق على دفعه مقابل الدفاع عنهم . . وفي موجة غاضبة للشاه أصدر أمره للشيخ ناصر حاكم بوشهر وللولاة الساحليين التابعين له لإعداد حملة على البحرين . . في نفس الوقت لجأ شيخ البحرين إلى مناقشة الأمر مع سيد سلطان حاكم مسقط في ذلك الوقت في اتجاه معاكس لما حدث في الحملة الأولى، ووعد شيخ البحرين حاكم مسقط بأن يدفع له نصف ما كان يدفعه للشاه مقابل مساعدته للبحرين على تأكيد استقلالها عن العلاقة مع إيران . وقد يبدو موقف مسقط غريباً للبعض ، ولكن سيد سلطان قدم تفسيراً له في خطابه إلى الوكيل البريطاني في مسقط (٤) ، فقد قال له أن هناك خطراً حقيقياً من حملة قاجار إيران على البحرين . فإن مهاجمة آل خليفة في ذلك الوقت لم يكن في صالح مسقط ، لأنهم كانوا عائقا هاماً ومؤثرا في وجه الامتداد الأصولي في الأحساء .

ولكن هذا التحالف بين مسقط والبحرين لم يدم طويلاً بسبب عدم دفع البحرين للخراج . وهكذا وجد آل خليفة أنفسهم في مواجهة كل من إيران

ومسقط. ومما جعل الموقف أكثر حرجاً حصول سيد سلطان على دعم الشيوخ العرب من الهولة على الساحل الإيراني. وأخطر نائب السلطان بومباي بأن الهولة من بندر ريق إلى بندر عباس قد تمردوا على الفرس وقبلوا الخضوع لمسقط ، وبأن أحداً الآن لا يجرؤ على التنفس دون إذن من سيد سلطان (٥) . وحتى القاجار نفسه أرسل بعض سفن الداو المسلحة ومعها تعليمات سرية بأن تدعم الجانب الذي يلوح النصر في جانبه آملاً بذلك مطالبة المنتصر بجزء من عائد الغنيمة . . وتقول المصادر أن عدد القوة العمانية بلغ ٢٤٥٠ شخصاً مدعومين بالهولة والإيرانيين . وكان الأسطول مكوناً من سفينة كبيرة وسفينتين شراعيتين ، وعدد كبير من السفن الصغيرة . ولم تكن هذه القوة سوى جزء صغير من أسطول عمان الذي كان يمكن تعبئته من كل من مسقط وصحار وصور وقلهات (٦) . من ناحية أخرى لم أجد أي تفاصيل عن أسطول البحرين الدفاعي ، وإن كانت الظروف كلها تشير إلى أنه كان صغيراً خاصة بعد فقد ثلاث سفن في سنة ١٧٩٩م ومنع مغادرة أي سفن بحرينية لميناء بومباي. إضافة إلى أن بعض المواطنين البحرينيين من الموالين لإيران اتصلوا بمسقط ووعدوا بتعاونهم مع سلطان مسقط (٧) وبدا في الجو المحيط بأن الحملة سوف تنجح تماماً إلا أن النتيجة كانت على خلاف ذلك .

فعندما نزلت القوات العمانية إلى البحرين في بداية سبتمبر ١٨٠١م انتقل معظم آل خليفة إلى البر الرئيسي ، إلى الزبارة وموانئ العتوب الأخرى . ويقال إن بعض العائلات التي بقيت في البحرين قد نقلت إلى عمان حيث احتجزت هناك . وقد عين سلطان بن أحمد ابنه " سالم " والياً من قبله على البحرين على أن يحكم بالتعاون مع محمد بن خلف الشيعي . . إلا أن ذلك لم يكن نهاية المطاف ، فقد قرر السلفيون الذين احتلوا أجزاء واسعة من شرق الجزيرة العربية ، وشنوا عددا من الغارات في عمق عمان نفسها التعاون مع آل خليفة ، وشنت كل من القوتين هجوماً مضاداً ضد عمان من الزبارة وأجبرا كلاً من سالم ومحمد بن خلف على الفرار إلى مسقط (٨) .

لم يسكت سلطان بن أحمد وأرسل ممثلاً له إلى شيراز في إبريل ١٨٠٢م لالتماس المساعدة في حملة أخرى ولكنه

فشل في الحصول على أي مساعدة من أعدائه التقليديين أي القواسم الذين سبق لهم التحالف مع السلفيين . ولكن في مايو استقبل سلطان بن أحمد سفيري شيراز وبغداد اللذين عبرا عن قلقهما بسبب ضغط السلفيين على كربلاء وتقدمهم نحو مشهد علي بالقرب من بغداد . ووعد السفيران بمساعدة حكومتيهما لسلطان بن أحمد في أي محاولة جديدة لاحتلال البحرين حتى يخفف السلفيون ضغطهم على العراق (٩) ولكن هذه الوعود لم تتحقق مما فرض العزلة على مسقط التي قامت بمحاولة لغزو ضعيف ونهائي وغير ناجح ضد آل خليفة في صيف ١٨٠٢م ، ولكن التوسع السلفي في شرق الجزيرة العربية أجبر سلطان بن أحمد على التخلي نهائياً عن طموحاته في البحرين .

* * *

على الرغم من أن هذه الأحداث واضحة ، إلا أنها رغم ذلك يحوط بها عدد من علامات الاستفهام ، منها معرفة أهداف سلطان بن أحمد . وهنا يبرز سؤال هو لماذا البحرين وليس الكويت أو رأس الخيمة ؟ ولماذا الإصرار في المحاولة وتكرارها ؟

قد تكون الإجابة السهلة هي رغبة سلطان مسقط في احتلال شواطئ البحرين الغنية باللؤلؤ ، وهو تفسير لوريمر (١٠) ومما لاشك فيه أن مسقط كانت تشارك في تجارة اللؤلؤ وذلك يظهر من قراءة رسائل تيبو سلطان حاكم ميسور الذي ذكر فيها أنه استورد كميات كبيرة من اللؤلؤ وقام بتجارة ضخمة مع مسقط ، وكان له وكلاء يشترون اللؤلؤ إما من مسقط وإما من البحرين طبقا لانخفاض الأسعار هنا أو هناك (١١) . فهل كان ذلك سبباً في محاولة انتزاع حكم هذه الشواطئ الغنية من أيدي آل خليفة ؟

وللإجابة على هذا السؤال يجب أن نشير إلى أن بعض المؤرخين تفوتهم دقة التعبير عندما يشيرون إلى ما سمي " مراقبة " تجارة اللؤلؤ وكأن هذه كانت بناءً محكماً ومنظماً وهو ما لم تكن عليه في الواقع (١٢) ، فإن النظام المعقد عن الحقوق الإقليمية وفرض الضرائب ، لم يكن في يد حاكم بمفرده ، أو تحت تصرف أسرة حاكمة . ولو كان الأمر كذلك لكان لدى هذا الحاكم دخل طائل

يمكنه من بناء أسطول ضخم للحفاظ على هذه الثروة . ولكن الواقع يقول أنه لم يكن بالإمكان لأي حاكم أن يراقب صناعة اللؤلؤ بمعنى أن يستغل الأرباح أو يدخلها إلى بيت المال ، بل إن الحق الذي كان متاحاً له هو فرض ضريبة على الذين يمارسون صيد اللؤلؤ خارج الشواطئ المتصلة بالميناء . فإذا كان الحاكم تاجراً أيضاً ، كما كان الحال بالنسبة لآل خليفة ، فقد كان بالإمكان أن يصبح عضواً في المجموعة التي كانت تراقب أرباح تجارة اللؤلؤ أي التجار الدوليين من الهند والعراق وإيران والجزيرة العربية . ولم يكن في الإمكان إذن لحاكم مسقط أن يتولى مراقبة صناعة اللؤلؤ عن طريق إقامة مفرزة في ميناء بحريني . . لذلك فأنا لا أعتقد أن الطمع في اللؤلؤ كان سبب محاولات الغزو . يؤيد ذلك أن مصائد اللؤلؤ كانت ومنذ وقت طويل ملفتة للنظر ورغم ذلك لم تقم مسقط بأي محاولة منذ عام ١٧١٨م مع أنها في ذلك الحين كان لديها قوة بحرية عملاقة . . هناك إذن أسباب أخرى وراء حملة ١٧٩٩م .

أشار الدكتور مرسي عبد الله إلى مصدر لم أره من قبل [١٣] ، وهو عبد الله صلاح المطوع من الشارقة . . فهو يفسر الهجمات المتكررة التي شنها سيد سلطان بن أحمد ، إذ يرى أنها كانت من أجل تحويل أنظار السلفيين عن عمان نفسها . . هذا التفسير قد يكتسب وزناً خاصاً فيما يتعلق بحملة ١٨٠٢م وقد سبق لي أن ذكرت بأن هذه الحملة سبقها وعد سفيري شيراز وبغداد بتقديم العون لمسقط ، وقلت أن الدولتين كانتا ترغبان في تحويل القوات السلفية من هجوم وشيك ضد العراق ( اهتمام شيراز جاء من الالتزام بالدفاع عن الأماكن الشيعية المقدسة في العراق ) وبنفس الأسلوب ربما أمل سيد سلطان في صرف أنظار السلفيين عن عمان . يضاف إلى ذلك أن سلطان مسقط أمر أسطوله في ١٨٠٣م بالقيام بدوريات في الخليج لمنع القواسم والعتوب من بيع المواد الغذائية القادمة من الهند للسلفيين [١٤] ومن المهم هنا أن نؤكد أن الأراضي التي سيطر عليها القواسم - الصير وميناءها رأس الخيمة - تعرضت أخيراً للسيطرة السلفية وقد تركز الصراع الطويل بين القواسم والمساقطة على ميناء صحار وعقب فرض السلفيين سيطرتهم على الصير ، زادت الاحتمالات بانتزاع صحار من أيدي العمانيين وإقامتها

كمنافس لمسقط . ومن وجهة نظر سلطان مسقط فإن ذلك كان كفيلاً بشد نظر السلفيين إلى موضع صراع بعيد ، أي إلى البحرين ، كما أننا لا يمكن أن نغفل الموقع الإستراتيجي للبحرين بالنسبة لعمان . وربما اعتقد سلطان مسقط أنه يحمي نفسه من السلفيين ، ويستطيع أن يمارس حربه المستمرة ضد القواسم بطريقة أفضل ، إذا كان له موطئ قدم في البحرين (١٥) .

ولكن السبب الحقيقي للحملات ضد البحرين يرجع لمصدر آخر (١٦) .

إن سبب الحملة أولاً بأول كان رفض آل خليفة دفع الضريبة (الجمرك) لمسقط وكانت تعادل ٢,٥٪ من قيمة البضائع التي تمر بمسقط على متن السفن المحلية (١٧) . وقد رتب سلطان بن أحمد مع عرب السودان الذين استوطنوا هرمز لتنفيذ نظام دفع الجمرك ، ولكن آل خليفة رفضوا ذلك ، فكانت السفن البحرينية العائدة من الهند تحرص على تجنب المرور بمسقط ، وكثيراً ما نجحوا في تجنب السودان الذين كان عليهم مهاجمة السفن التي لا تدفع هذا الجمرك وليس لدينا تقدير كامل لحجم هذه الجمارك

ولكن كان من الواضح أن سفن آل خليفة كانت تبحر مباشرة إلى الهند وتنافس في عمليات النقل التي كان المساقطة يريدون احتكارها (١٨) .

ويجب أن نلاحظ هنا أن الأمر لم يكن بسيطاً وأن عملية نقل البضائع كانت أمرا جديراً بالقتال من أجله وخاصة في وقت تدهورت فيه تجارة الإنجليز والأوروبيين والتي كانت كما وصفها شارلز عيسوي مجرد قطرة في بحر نشاط النقل المحلي بل إنها انتقلت إلى شواطئ الخليج الجنوبية والجنوبية الشرقية بعيداً عن الشواطئ الشمالية والشمالية الشرقية التي كانت تحت مراقبة العرب . هذا الأمر لم يكن واضحاً تماماً للمؤرخين لأن أغلب المصادر كانت بريطانية وكانت تهتم بتجارة شركة الهند الشرقية بصورة مباشرة وإن كنا لا نعدم معرفة حجم نشاط النقل البحري الحالي ، وإن كان بشكل غير مباشر من المراجع الإنجليزية والفرنسية والقليل من المصادر المحلية .

لقد كانت موانئ جنوب إيران غير آمنة بسبب الحروب الأهلية التي نشبت في المنطقة عقب وفاة نادر شاه سنة ١٧٤٧م وتأثرت تجارة البصرة بالطاعون

الذي انتشر هناك في سنة ١٧٧٣م ، ثم بسبب الحصار الإيراني من سنة ١٧٧٥م إلى سنة ١٧٧٩م وتأثرت حركة التجارة التقليدية بين الهند والموانئ الإيرانية والبصرة لسبب آخر هو موجة تصدي القوى المحلية للغزاة الأجانب التي انتظمت الخليج كله ، وهي الموجة التي يمكن وصفها بأنها حرب بحرية محلية . وإزاء كل ذلك ، فقد وجد التجار الهنود بأن إرسال البضائع إلى الخليج عن طريق مسقط ، كان وسيلة آمنة وأكثر ربحية من إرسالها إلى الخليج . إذ كان الأسطول المسقطي يبحر في شكل قافلة آمنة شديدة الحراسة ويقوم في أمان بنقل البضائع إلى الأماكن المقصودة في الخليج . ومن ناحية أخرى فقد ضمنت هذه العملية لحاكم مسقط ولأصحاب السفن الناقلة دخلاً ضخماً . . . لحاكم مسقط نظير الجمارك ، ولأصحاب السفن نظير أجور الشحن . وإزاء ذلك فقد رغبت كل من البحرين والكويت ورأس الخيمة في الحصول على نصيبهم من هذه الكعكة[١٩] .

يضاف إلى ذلك أمر آخر في غاية الأهمية . فقد قامت مسقط بشراء عدد من السفن الأوروبية النوع ، وذلك في وقت مبكر ، أى في السبعينات والتسعينات من القرن الثامن عشر مما ساعدها على الإبحار إلى الهند عبر أعالي البحار لشراء البضائع مباشرة . أو لتأجير هذه السفن لآخرين لنقل بضائعهم لموانئ جنوب إيران والبصرة . وكان هذا الأسلوب أسرع وأكثر ربحاً من الأسلوب التقليدي الذي كانت سفن الداو تقوم فيه بالانتقال من ميناء إلى آخر وتشتري من أحدهما لتبيع في الثاني . وطبقاً لما ورد في تقرير بريطاني لعام ١٨٠٠م فقد كان حجم التجارة في الخليج ١٦ ملين روبية [ حوالي ٢ مليون جنيه استرليني ] [٢٠] وكان ذلك مبلغاً ضخماً إن لم يكن هائلاً بالنسبة لذلك الوقت . ونحن لا نعرف نصيب آل خليفة من هذا المبلغ ، وإن كان الإنجليز يرون أن نصيبهم كان صغيراً[٢١] . وهنا يجب أن نذكر أن آل خليفة حكموا الزبارة أيضاً . وكان هذا الميناء ميناءً نشطاً في تجارة شرق الجزيرة العربية . وحسب التقديرات المنشورة ، فإن حجم البضائع المستوردة من الهند إلى البحرين والمناطق المجاورة للساحل العربي ، مبلغ مليون روبية ، إضافة إلى مليون آخر قيمة تصدير

اللؤلؤ[٢٢] وكما ذكرت سابقاً فقد كان لدى تجار البحرين بعض السفن التي كان باستطاعتها أن تبحر مباشرة إلى الموانئ الهندية وخاصة إلى سورت حيث تشتري الأقمشة والمعادن الأساسية والبهارات ، والسكر الذي جاء من جافا الهولندية أصلا . وكان تجار البحرين يبيعون هذه البضائع في سائر شرق الجزيرة العربية وفي البصرة منافسين بذلك التجار المساقطة [٢٣] . وفي بعض الأحيان عندما كان الطريق الشمالي للقوافل من الأحساء يغلق كما حدث في عام ١٨٠١ - ١٨٠٢م . كان آل خليفة يبيعون البضائع الهندية التي كانت لديهم في البصرة ، مما سبب إزعاجاً أكبر للعمانيين [٢٤] . قد يكون مبلغ مليون روبية مجرد تخمين بارع ، ولكن علينا أن نلاحظ أن هذا الرقم عشر تخمين نفس المصدر لقيمة التجارة في مسقط . ولم يكن ذلك هو السبب الرئيسي للمنافسة . ولكنه لفت الأنظار . والغريب أن المنافسة جاءت من جزء من الخليج لم تكن فيه موانئ مثل مسقط أو صحار ، إضافة إلى قدرة السفن البحرينية على تجنب دفع الجمارك لمسقط . مما كان السبب الأساسي للحملات المتتالية التي وقعت بين ١٧٩٩ و ١٨٠٢م .

وأود هنا حتى يكتمل تسلسل الأحداث أن أشير باختصار إلى سنوات الدخول إلى القرن التاسع عشر ، وهي فترة موثقة أكثر ، ومعروفة أكثر . كانت القضية الرئيسية عند البحرين في بداية القرن التاسع عشر ، هي إخراج المفارز السلفية التي فرضت عليهم نتيجة التعاون المشترك ضد المساقطة في ١٨٠١م[٢٥] . وكان شيوخ آل خليفة ، الشيخ سلمان بن أحمد والشيخ عبد الله بن أحمد في ذلك الوقت موافقين على دفع الضريبة لمسقط مقابل مساعدتهم ضد السلفيين وإن كنت لا أعلم ما إذا كانت هناك دراسة عن التجارة البحرينية خلال تلك السنوات الصعبة[٢٦] .

ولكن أوضاع مسقط كانت قد تدهورت في أوائل القرن التاسع عشر بسبب الغارات السلفية ، وإلى حد ما بسبب الحرب الأهلية في عمان ١٨٠٤ - ١٨٠٧م . ولكن الحاكم الجديد سيد سعيد بن سلطان استمر في طموحاته تجاه البحرين ، وقام بغزوات فاشلة في كل من الأعوام ١٨١١ و ١٨١٦ و ١٨٢٨م . وقد أدى التدخل البريطاني

في الخليج بعد إبرام معاهدة السلم العامة في ١٨٢٠م إلى كبح جماح سعيد بن سلطان ، ودفعه إلى تركيز جهوده في شرق أفريقيا .

وحتى بعد الهزيمة القاضية في سنة ١٨٢٨م ، ظل سعيد بن سلطان راغباً في فتح البحرين ، وقدم إلى الإنجليز أكثر من اقتراح – ثلاثة على الأقل خلال العقود التالية – لكي يرتبوا له السيطرة على البحرين مقابل طرده للنفوذ الفرنسي وموافقته على طلب الإنجليز بمنع تجارة الرقيق . ولكن هذه الصفقة لم تتحقق .

* * *

والخلاصة أن الأسباب التي دفعت عمان للقيام بسلسلة من الهجمات على البحرين كانت قدرة آل خليفة على تجنب ميناء مسقط وقدرتهم على منافسة تجار عمان والاتجار مع الهند مباشرة ومنافستهم في عمليات النقل البحري . هذه الأسباب تشير بطريقة غير مباشرة إلى نجاح البحرين في تسعينات القرن الثامن عشر في عمليات نقل وشحن البضائع إلى الشواطئ العربية وذلك بعد قليل من تولي آل خليفة للحكم في البحرين . وبعد أن وجه سيد سعيد بن سلطان أنظاره لشرق أفريقيا ، أصبح آل خليفة في موقف آمن واستطاعوا الاستفادة من تقلب الأوضاع التجارية التقليدية في الخليج .

د . باتريسا ريسو ( كندا )

جامعة ماكجل (كندا)

# الهوامش

١ – طوماس ناف و روجر أوون ، دراسات في التاريخ الإسلامي للقرن الثامن عشر ( كاربون ديل ، الينوي ١٩٧٧ )

٢ – سجلات مكتب الهند ، لندن ، مختارات بومباي ، رينج ٣٨١ في ٣ من الوالي دنكان في بومباي إلى سيد سلطان بن أحمد في مسقط ، ٣٠ مايو ١٧٩٩ ، ص ٣٠٧١ .

٣ – المصدر السابق . في ٥ ، خطاب ويلسون ، ٢١ يوليو ١٧٩٩ ص ٤٦٢١–٤٦٢٣ ، في ٦ ، خطاب من مترجم شركة الهند الشرقية في بوشهر إلى بومباي ص ٤٦١٦ – ١٨

٤ – المصدر السابق . في ٢٠ ، كابتن ديفيد سيتون في مسقط ينقل حواراً مع سيد سلطان بن أحمد ١٨ فبراير ١٨٠١ ، ص ٦٩٦ – ٩٧ .

٥ – المصدر السابق ، في ٢٦ ، نائب سيد سلطان بن أحمد إلى الحكومة البريطانية في بومباي ، حوالي سبتمبر/أكتوبر ١٨٠١م .

٦ – المصدر السابق ، في ٣٣ ، سيتون إلى بومباي ، ٩ يوليو ١٨٠٢م ، ص ٣٦١٠ ، في ٢٥ ، سيتون إلى بومباي ٢٠ يوليو ١٨٠١م ، ص ٤٩٦٨ – ٧١ .

٧ – محمد النبهاني ، التحفة النبهانية في تاريخ الجزيرة العربية ( القاهرة ١٣٤٢هـ ) الفصل الأول ، ص ١٣٠ .

٨ – سجلات مكتب الهند ، بي بي إس بي رينج ٣٨١ ، ٥ – ٢٦ ، سيتون إلى بومباي ، ٤ أكتوبر ١٨٠١م ، ص ٥٨٧١ – ٧٣ ، حميد بن محمد بن رزيق ، الفتح المبين في سيرة السادات آل بوسعيديين ( مكتبة جامعة كمبريدج ، مخطوط ٢٨٩٢ ) ص ١٩٣ .

جيه – جي – لوريمر ، دليل الخليج وعمان ووسط الجزيرة العربية ( كلكتا – ١٩٠٨ – ١٥ ، طبعة جديدة لـ جريج ١٩٧٠م ) ٥ – المجلد الأول ، قسم ١ ( ا ) ، ص ٤٢٣ و ٥ – المجلد الأول ( ب ) ص ٨٤١ – ٤٢ ، النبهاني ، التحفة النبهانية ، الفصل الأول ص ١٢٩

- ١٣١ ؛ مرسي عبد الله ، إمارات الساحل وعمان والدولة السعودية الأولى ١٧٩٣ -١٨١٨م ( القاهرة ١٩٧٨ ) ص ١٨٧ - ٩٠ .

٩ - سجلات مكتب الهند ، بي بي إس بي رينج ٣٨١ (٥) - ٣٢ سيتون إلى بومباي ، ٧ مايو ١٨٠٢ ، ص ١٤٤ ، و ١٠ مايو ١٨٠٢ ص ٢١٤٧ - ٤٨ ، أيضاً سجلات المقيمية ( آي أو آر ) بوشهر ( آر - ١٥ - ١ ) سيتون إلى مهدي علي خان في بوشهر ، ٢٥ إبريل ١٨٠٢ ، ص ١٨ و ١٨ مايو ١٨٠٢م ، ص ١٩ .

١٠ - لوريمر ، دليل الخليج (٥) المجلد الأول جزء ١ ( أ ) ص ٤٢٢ .

١١ - على سبيل المثال ، رسالة رقم ٢٠٠ من تيبو سلطان إلى وكيله مير قاسم في مسقط ، ١٢ يناير ١٧٨٦م ، في وليام كرك باتريك ، الرسائل المنتخبة لتيبو سلطان ( لندن ) ١٨١١ ، ص ٢٣١ - ٣٤ وفي هذه الرسالة يطلب تيبو من وكيله أن يشتري اللؤلؤ لـ ١٠٠٠٠ روبية إما في مسقط وإما في البحرين أينما كانت أرخص .

١٢ - يوجد بحث عن تجارة اللؤلؤ في جيه - سي - ولكنسون ، " الماء والمستوطنات القبلية في جنوب شرق الجزيرة العربية " أكسفورد ١٩٧٧م ص ٢٠ - ٢٥ ، أنظر أيضاً لوريمر (٥) أ ( الجزء الثاني ) الملحق ج .

١٣ - مرسي عبد الله " السلالة السعودية الأولى وعمان ١٧٩٥ - ١٨١٨م " في الدراسات العربية (٤) ١٩٧٠ ص ٣٧ ، أنظر كتابه إمارات الساحل - ص ١٨٨ .

١٤ - آني أو آر ، بي بي إس بي ، رينج ٣٨١ ، (٥) ٤٨ ، سيتون إلى بومباي ٥ سبتمبر ١٨٩٣م ، ص ٦٥٢٣ .

١٥ - ثاني علي بشير " دراسة حكم آل خليفة في البحرين ١٧٨٣ - ١٨٢٠ " أطروحة غير مطبوعة لدرجة ماجستير ، جامعة ماك جل ، ١٩٧٩م ص ٥٥ - ٥٦ .

١٦ - هذا يوافق التعليقات العامة لـ آر - جي - لاندن ، عمان منذ ١٨٥٦ ( برنستون ، ١٩٦٧ ) ص ٦٢ و مرسي عبد الله ، إمارات الساحل ، ص ١٨٨ و ١٩٣ .

١٧ - كان المبرر لدفع الجمرك أن السيد سلطان بن أحمد " حرَّر الخليج من الغزاة " ( آي أو آر - بي بي إس بي رينج ٣٨١ في ٢٠ ، سيتون إلى بومباي، ١٢ مارس ١٨٠١م ، ص ١٠٢١ - ٢٢) ولكن في الحقيقة أنه استأجر غزاة لتنفيذ دفع الجمارك .

١٨ - قبل حملة ١٨٠١م تشاجر السودان مع السيد سلطان حول حجز البضائع الإنجليزية التي دخلت إلى الخليج . وبناء على إصرار بومباي طرد سيد سلطان السودان من هرمز الذين استوطنوا قطر وتحالفوا مع السلفيين أنظر آ ئ أو آر ، بي بي إس بي رينج ٣٨١ - ٥ (٢٥) سيتون إلى بومباي ، ٢٠ يوليو ١٨٠١م ، ص ٤٩٦٧ و ٤٩٧٠ ، وانظر أيضاً محضر جلسة مجلس بومباي لـ ١٤ أغسطس ١٨٠١ ، نفس المصدر ، ص ٥٠٠٠ - ٥٠ . إن طرد السودان خفّض حدة مسألة الجمرك وجعل جمع الضريبة أكثر صعوبة .

١٩ - يوجد بحث شامل عن تحويل تجارة النقل والشحن في أطروحة لـبي ريسو (دوبوسون) " تاريخ مسقط وعمان ١٧٥٠ - ١٨٠٠م " غير مطبوعة ، للدكتوراه في جامعة ماك جل ، ١٩٨٢ ، الفصل الخامس نافست مسقط التجار الهنود البريطانيين بالنجاح . أنظر نفس المصدر الفصل العاشر .

٢٠ - " تقرير حول التجارة في الخليج " لـ جون مالكولم ، ١٨٠٠ ، آي أو آر مكتبة الرسائل السياسية والسرية . ( إل/ بي انداس/ ٢٠ ) ٥ - ٢٢٧ سي ، الملحق "ح" فقرة ٣٠ وحسب تقديرات مالكولم أن حجم المبلغ الذي مرَّ بمسقط تجارياً كان عشرة ملايين روبية ( أنظر فقرة ٣٩ ) .

٢١ - تقرير مالكولم - فقرة ٤٦ - أنظر أيضاً " تقرير عن تجارة الجزيرة العربية " لـ ساموبل مانستي وهارفورد جونس ، ١٧٩٠ في " آي أو آر فاكتوري ريكوردس " - "إيران والخليج" ، ( جي/ ٢٩ (٥) - ٢٥ ) ، ص ٢٠٠ - ٢٨٩ .

٢٢ - تقرير مالكولم - فقرة ٣٦ .

٢٣ - آي أو آر ( بي بي إس بي ) رينج ٣٨١ ، (٥) ٣٣ ، سيتون إلى بومباي ، ٩ يوليو ١٨٠٢م ، ص ٣٦١١ .

٢٤ - نفس المصدر ، ص ٣٦٢٢ .

٢٥ - النبهاني ، التحفة النبهانية ، ١٣١ - ٣٢ .

٢٦ - أنظر كلاً من النبهاني وابن رزيق ولوريمر بالنسبة إلى التورط البريطاني في الشئون البحرينية والعمانية خلال القرن التاسع عشر . أنظر أيضاً جيه بي كيلي . " بريطانيا والخليج ١٧٩٨ - ١٨٨٠م " ( أكسفورد ١٩٦٨م ) .

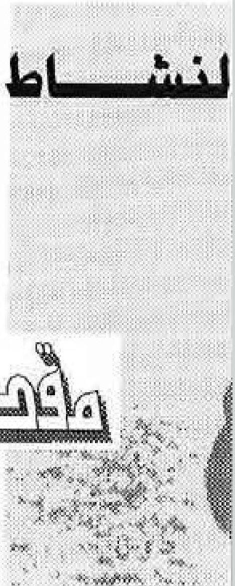
# صورة من صور النشاط



# التبشير في الخليج

## لنشـــــاط الإرســـاليــات الأمـــــريكيــة

إعداد : **الدكتورة فاطمة حسن الصايغ**



### مقدمة

" عندما تتفحص خارطة الخليج فستلاحظ وجود قطعة أرض كبيرة تظهر على هيئة لسان في منتصف الخليج تقريباً هي شبه جزيرة قطر ، ولكن عندما تسأل عنها أعضاء الإرسالية الأمريكية في أي مكان ، فستكتشف كأنما هي قارة لم تطأها أقدام المكتشفين بعد ! " . هذه هي قطر في كتابات المبشرين التابعين للإرسالية الأمريكية ( التابعة للكنيسة الإصلاحية الأمريكية ) والتي تأسست عام ١٨٨٩م ، ووضعت لها هدفاً رئيسياً هو الوصول إلى قلب الجزيرة العربية والعمل على إقامة كنيسة المسيح الكبرى هناك . فطوال العقد الأخير من القرن التاسع عشر كان رجال الإرسالية يجوبون مدن وقرى الخليج العربي من الكويت وحتى رأس مسندم ، ولكن أبواب قطر ظلت موصدة في وجوههم . وترجع أسباب عزلة قطر إلى وجود الحكم العثماني التركي الذي رفض السماح بدخول أي أجنبي إلى شبه جزيرة قطر ، وعلى وجه الخصوص الغربيين .

وعلى الرغم من موقف الأتراك العدائي تجاه الغربيين عامة ورجال الإرسالية خاصة ، إلا أن روح المغامرة والمجازفة غلبت على رجال الإرسالية ، فحاولوا الدخول إلى قطر عام ١٩١٥م . فقد بدأت محاولات اكتشاف تلك " القارة " كإغراء قوي صعب على رجال الإرسالية تحمله ، خاصة وأن قطر تقع على بعد مرمى البصر من البحرين ، وهي محطة رئيسية للإرسالية في الخليج . وبدأ أطباء الإرسالية يعدون العدة ويضعون الخطط ، خاصة وأن تلك الرحلة لن تكلفهم في تلك الفترة إلا بضع مئات من الروبيات وحقيبة دواء . وبالفعل امتطى الدكتور بول هاريسون Paul Harrison وأحد مساعديه سفينة أقلتهم من البحرين إلى سواحل قطر ، التي يبدو أن أهلها والحامية التركية قد تسامعوا بخبر وصول هؤلاء الغرباء ، فتجمهروا على البحر لرؤيتهم . وما إن وصل الفريق التابع للإرسالية حتى كان حوالي خمسين جندياً من الحامية التركية في انتظارهم ، وقد فشل الفريق الأمريكي بعد محاولات يائسة في النزول إلى قطر وعاد أدراجه إلى البحرين ، حيث كانت تلك هي أول محاولة لزيارة قطر من قبل الإرسالية . وعلى الرغم من الفشل الذريع الذي منيت به ، إلا أن ذلك لم يقلل من عزم رجال الإرسالية الذين سرعان ما استغلوا ظروف الحرب العالمية الأولى لمعاودة الاتصال بقطر من جديد .

وبالفعل نجح الفريق الطبي التابع للإرسالية في زيارة قطر في عام ١٩١٨م والإقامة فيها فترة من الزمن ، تعرفوا خلالها على طبائع وعادات الناس واحتياجاتهم الفعلية من الخدمات الطبية الحديثة ، التي كانت تفتقر قطر وقراها إليها في تلك الفترة . وتكررت زيارات أطباء ورجال الإرسالية لقطر في فترة ما بين الحربين مستغلين حاجة الأهالي للخدمة الطبية الحديثة من ناحية ، وعدم وجود الوعي الكامل لدى الأهالي لأهدافهم الحقيقية من ناحية أخرى ، حيث كان العلاج عادة ما يبدأ بالصلوات الدينية وقراءات من الكتاب المقدس . لذا فقد كانت حاجة الأهالي للخدمة العلاجية المتطورة هي التي أدت إلى استمرارية عمل الإرساليات .

عملت الإرساليات الأمريكية حوالي ثلاثة عقود في تقديم الخدمة العلاجية للأهالي عن طريق زيارات منفردة قام بها أفرادها لقطر . إلى أن قام شيخ قطر ، عبد الله بن جاسم آل ثاني ( ١٩١٣ - ١٩٤٩م ) عام ١٩٤٧م ببناء أول مستشفى في قطر . حيث طلب

المساعدة من أطباء الإرسالية في تسيير شئون المستشفى الذي اعتبر أول مستشفى حديث في قطر . وعلى الرغم من وجود هذا المستشفى ، إلا أن عمل أطباء الإرسالية ظل مستمراً حتى عام ١٩٥٢م مستغلين حاجة المستشفى لوجود كادر مؤهل ، وفي ذلك العام تم إغلاق المستشفى الأمريكي في قطر نظراً لنقص الإمكانيات المادية وعدم تحقيق هذه الإرساليات لهدفها الأول وهو التنصير .

كانت كتابات المبشرين عن قطر طوال الفترة التي عملوا فيها في المنطقة تنضح بالأمل ، فقد اعتبرت قطر حقلاً بكراً يمكنهم من زرع أفكارهم خاصة وأنها أبدت ترحيباً بأطباء الإرسالية ، الأمر الذي اعتبر ترحيباً بممثلي الإرسالية البروتستينية في قطر . وعلى الرغم من النتائج الفاشلة التي حظي بها النشاط التبشيري في دول الخليج الأخرى ، إلا أن الأمل كان لا يزال حياً في أذهان رجال الإرسالية الأمريكية في إمكانية نجاحهم في قطر . ولكن النشاط التبشيري في قطر لاقى نفس مصير النشاط التبشيري في مناطق الخليج الأخرى . فقد رحب السكان بالخدمة العلاجية ورفضوا الجانب الديني المرتبط بعمل الإرساليات ، وانتصرت المبادئ العميقة لهؤلاء السكان البسطاء على التقنية الغربية الحديثة .

لذا فهذه الدراسة هي محاولة لدراسة المحاولات التنصيرية الأمريكية في قطر وتحليل أسباب فشلها . وقد اعتمدت هذه الدراسة على الوثائق الأمريكية غير المنشورة والمحفوظة في مكتب الإرسالية الأمريكية في نيو برونزويك في نيوجرسي بالولايات المتحدة الأمريكية New Brunswick, N.J. وعلى الوثائق المحفوظة في مكتبة اللاهوت في جامعة جورج تاون الأمريكية بواشنطن Wood Stock Theological Library . بالإضافة إلى ذلك فقد شكلت تقارير أعضاء الإرسالية إلى مقرها في نيو برونزويك والتي نشرت جميعها في مجلتهم الدورية المعروفة باسم **"الجزيرة العربية المنسية"** Neglected Arabia **"والجزيرة العربية تناديكم"** Arabia Calling مصدراً لاغنى عنه لأي باحث في أعمال الإرسالية الأمريكية . كما شكلت مذكرات أعضاء البعثة الأمريكية في الخليج مصدراً مهماً في معرفة الأوضاع السائدة ، حيث وصفوا تلك الأوضاع بدقة متناهية . لذلك جاءت مذكرات كورنيلا دالنبيرج وبول هاريسون وهارولد

والأحساء والكويت والبصرة انطلاقاً من قواعدهم فيها ، مستخدمين وسائلهم التنصيرية المتعارف عليها وهي تقديم الخدمات الطبية الحديثة مغلفة برداء التنصير . وما إن أوشك العقد الأول من القرن العشرين على الانتهاء حتى كان المبشرون قد جابوا معظم أراضي الخليج وشبه الجزيرة غير عابئين بالمعارضة التي أبداها السكان ولا بالظروف الطبيعية السيئة من حر وجفاف ومعارضة في بعض المناطق من السلطات التركية الحاكمة .

ولم تكن قطر - على الرغم من عزلتها - بعيدة عن أذهان المنصرين الذين اعتبروها جزءاً من "الجزيرة العربية المنسية" Neglected Arabia، ووجهوا حملاتهم نحوها أملاً في إدخالها ضمن نطاق نشاطهم الدائم . ولقد كانت معلومات المبشرين عن قطر معلومات مبعثرة ، فلم يزورها أي أمريكي قبل زيارة الرحالة الإنجليزي وليم بلجريف الذي زارها في منتصف القرن التاسع عشر وكتب عنها واصفاً إياها بالمكان البائس الذي لا يصلح لشيء إلا للموت[1] .

ولكن تلك الظروف لم تكن عقبة في وجه رجال الإرسالية الذين عقدوا العزم على اختراق أي منطقة حتى لو كلفهم ذلك حياتهم . فقد كان لديهم اقتناع تام بأنهم يعملون لخدمة رسالة المسيح وأن أي تضحية إنما هي تضحية مقدسة من أجل الهدف الأكبر ، ألا وهو استرداد شبه الجزيرة العربية وإنشاء كنيسة المسيح الكبرى هناك .

كانت الظروف السياسية في قطر مختلفة عن مثيلاتها في مناطق الخليج الأخرى . فبينما كانت دول الخليج تتشابه في كونها اعتبرت في تلك الفترة " **إمارات مستقلة تحت الحماية البريطانية** " ، كانت قطر خاضعة للنفوذ التركي العثماني الذي امتد إلى قطر من الأحساء بعد حملة مدحت باشا الشهيرة عام ١٨٧١م . وخلال فترة حكم الشيخ جاسم آل ثاني (١٨٧٦ - ١٩١٣م) تأصل النفوذ التركي وتم الاعتراف بالشيخ جاسم قائمقاما للسلطان العثماني في قطر ، وازداد ارتباط قطر بإقليم الأحساء . وقد وصف لوريمر الشيخ جاسم بأنه واحد من السلفيين الأوائل في قطر وأنه قد أصبح حنبلياً ، وهو - في الواقع - ما كان يطلق على السلفيين[2] .

حتى الثلاثينيات من القرن العشرين كانت اقتصاديات قطر ، كغيرها من مناطق الخليج الأخرى ، تعتمد اعتماداً رئيسياً على صيد اللؤلؤ . وقد اعتمد عدد كبير من أهالي قطر على هذه الحرفة ، وفي بداية القرن العشرين كان حوالي نصف سكان قطر يعملون في هذه المهنة - كما أورد لوريمر في كتابه " دليل الخليج " . لذا فقد خضع السكان لظروف هذه المهنة من تذبذبات ، صعوداً وهبوطاً ، طبقاً للطلب العالمي على اللؤلؤ . ومن الناحية الاجتماعية فقد سكنت قطر قبائل متعددة ، أهمها المعاضيد التي تنتسب إليها أسرة آل ثاني ، وآل بوكوارة والمنانعة وآلبوعنين وغيرهم . ومارست هذه القبائل حرفة صيد اللؤلؤ والرعي الذي وفر للسكان قوتهم اليومي . وعلى الرغم من ذلك فقد عاش معظم سكان قطر تحت مستوى خط الفقر . فقد كانت الأوضاع المعيشية والصحية ، وكانت الأمراض والأوبئة والأمية منتشرة ، مما أدى إلى تهيئة الفرصة لدخول الإرساليات الأمريكية إلى المنطقة ، مغلفة برداء الخدمات الصحية .

ظلت قطر حتى الحرب العالمية الأولى تمثل عقبة للمبشرين يصعب اجتيازها . ولكن اندلاع الحرب العالمية عام ١٩١٤م أدى إلى الكثير من المتغيرات أهمها هزيمة الدولة العثمانية وانتهاء النفوذ التركي من إقليم الأحساء وقطر . كما أدت الحرب إلى ظهور الكثير من المناطق المستقلة وشبه المستقلة ، وأصبح جزء كبير من منطقة الخليج العربي تحت الحماية البريطانية ، حيث أسفرت تلك الأوضاع عن نتائج سياسية استغلت لصالح عمل الإرساليات التبشيرية التي كانت تمارس عملها تحت الغطاء الذي كانت توفره لها السلطات البريطانية بوصفها هيئات بروتستينية . وما إن انتهت الحرب حتى عادت الإرسالية في التخطيط لاختراق قطر ، ذلك الإقليم الذي وقف رجال الإرسالية حائرين أمام أبوابه .

وكانت المحاولة الأولى لرجال الإرسالية الأمريكية للنزول في قطر خلال فترة الحرب العالمية وعلى ما يبدو في عام ١٩١٥م ، عندما حاول الطبيب المبشر بول هاريسون دخول قطر عن طريق البحر قادماً من البحرين . وقد استطاع وبصعوبة شديدة الحصول على

إذن بالنزول في الميناء ، ولكن بعد دقائق قليلة من نزوله ، أجبرته السلطات التركية - وكما يقول " **بفظاظة وخشونة** " - على الرجوع بسرعة إلى السفينة والعودة إلى البحرين في الحال[٣] .

على الرغم من فشل المحاولة الأولى للنزول إلى قطر ، إلا أن الأمل لم ينقطع باكتشاف تلك " **القارة الغريبة التي لم تطأها أقدام المبشرين بعد** " ، خاصة وأن قربها من البحرين - المحطة الرئيسية ومركز الإرسالية الضاج بالحركة - جعلها قريبة من أنظار رواد الحركة التبشيرية في الخليج . وكما سبق وأن ذكرنا ، فقد خلفت الحرب العالمية الأولى الجو المناسب لعمل الإرساليات ، حيث أسفرت الحرب عن هزيمة الدولة العثمانية وتقلص دورها وانسحابها من منطقة الخليج وشبه الجزيرة وتأكيد النفوذ البريطاني الذي وفر الحماية والجو النفسي لعمل الإرساليات وفتح أبواب قطر الموصدة أمام رجال الإرساليات .

# ثانياً : المحاولات التبشيرية في قطر
# في فترة ما بين الحربين ١٩١٨ - ١٩٣٩م

ظلت أبواب قطر موصدة أمام النشاط التبشيري حتى وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها . فقد أسفرت نتائج الحرب عن هزيمة الأتراك وتأكيد النفوذ الإنجليزي في شبه جزيرة قطر . ففي عام ١٩١٦م عقدت بريطانيا مع قطر معاهدة ١٩١٦م التي وضعت قطر - رسمياً - تحت الحماية البريطانية ، وأصبح اتصال المبشرين البروتستانت بقطر أكثر سهولة من ذي قبل . ففي أغسطس ١٩١٨م تلقى الدكتور بول هاريسون دعوة شخصية من الشيخ عبد الله بن جاسم آل ثاني ، حاكم قطر ، يطلب منه التوجه إلى العاصمة الدوحة في أقرب وقت لتقديم العلاج لأسرته .

وجدت الإرسالية الأمريكية في هذه الدعوة الفرصة الذهبية التي طالما تمنتها . وهكذا حزم الطبيب بول هاريسون ومرافقه الأسقف ج. بننجس Gerrit Pennings أمتعتهما متوجهين إلى الدوحة . وقد تعمد هذا الطبيب - كما سيفعل كافة الأطباء من بعده - على أن يرافقه قسيس من الكنيسة في رحلته كشرط لإتمام تلك الرحلة . وقد أبحر الفريق من ميناء المنامة ووصل بالفعل إلى الدوحة في أول اتصال بين قطر ورجال الإرسالية الأمريكية وقد وصف بننجس قطر في تقاريره قائلاً " **عندما تتفحص خارطة الخليج فستلاحظ وجود قطعة كبيرة تظهر على هيئة لسان في منتصف الخليج تقريباً هي شبه جزيرة قطر ، ولكن عندما تسأل عنها أعضاء الإرسالية الأمريكية في أي مكان فستكتشف أنها قارة لم تطأها أقدام المكتشفين من المبشرين بعد** "[(٤)] .

وصل الفريق إلى قطر بعد حوالي ٢٤ ساعة من الإبحار ، قطع خلالها المسافة التي تقدر بحوالي ١٠٠ ميل تقريباً ، وهي الفاصلة بين قطر وجزيرة البحرين . وعند الشاطئ " **بدت لنا هذه القارة المدهشة بشكل كبير . . . ففي وسط الصحراء الفاصلة والخالية من الأشجار أو حتى الأعشاب البرية تقع**

الدوحة فقد وصفه المبشرون بأنه " **يحتوي على حوالي ٢٠٠ دكان ، وهو مكان مزدحم جداً ، لا يزود سكان المدينة باحتياجاتهم فقط ، بل يأتي إليه سكان القرى وآلاف البدو لشراء مخزونهم السنوي من المؤن والاحتياجات** "(٩) .

وعلى الرغم من أن الهدف الرئيسي من دعوة الدكتور بول هاريسون هو تقديم العلاج الطبي لأهالي قطر ، إلا أن الفريق استغل تلك الزيارة لدراسة الأوضاع تمهيداً لنشاطهم التنصيري ، ولكن يبدو أن أهالي قطر كانوا قد أدركوا حقيقة الأغراض المبطنة للفريق . فقد كتب القس بننجس قائلاً : " **بسرعة يمكن اكتشاف أن الدوحة بارعة جداً في إغلاق نفسها عن بقية العالم . . . وبسبب التعصب الديني الذي وجدناه في المدينة ، فقد كنت أتوقع أن مرافقة قس مثلي للدكتور بول هاريسون والتي لم تكن مشمولة في دعوة الشيخ – طبعاً – لن تلقى ترحيباً ، إلا أنني وجدت الاستقبال عادياً لي رغم شعورهم بعدم الرضى من وجودي** "(١٠) .

بدأ الفريق عمله في استقبال المرضى حالما انتهى رجال الشيخ من تجهيز المكان المخصص للمستوصف . وكما أورد بننجس في تقريره ، فقد بدأوا في استقبال حشود من المرضى على الرغم من أنها الزيارة الأولى لهم لقطر ، مما يعكس " **سمعة الإرسالية الأمريكية الطبية في جميع مدن الخليج** "(١١) ووصل عدد المرضى الذين تم علاجهم في المستشفى إلى أكثر من مائة مريض في اليوم .

ظل الفريق يعمل في الدوحة حوالي عشرة أيام حتى اقترب موعد شهر رمضان ، حيث عاد جميع الغواصين في أواخر شهر شعبان من البحر تمهيدا لبدء شهر الصوم ، وعلى الرغم من أن عمل مستشفيات الإرسالية عادة ما يشهد تضاؤلاً في عدد المترددين خلال شهر رمضان ، إلا أن هذا المستشفى – كما أورد القس – بدأ فجأة بالعمل كخلية نحل " **بسبب الحشود الضخمة التي جاءت إلينا من كل مكان وأكثرهم من الغواصين طبعاً** "(١٢) . وعلى الرغم من هذا النجاح الكبير الذي لاقاه عمل المستشفى ، إلا أن الطبيب اكتشف فجأة أن الأدوية التي سيعطيها للمرضى في أيام رمضان القادمة ستجعلهم يفطرون في النهار ، وهذا – **كما اعترف** – يسبب لهم مشكلات دينية كبيرة .

ولذلك فإن إقامتهم في بلاد جديدة وخلال شهر رمضان بالذات لن يكون مناسباً على الإطلاق . وهكذا زاروا الشيخ وطلبوا منه الإذن بالسفر مبررين مغادرتهم بعدم رغبتهم بالعمل في شهر رمضان ، حيث يرفض الناس أخذ الدواء . وفي الواقع فإن سبب مغادرتهم هو انصراف الناس عن دعوتهم التبشيرية ، خاصة وأن العلاج الطبي يبدأ دائماً بالصلوات الدينية التي يرفض الأهالي سماعها . وهكذا ، وقبل حلول شهر رمضان كان الفريق الطبي يحزم أمتعته في طريقه للبحرين . وكما أورد المبشرون في تقريرهم ، فقد أدت الظروف الجوية السيئة التي واجهت الفريق الطبي إلى عودتهم مرة أخرى إلى أقرب نقطة في قطر ، حيث نزلوا في ضيافة شيخ قطر وشاركوه في تناول وجبة الإفطار الرمضاني ، حيث كان ذلك هو أول يوم من أيام شهر رمضان . وفي صباح اليوم التالي غادر الفريق قطر وسط رياح شمالية أجبرتهم مرة أخرى على العودة للساحل القطري ، حيث وصلوا إلى قرية "الرويس" التي تحتوي على ٢٠٠ بيت تقريباً . وفي القرية استقبلهم شيخها بود ، وشاركوه أيضاً تناول الإفطار الرمضاني . وبالرغم من هذا التأخير الطويل في مغادرة الدوحة إلا أن الفريق اعترف بأنه حصل على فرصة ذهبية لزيارة بعض القرى والمدن القطرية ومعرفة طبائع الناس وعاداتهم خلال شهر رمضان . وأخيراً ففي فجر الثالث من رمضان تمكن الفريق من الحصول على سفينة أقلتهم إلى البحرين .

اعتبر رجال الإرسالية رحلتهم الأولى إلى قطر "نزهة جميلة" واعتبروا أنفسهم بأنهم كالسندباد الذي نسي مشاق رحلاته ، واعتبروها عوائق بسيطة أمام تلك الرحلة الجميلة . والظاهر أن الاستقبال الودي الذي قوبل به رجال الإرسالية من قبل الشيخ ومن قبل الأهالي شجع أطباء الإرسالية على التفكير في العودة مرة أخرى لقطر فقد وجدوا الحل لفتح كافة الأبواب الموصدة في وجوههم ، ألا وهو استخدام العلاج الطبي كوسيلة لفتح كافة الأبواب وهو المفتاح السحري القادر على فتح كافة الأبواب والقلوب المغلقة .

كانت الزيارة الأولى زيارة ناجحة حسب مقاييس الإرسالية الأمريكية . فقد تم استقبالهم بود ، الأمر الذي أنساهم مرارة الفشل في محاولاتهم الأولى

عام ١٩١٥م ، والذكرى الوحيدة الباقية لذلك الفشل - **كما أوردوه في تقاريرهم** - هي وجود بعض المدافع التركية القديمة أمام قصر الحاكم ، والتي تمثل بقايا الوجود التركي . والفرق الوحيد - كما ذكر بول هاريسون - بين الزيارتين هو " **وجود جنود من حلفائنا الإنجليز الذين قدموا لنا كل المساعدة وخاصة في التجول في البلد بسياراتهم الفورد** "(١٣).

لقد شجع هذا النجاح أطباء الإرسالية الأمريكية على تكرار زيارتهم لقطر ، بل وعلى إنشاء مستشفى دائم يكون مقراً لهم ، خاصة وأن قطر كانت تفتقر لوجود مثل هذا المستشفى . وقد وعد الحاكم بإنشاء مستشفى صغير يضم عشرين سريراً ، يعالج الرجال في الصباح والنساء في المساء .

خلال سنوات العشرينات والثلاثينات لم تنقطع علاقة أفراد الإرسالية الأمريكية بقطر . فعلى ما يبدو فقد كانت الحاجة ماسة إلى تواجد الأطباء والمرضين ، بل كان يحدث في بعض الأحيان أن يحزم الأطباء الأمريكيون حقائبهم متوجهين إلى قطر دون دعوة ، إذا ما أحسوا أنهم ابتعدوا قليلاً عن هذا الحقل الذي يمثل لهم حقلاً بكراً من حقول التنصير . وكما تقول المبشرة والمرضة كورنيلا دالنبيرج Cornila Dalenburg والمشهورة بين العرب باسم " **شريفة الأمريكانية** " - التي زارت قطر عدة مرات - في مذكراتها بأنهم في كثير من الأحيان يحزمون حقائبهم من دون أي دعوة متوجهين إلى القرى ومقدمين خدماتهم دون أن يطلب الأهالي منهم ذلك(١٤) . بل وفي أحيان كثيرة كان المبشرون يقومون - **بدافع من أنفسهم** - بزيارات إلى القرى رغبة منهم في تقديم خدماتهم للناس والتعريف بعملهم كما تقول المبشرة كورنيلا دالنبيرج(١٥) . وخلال هذه الفترة قام الطبيب ستورم وزوجته والدكتور بول هاريسون ، بالإضافة إلى كورنيلا بعدة رحلات طبية لتقديم الخدمة الطبية ودراسة الأوضاع في شبه جزيرة قطر .

ففي بداية العشرينات بدا للمبشرين أن الأوضاع في قطر تتطلب وجود طبيب مقيم ، حيث كان الكثيرون من المرضى يأتون إلى مستشفى الإرسالية في البحرين . فقد كتب الدكتور لويس ديم في تقريره عام ١٩٢٣م إلى مقر الإرسالية

يصف المرضى القطريين قائلاً : " **إنهم يشبهون إلى حد ما سكان ساحل الإمارات فهم يعتدُّون بأنفسهم ولا يوجد على ظهر الأرض أناس أكثر اعتداداً بأنفسهم من سكان قطر** "(١٦) .

ظلت قطر طوال العشرينات مفتوحة أمام أطباء الإرسالية الأمريكية . ففي يوليو ١٩٢٣م أبحر الأسقف جريت بننجس G. Bennings ومرافقوه من البحرين إلى الدوحة في زيارة تبشيرية طبية . ويصف الأسقف بننجس رحلته تلك بأنها رحلة مهمة ورخيصة الثمن لم تكلفه سوى روبيتين هنديتين لرحلة قد تمتد يوماً واحداً أو أسبوعاً ، اعتماداً على سرعة الريح ، يقطعون خلالها مسافة تبلغ ١٠٠ ميل ، هي المسافة بين البحرين وقطر . ويصف بننجس رحلته تلك بأنه ركب سفينة اجتمع فيها أناس من مختلف الأجناس ، معظمهم من فارس والبعض الآخر من عمان والهند وبلوشستان وقلب الجزيرة العربية . **هذا الخليط - كما يقول بننجس** - يعكس مجتمع الدوحة . ويرى بننجس أنه من المستحيل - **مع هذا الخليط البشري** - أن تكون هناك " **وحدة شعور وفكر** "(١٧) . ومن الواضح هنا أن الأسقف بننجس كان قلقاً على نتائج عمله في قطر وسط هذا الخليط البشري .

خلال العشرينات والثلاثينات ظلت قطر على اتصال دائم مع أعضاء البعثة الأمريكية في البحرين . فلم تكن تمضي سنة واحدة دون زيارة يقوم بها كل من الدكتور ستورم أو هاريسون أو ديم أو شاندي أو كورنيلا دالنبيرج أو الدكتور تومس . وقد شجع شيخ قطر -آنذاك - الشيخ عبد الله آل ثاني - الذي كون علاقات وطيدة مع أطباء الإرسالية - زيارات الأطباء تلك ، لتقديم الخدمة الطبية لرعاياه ، بل كان يستضيفهم أحياناً كثيرة في قصره " **الريان** "(١٨) . وقد شجعت تلك العلاقة أطباء الإرسالية على معاودة اتصالهم بقطر ، خاصة بعد أن أدركوا تأثير الخدمة الطبية في فتح الأبواب المغلقة ، فإرسال أسقف - **مثلا** - لن يجذب الأهالي لسماع صلواته وأقواله كما كان الأهالي ينجذبون نحو الطبيب المعالج . والواقع أن تلك الوسيلة كانت أسلوباً متبعاً في جميع مناطق شبه الجزيرة العربية ؛ حيث يتعمق الإسلام ولا يجد البشرون وسيلة أخرى للنفاذ لتلك المجتمعات سوى الخدمات الطبية .

ومن ناحية أخرى ، فقد كانت الإدارة العامة للإرسالية في الولايات المتحدة وأتباع تلك الإرسالية ، بالإضافة إلى المتبرعين بالأموال ، في شوق لسماع ومعرفة المزيد من الأخبار عن زيارات جديدة لمناطق لم تزرها الإرساليات من قبل ، بالإضافة إلى التأكيد على أهمية الإبقاء على صلة دائمة مع الأراضي التي دخلتها الإرساليات كساحل الإمارات وقطر . فقد كان لدى أفراد تلك الإرساليات قناعة تامة بأنه " **طالما تم بذر البذور في منطقة ما ، فلابد لهذه البذور أن تؤتي ثمارها** "[١٩] .

وطوال فترة الثلاثينات ، استمرت العلاقة قائمة بين أفراد الإرسالية الأمريكية وقطر . فقد قام طبيب الإرسالية هارولد ستورم- مثلاً – في عام ١٩٣٨م بزيارة لقطر استمرت حوالي أسبوعين . وكما ذكر أطباء الإرسالية بأنه كان من الممكن لهذه الزيارة أن تستمر لفترة أطول لولا النقص الحاد في الأطباء[٢٠] . فالترحيب الذي كانت تلاقيه الخدمات الطبية شجع الإرسالية وأطباءها على الإبقاء على صلة دائمة مع هذه المنطقة .

من الواضح أن قطر كانت إحدى المناطق التي استأثرت باهتمام الإرسالية منذ أن وطأتها أقدام مبشريها في أيام الحرب العالمية الأولى وحتى مرحلة ماقبل الحرب العالمية الثانية . ولم يفت في عضد المبشرين فشل مهمتهم الدينية ، وعدم وجود صدى بين الأهالي لرسالتهم تلك . فقد كان لديهم اقتناع تام بأنهم لابد وأن يجنوا ثمرة جهودهم عاجلاً أم آجلاً .

لذا ، فإن هذه العقبات – وفيما بعد اندلاع الحرب العالمية الثانية – لم تؤثر على جهود الإرسالية في اقتحام هذا الجزء من "الجزيرة العربية المنسية" ، بل تحمست الإرسالية للعمل أكثر وشجعت فكرة إقامة مستشفى دائم ليكون مقراً لعملياتها المقبلة .

# ثالثاً : النشاط التبشيري الأمريكي في الفترة ما بين ١٩٣٩ - ١٩٥٣

على الرغم من تقلص الخدمات الطبية للمبشرين الأمريكيين خلال الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥م) ، بسبب تقلص العون المادي والبشري الذي كانت تتلقاه الإرساليات الأمريكية في مناطق الخليج ، إلا أن ذلك لم يؤثر على الدعم المعنوي الذي كان يقدم إلى هذه الإرساليات . فعلى الرغم من المصاعب التي كانت تواجه عمل هذه الإرساليات ، والمتمثلة في النقص الحاد في الأدوية والمعدات الطبية التي كانت تصل إلى الخليج ، والنقص في عدد الأطباء ، إلا أن هذه الإرساليات استمرت في عملها معتمدة على الخبرات القليلة التي كانت تتواجد لديها ، وعلى الرغبة الأكيدة والقناعة التامة لدى أفراد الإرسالية في تقديم خدماتهم رغبة منهم في خدمة المسيح . فالحرب - كما يقول الدكتور بول هاريسون - قد قربتنا إلى الناس ، وأصبحنا نحس ونشعر بآلامهم أكثر . بالإضافة إلى ذلك ، فقد ارتفعت أعداد المرضى الذين يأتون لنا في المستشفيات حتى أصبح مستشفانا في البحرين قبلة لهم ، فقد أصبح يستقبل حوالي ٢٧٠ مريضاً في آن واحد مما سبب لنا ضغطاً كبيراً[٢١] لكن الإرسالية استغلت أحلك ساعات الألم لتحقيق أهدافها . فكما يقول هاريسون " **نأمل أن يحقق لنا هذا الجمع في المستشفى ما نأمل به وهو نشر كلمة المسيح . فالمستشفى المزدحم القذر أفضل من المستشفى النظيف الخالي من الناس لتحقيق أهدافنا وهي نشر كلمة المسيح**"[٢٢] . لهذا لم يكن أمام أطباء الإرسالية إلا طلب المزيد من العون من الولايات المتحدة أو حتى من السلطات البريطانية في الخليج ، وذلك بطلب المزيد من الأدوية والأسِرَّة والمعدات الطبية لتلبية الضغط عليهم من المرضى في الخليج والقادمين إليهم من شتى الأنحاء .

لم تكن قطر في تلك الفترة بمعزل عما يدور في الخليج العربي . فقد كان القطريون المحتاجون لتلقي العلاج أو الجراحة يسافرون إلى البحرين أو مسقط أو البصرة في سبيل الخدمة العلاجية المتطورة . وقد أراد الشيخ مساعدة رعاياه بتوفير هذه الخدمة في قطر نفسها .

ففي عام ١٩٤٠م تقدم الشيخ عبد الله بن جاسم آل ثاني بطلب إلى شركة الامتيازات البترولية القطرية Petroleum Concessions Ltd. (Qatar) يطلب منها إرسال طبيبة لمعالجة رعاياه من النساء . وتم تحويل الطلب إلى الدكتور هارولد ستورم Harold Storm في إرسالية البحرين الأمريكية ، الذي أخبرهم بدوره بعدم وجود طبيبة في ذلك الوقت ، ولكنه مستعد لإرسال ممرضة ، حيث وقع الاختيار على الممرضة كورنيلا دالنبيرج ، المعروفة في أوساط النساء العرب باسم "**شريفة الأمريكانية**" . ورضي الشيخ بالبديل ، واستعدت كورنيلا أو شريفة لمغادرة البحرين إلى قطر ، بعد أن حصلت من الوكيل السياسي البريطاني في البحرين على تصريح بالسفر . وأبحر الفريق المكون من الممرضة ومساعدتين عربيتين إلى الدوحة ليبدأوا بذلك أول رحلة تبشيرية نسائية إلى قطر . وقد استغرق سفر الفريق بحراً حوالي ٦ - ٧ ساعات . وتصف كورنيلا قطر في تلك الرحلة بأنها صحراء جرداء ليس بها أي زراعة على الرغم من الروايات التي كانت تسمعها عن وجود خضرة في قطر خلال فصل الشتاء . كما وصفت كورنيلا الدوحة بأنها مدينة غير مسورة ، وتبدو للناظر إليها من الخارج صغيرة نسبياً ، ويبلغ عدد سكانها حوالي ٧ - ١٠ آلاف نسمة . ومضت كورنيلا تصف رحلتها تلك " **وعند وصولنا إلى المدينة نفسها تم أخذنا إلى منزل درويش فخرو ، وقد استقبلنا رب وربة الدار بالضيافة العربية الأصيلة التي أشعرتنا في الحال أننا في بيتنا . . . والتفت حولنا النساء اللاتي بدت أعينهن سوداء وبراقة وجميلة على الرغم من البراقع اللاتي كن يلبسنها ، وجلسنا جميعا للغداء ، على أن نبدأ عملنا بعد انتهاء الطعام** "[٢٣] .

بدأت الممرضة كورنيلا المهمة التي جاءت من أجلها وهي تقديم الخدمة الطبية والتنصير الذي قالت عنه في مذكراتها أنه "هدف حياتي

**الأول "[٢٤]**. وبالفعل توافدت عليها الكثير من النسوة الراغبات في الخدمة العلاجية الحديثة وتم فحصهن وتقديم الدواء لهن .وقد قامت شركة البترول القطرية بتقديم المساعدة أيضاً عن طريق جلب الأدوية اللازمة من البحرين ، وتقديم النصيحة الطبية في أحيان كثيرة من قِبل طبيب الشركة ، حيث أن كورنيلا لم تكن طبيبة مؤهلة . وبدأت الأمور سهلة – كما تقول كورنيلا -- فكل نساء الدوحة جئن يطلبن الخدمة الطبية الحديثة . وبدا الشيخ مسروراً من تقديم العون لرعاياه ، بل إنه عمل جاهداً على تسهيل مهمة أفراد الإرسالية في تقديم رسالتهم الإنسانية لرعاياه . وكما تقول كورنيلا في رسالتها لمقر الإرسالية "فقد ساعدنا مدير الجمارك في استخدام بيته كمستشفى لاستقبال المرضى المترددين لمدة أسبوعين تقريباً ، وهي فترة بقائنا في الدوحة . وقد تمكنا من تقديم العلاج لحوالي ٨٠٠ من النسوة القطريات[٢٥] . كما تصف كورنيلا المعاملة التي كانت تلقاها من الأهالي بأنها معاملة حسنة وودودة جداً فالناس لطفاء " **وقد استضافنا الناس في حوالي ٢٠ منزلاً ، وقمنا بزيارات طبية لحوالي عشرة منازل "[٢٦]** .

وتصف كورنيلا رحلتهم تلك قائلة : " **وقد قمنا بزيارة قصر الحاكم في [الريان] حوالي ثلاث مرات ، وكانت إحدى المرات لقضاء اليوم بالكامل هناك ، وقد قابلنا الشيخ عبد الله بن جاسم بكل لطف ، وكان كثير الامتنان لكل ما نفعله من أجل رعاياه ولما سبق أن قدمه أطباء الإرسالية السابقون مثل بول هاريسون ولويس ديم وتومس ستورم وغيرهم لأهالي قطر "[٢٧]** .

وتمضي كورنيلا في تقريرها عن وضع النساء في القصر ، فتقول " يبدو أن نساء القصر متعودات على رؤية النساء الغربيات وعلى أسلوب حياتهن ، فقد سبق لهن أن رأين السيدة ديم (مبشرة وزوجة الطبيب لويس ديم) مرات عديدة من قبل . ولكنهن كن متعجبات من ملابسنا الإفرنجية . فقد كانت النساء الأمريكيات اللاتي زرن قطر من قبل يلبسن الملابس العربية ( **الثوب الطويل والعباءة** ) ، لذلك طلبت النسوة مني أن أُلبس لهن ملابسي الغربية الغريبة بالنسبة لهن "[٢٨] .

ومضت كورنيلا في تقريرها تصف الحياة في قصر الحاكم أو الحريم كما أطلقت عليه فتقول "إنه مجتمع صغير

قائم بذاته ، فكل شيخ لديه عدد من الزوجات ، وحتى الخدم يبدو أنهم قد تأثروا بأسلوب حياة أسيادهم ، فلديهم أيضاً عدد من الزوجات ، وكنا نتناول كل وجباتنا في منزل درويش فخرو ماعدا وجبة الإفطار ، وفي بعض الأمسيات عندما لا نكون مدعوين ، كنا نتناول وجبة العشاء في منزل درويش فخرو أيضاً ، حيث تجلس بجوارنا حوالي ٢٠ -٣٠ امرأة في الفناء الداخلي للحوش الكبير ولكي نجذب انتباه النساء كنا نريهن صوراً ملونة جميلة ، وعند الانتهاء من مشاهدة الصور كنا نقرأ لهن بعض الفقرات من الإنجيل ، وكانت النساء يطلبن منا كل ليلة أن نقرأ لهن بعض الفقرات »(٢٩) .

ومن الواضح هنا أن كورنيلا دالنبيرج التي تمرنت أصلاً لتكون ممرضة ومبشرة ، قد استغلت كل الوسائل المتاحة لها للتبشير بين صفوف النساء . فاستغلت ذلك المنفذ ووجودها بين النساء لتقوم بمهمة التبشير الذي كان أهم هدف لرحلة كورنيلا كما اعترفت في مذكراتها فيما بعد . أما العمل في المستشفى فقد كان من وجهة نظر كورنيلا وغيرها من المبشرات وسيلة للتبشير ، وهو يوفر حقلاً مهماً للتنصير ، حيث كان دوماً يبدأ بتلاوة فقرات من الإنجيل والصلوات الدينية . وقد أمضت كورنيلا دالنبيرج حوالي أسبوعين في الدوحة ، وقبيل ذهابها كانت قد تلقت دعوة أخرى للقدوم لقطر حالما يتحسن الطقس .

كانت زيارة كورنيلا دالنبيرج زيارة مهمة على الصعيدين الصحي والاجتماعي . فقد قامت الآنسة دالنبيرج بزيارات لمعظم قرى قطر ، قدمت خلالها خدماتها الطبية للمئات من النساء اللاتي كن يفتقدن الخدمة الطبية الحديثة وقد نفدت كل الأدوية التي كانت تحملها ، وطلبت المزيد من البحرين ، مما يدل على نجاح مهمتها . ومن الناحية الاجتماعية تعتبر تقارير كورنيلا تقارير مهمة من الناحية الوصفية ، فهي تصف أوضاع النساء والعادات والتقاليد السائدة بدقة متناهية ، مما يعتبر نظرة واقعية في أوضاع المجتمع القطري خلال الأربعينات من القرن العشرين .

ومع تطور الأوضاع العامة في قطر أصبحت الحاجة ملحة لوجود مستشفى في العاصمة الدوحة بالإضافة إلى طبيب مقيم . ويبدو أن أقرب طبيب مقيم في

قطر هو طبيب شركة البترول القطرية الهندي والمقيم في منطقة نائية تبعد حوالي ٦٠ ميلاً عن الدوحة ، حيث تقع معسكرات شركة البترول وقد اقتصر عمله على تقديم خدماته الطبية لموظفي الشركة ، وإن كان يقوم في بعض الأحيان بزيارات للدوحة ، حيث يقوم بتقديم العلاج للرجال فقط دون النساء اللاتي كن يرفضن السماح لرجل بالكشف عليهن .

لذا ، فقد بدأت فكرة إنشاء مستشفى تلح على الشيخ ، خصوصاً وأن رعاياه كانوا يضطرون أحياناً للسفر الطويل لتلقي الخدمة العلاجية الحديثة . وبدأ الشيخ بالفعل منذ بداية الأربعينات في دراسة إمكانية افتتاح مستشفى صغير يعمل على تقديم خدماته للناس . ويبدو أن كلاً من الشيخ عبد الله آل ثاني ، وولي عهده الشيخ حمد ، قد أدركا أهمية افتتاح ذلك المستشفى ، فعملا على دراسة الفكرة تمهيداً لطلب المساعدة من الحكومة البريطانية وأطباء الإرسالية في البحرين .

أما الحكومة البريطانية فقد رأت في هذه الفكرة فرصة سانحة لزيادة نفوذها في قطر . فتروي بعض المصادر بأن المقيم السياسي في الخليج قد تقدم باقتراح لحكومته لكي توافق على إرسال طبيب مقيم في قطر على شرط أن يكون هذا الطبيب وكيلاً سياسياً سرياً لبريطانيا . وكان تبرير بريطانيا لهذا التصرف بدعوى أن الشيخ كان يمنع دخول الأجانب إلى قطر والإقامة فيها [٣٠] . وعلى الرغم من أن ذلك الاقتراح لم ينفذ لأن الحكومة البريطانية لم يكن لديها استعداد آنذاك لتحمل المزيد من النفقات ، إلا أن الفكرة تنم عن رفض الشيخ للمساعدات المقيدة بشروط . وهكذا توجه الشيخ بالطلب للإرسالية الأمريكية .

تحمست الإرسالية الأمريكية في البحرين لفكرة إنشاء مستشفى في قطر ، وعبر أطباء الإرسالية عن ترحيبهم بالخدمة في هذا المستشفى ، حتى لو كان لفترات متقطعة يعمل خلالها طبيب هندي يكون متواجداً بصفة دائمة ، نظراً لأن الوضع الصحي والسكاني في قطر كان يتطلب وجود مستشفى . فقد بلغ سكان قطر في هذه الفترة حوالي ٢٥ ألف نسمة ، وكما تقول إيدا ستورم ، وهي مبشرة زارت قطر عام ١٩٤١م بأن الأمراض الشائعة بينهم كانت كثيرة ،

وأهمها التراخوما والتيفوئيد وحالات المصران الأعور والحمّى وغيرها من الأمراض التي تحتاج إلى رعاية دائمة ومستمرة لا يمكن أن يقدمها الطبيب الذي يزور قطر لفترة بسيطة ثم يرحل[٣١] .

وخلال سنوات الحرب فقد كان أطباء الإرسالية على اتصال دائم بقطر . ففي عام ١٩٤٣م قام الدكتور شاندي Chandy وهو طبيب هندي الجنسية ، يعمل في مستشفى الإرسالية الأمريكية في البحرين بثلاث رحلات إلى قطر ، كما قام كل من الدكتور ستورم والسيدة مليري برحلات مماثلة ، وكان للنقص الحاد في المعدات الطبية خلال الحرب العالمية الثانية أثر سلبي على رحلات المبشرين وإن لم يحد من نشاطهم .

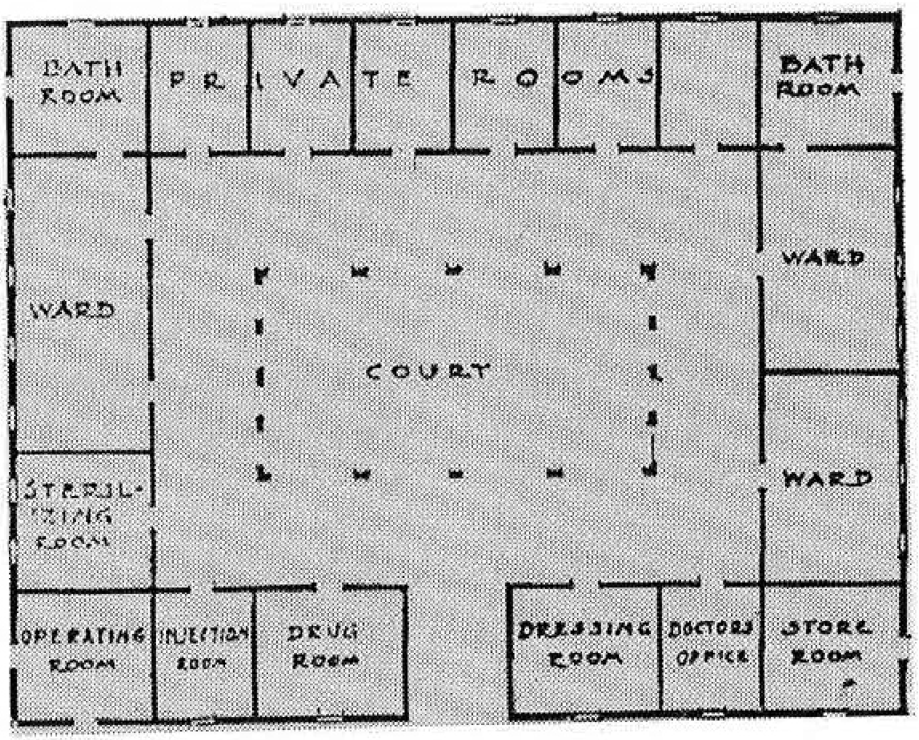
من الواضح هنا أن المبشرين عرفوا منطقة قطر جيداً من خلال رحلاتهم العديدة ، كما نمت بينهم وبين شيخها علاقات من الصداقة والثقة ، حيث ساعدوه في إحدى زياراتهم الأولى في تركيب طاحونة هوائية Wind Mill لجلب المياه[٣٢] . هذه العلاقة الشخصية بين أفراد الإرسالية وبين الشيخ شجعت الشيخ لكي يطلب من الإرسالية تزويد بلاده بالخدمات الطبية بشكل دائم . كما وعد الإرسالية بأنه سيقوم ببناء مستشفى في الدوحة يعهد بإدارته إلى الإرسالية الأمريكية على أن يكون محطة فرعية تابعة للبحرين[٣٣] .

ويروي الدكتور هارولد ستورم قصة هذا المستشفى قائلاً إنه في عام ١٩٤٥م أثناء رحلة طبية تبشيرية إلى قطر ، رافقه خلالها الأسقف جـ. فان بيرسم G. Van Peursem التقى بالشيخ عبد الله آل ثاني الذي طلب منه فحص ضغط دمه ، وسأله الشيخ " **لماذا لا تأتون وتقيمون في قطر بصفة مستمرة** "، فأجابه ستورم " **لو قمتم ببناء مستشفى فبالتأكيد سوف نرحب بالمجيء والإقامة بصورة مستمرة ، وفي حالة غيابنا سوف يقوم الطبيب الهندي بسد الفراغ** " . وهنا رد الشيخ قائلاً : " **ضعوا تصميماً لبناء المستشفى وسنقوم بتنفيذه فوراً** "[٣٤] . وكما يقول ستورم : " **لم نضيع أي دقيقة ، فحالما تسلمنا الضوء الأخضر من الشيخ ، بدأنا في الحال برسم تصميم لمبنى المستشفى يحدونا أمل عظيم . وقد وضعنا تصميماً لبناء مستشفى يحوي حوالي ٢٠ سريراً ، وفي اليوم التالي أطلعنا الشيخ على هذا التصميم ، وفي**

الحال أمر بالبدء في بنائه فوراً . وقد غادرنا قطر إلى البحرين ، ولكننا سمعنا فيما بعد أن البناء كان على وشك الانتهاء ، فكتبت إلى الشيخ رسالة أطالبه فيها بمبلغ من المال لشراء الأسرة والمعدات الطبية . وقد أرسل لنا الشيخ – حالاً – مبلغ ٥٠٠٠ روبية هندية (*حوالي ١٥٠٠ دولار أمريكي*) ، واستخدمنا هذا المبلغ في طلب بعض المعدات الطبية من بريطانيا "[٣٥] . وعلى الرغم من صعوبة الوضع الاقتصادي أثناء وبعد الحرب العالمية الثانية ، والنقص الحاد في أدوات البناء والمعدات التي أخرت تجهيز المستشفى ، إلا أن ذلك لم يكن عائقاً . وبالفعل في خريف ١٩٤٧م كان المستشفى جاهزاً للعمل . وقد أبحر الدكتور ستورم وزوجته بالإضافة إلى عدد من أعضاء الهيئة الطبية العاملة في مستشفى ماسون التذكاري بالبحرين في نوفمبر ١٩٤٧م لافتتاح المستشفى .

اعتبرت الإرسالية الأمريكية افتتاح المستشفى في قطر خطوة كبيرة في سبيل تحقيق هدفها الأول وهو التنصير ، حيث يتيح لأفراد الإرسالية الإقامة الدائمة في قطر ، مما يخدم أغراض الإرسالية الجوهرية . وعبر أطباء الإرسالية عن سعادتهم لافتتاح المستشفى في قطر قائلين : " **لقد تحقق أخيراً حلمنا ، وهاهو مستشفى الإرسالية الأمريكية في البحرين يحظى بابن له في أقصى بقعة من شبه الجزيرة العربية . وهكذا نستطيع الالتقاء بعشرات الأشخاص يومياً لنقدم لهم العلاج وكلمة المسيح** "[٣٦] . وقد ضم هذا المستشفى بالإضافة إلى العيادة الداخلية In-patients ، عيادة خارجية Out-Patients ، بالإضافة إلى غرفة للأشعة ومختبر وصيدلية . وبالفعل بدأ مستشفى الدوحة في استقبال المرضى الذين توافدوا عليه من شتى أنحاء قطر . وقدمت شركة بترول قطر كافة التسهيلات المتاحة لنجاح المستشفى من سيارات وأدوية ، بالإضافة إلى المساعدة في تكاليف تنقل الأطباء بين قطر والبحرين .

ولكن ماذا عن هدف المستشفى الحقيقي ألا وهو التنصير ؟ فكما اعترف أطباء المستشفى فقد أتاح لهم هذا المستشفى الالتقاء بعشرات الأهالي من المرضى وغير المرضى . وأحياناً كثيرة – حسب قول الأطباء – كان الأهالي " **يطلبون منا أن نمارس شعائرنا الدينية ، خاصة أيام الآحاد حتى يرى**




تصميم المستشفى الجديد في قطر

أهل قطر الشعائر المسيحية "[٣٧] . أما من كان يرتاد هذه المستشفى ؟ فقد كان يرتاده أهالي قطر من جميع مشاربهم وأجناسهم ، وخاصة مرضى الملاريا والعبيد المحتاجين للمساعدة الطبية والمعنوية ومرضى العيون والأسنان[٣٨] ، وأحياناً كثيرة يرتاده الأهالي لمجرد الزيارة العادية .

وقد كان المستشفى في بداية افتتاحه يستقبل الجنسين في وقت واحد ولكن حالما انتظم العمل في المستشفى ، نُظمت مواعيد الزيارة وجعلت الفترة الصباحية للرجال والفترة المسائية للنساء . وكما جرت العادة في جميع المستشفيات التابعة للإرسالية ، كان الدوام يبدأ بقراءة من الإنجيل وبالصلوات ، وعلى المرضى حضور هذه الصلوات . وكما تقول السيدة ستورم " نبدأ بعد ذلك في استقبال المرضى وتقديم العلاج لهم سواء في العيادة الداخلية أو الخارجية . . . وكانت تلك أسعد أيامنا . فهانحن هنا نرى مستشفى آخر تابعاً لمستشفانا الرئيسي ، ونحمد الله الذي أتى بنا إلى قطر لنحضر معنا الخير إلى هذه البلدة "[٣٩] .

كان العمل في مستشفى قطر تجربة جديدة للمبشرين الأمريكيين . فقد كان الأطباء الأمريكيون يحلمون بإنشاء مستشفى هنا . . . وهاهو حلمهم يتحقق كما يقولون " **بأموال عربية** "[٤٠] .

ويبدو أن نشوة إنشاء مستشفى قد أنست الأطباء هدف الشيخ الشخصي من إنشاء هذا المستشفى ، فقد قام الشيخ بإنشاء هذا المستشفى لخدمة رعاياه وتوفير العلاج الحديث لهم حتى لا يضطروا إلى مشقة السفر للخارج . وهكذا كان هذا المستشفى يمثل الجانب الإنساني لوجهة نظر كل من الطرفين .

بعد افتتاح المستشفى أصبحت فكرة إبقائه مستمراً تلح على أطباء الإرسالية الأمريكية ، إذ أنه ليس من السهل – مع النقص الحاد في الأطباء – إبقاء أطباء متواجدين طوال الوقت في قطر ، ولكن الإرسالية الحريصة على إبقاء هذا المستشفى مفتوحاً وجدت الحل في التناوب بين أطباء الإرسالية في شبه الجزيرة على العمل به ، وبذلك تضرب عصفورين بحجر واحد ، فأولاً إبقاؤه مفتوحاً طوال السنة ، وثانياً إفساح المجال أمام أكبر عدد من أطباء وممرضي الإرسالية في شبه الجزيرة للعمل به ، وبالتالي الالتقاء بأكبر عدد من الأهالي .

ففي عام ١٩٤٨م وجهت الدعوة إلى الدكتورة ماري بيرنس أليسون Mary B. Allison والتي سبق لها أن عملت سنوات طويلة في مستشفى الكويت ، للحضور إلى قطر واستلام العمل في المستشفى . ففي كتابها ( **الطبيبة ماري في شبه الجزيرة** ) تروي هذه الطبيبة قصة اختيارها للسفر إلى قطر ورحلتها تلك إلى شبه جزيرة قطر ، وتجربتها في تلك المنطقة من شبه الجزيرة العربية فتقول : " **في اجتماعها السنوي ، تلقت الإرسالية عام ١٩٤٧م طلبا من حاكم قطر بافتتاح المستشفى ، وهكذا أصبح علينا في ظل نقص الإمكانيات أن نتناوب الذهاب لقطر . وفي عام ١٩٤٨م وقع الاختيار عليّ، وفي يناير من ذلك العام رحلت إلى قطر عن طريق البحرين . وفي قطر وفر لي الشيخ منزلاً عربيا للإقامة ، يقع بالقرب من قصره ويكون أيضا مقراً لعيادتي** "(٤١) .

وتمضي الدكتورة ماري أليسون في وصفها للأوضاع في قطر في تلك الفترة قائلة : " **ذهبت لزيارة الحاكم مرات عديدة ولكن مجلسه الكبير كان دائماً يغص بالزائرين الرجال . لذلك فضلت زيارة مجلس النساء اللاتي رحبن بي وطلبن مني تكرار الزيارة ، حيث كن يتوقعن مني أن أحدثهن دوماً عن الحياة خارج أسوار الحريم ، لذلك كنت آخذ لهن بعض المجلات التي تحتوي على صور ملونة** " . وتمضي الدكتورة اليسون بقولها : " **إن خلف أسوار الحريم ، هناك العديد من المآسي ، فإحدى النسوة - مثلاً - فقدت طفلتها الرضيع وكانت في حالة نفسية سيئة ، فطلبت مني إحدى قريباتها أن أقرأ لها بعض القراءات التي قد تهدئ من سرها** " . وكما تقول أليسون " **وجدت أنها فرصة مناسبة لي لقراءة بعض الفقرات من الكتاب المقدس** "(٤٢) .

ظلت الدكتورة ماري في قطر حوالي أربعة شهور ، وجدت خلالها - كما قالت - الترحيب من كافة المستويات ، ولكن في نهاية رحلتها تلك ، حدث ما لم تتوقعه الدكتورة أليسون . فقد تغير موقف أهالي قطر منها ولم تعد تجد - كما تقول - الترحيب الحار ، بل أوصدت الأبواب في وجهها . وقد بررت الدكتورة ماري موقف القطريين هذا بالغيرة والمنافسة التي أحسها الإنجليز ، خاصة العاملين في شركات البترول ، من المكانة الكبيرة التي أصبحت تحظى بها ، وأوعزوا إلى

القطريين بعدم استقبالها لأنها تتدخل في المسائل الدينية[٤٣] .

ولكن من الواضح هنا أن كلاً من الحاكم والأهالي قد أحسوا بالمهمة الرئيسية التي جاءت هذه الطبيبة من أجلها ، خصوصاً بعد أن أخذت تبشر علناً وتتدخل في القضايا الدينية للمسلمين . وعلى الرغم من الحاجة الماسة لخدماتها في المستشفى إلا أنهم قد أعرضوا عنها بعد أن تيقنوا من الرسالة الخطيرة التي جاءت تبلغها ، وقاطعوها تماماً ، مما جعل منها شخصاً غير مرغوب فيه ومن ثمة طلب منها الرحيل .

في بداية الخمسينات بدأ مستشفى قطر يواجه نقصاً في الإمدادات البشرية وفي الكادر الطبي ، خاصة بعد أن اضطرت الظروف الصحية الدكتور نايكرك Dr. Nykerk إلى مغادرة العمل فجأة بسبب مرضه ، ووجدت الإرسالية نفسها أمام خيار لابد منه وهو التفكير في التخلي نهائياً عن العمل في هذا المستشفى وتسليمه للحكومة القطرية .

ولكن مستشفى الدوحة ظل يعمل حتى عام ١٩٥٢م ، إلا أنه لم يكتب للخدمة الطبية في هذا المستشفى أن تستمر . فقد اضطرت الإرسالية إلى التوقف عن العمل في قطر بسبب الصعوبات المتعلقة بتأمين الهيئة الطبية ، فتم في ذلك العام إرجاع المستشفي إلى الحكومة القطرية . وهكذا ضاعت على الإرسالية فرصة العمل في قطر أو افتتاح محطة فرعية فيها إلى الأبد . وعلى الرغم من ذلك استمرت رحلات الأطباء والمبشرين المتقطعة لقطر حتى أوائل الستينات ، وإن أخذت طابعاً مختلفاً بعض الشيء عن زياراتهم السابقة ، فكما تقول كورنيلا التي زارت قطر في عام ١٩٥٩م " **منذ أعوام كنا نحن الإرساليين ندخل بيوت العرب بثقة زائدة ، والتي كانت من الأمور الطبيعية ، حيث كنا رسل المسيح وننتمي إلى بلدان لطالما احترمت لقوتها ولمعرفتها ، ولكن بعد اكتشاف البترول في الخليج يجب أن أعترف بأن الأمور قد تبدلت . . . فمع أننا مازلنا رسل المسيح ، إلا أن الدول العربية بدأت تكون لنفسها قوة وعظمة ، وتستخدم عناصرها للحصول على أية معلومات . . . وأصبحنا بالفعل نشعر ببعض التواضع في حضرة ثروة النفط** "[٤٤] .

# رابعاً : الخاتمة

## [ تحليل للنشاط الطبي التبشيري في قطر ]

بدأ التبشير في الخليج العربي في القرن التاسع عشر ، عندما توافدت العشرات من البعثات والإرساليات البريطانية والفرنسية والهولندية ، لكن أي من هذه البعثات لم يحقق نجاحاً . فمن الواضح أنها كانت إرساليات حماسية أكثر منها إرساليات تبشيرية ذات أهداف معينة تعمل بدعم مادي ومعنوي من قبل مجموعة من الكنائس ، لذلك لم تنجح في افتتاح مقرات دائمة ولا حتى دكاكين صغيرة دائمة لبيع الكتب الدينية . ومن المؤكد أن هذا الفشل لم يغب عن بال المبشرين الجدد في الإرسالية الأمريكية عندما قرروا غزو قطر في بداية القرن العشرين ، وضمها - كما كانوا يأملون - إلى خطتهم الكبرى الرامية إلى إدخال المسيحية إلى شبه الجزيرة(٤٥) .

لم تكن الظروف مهيأة في تلك الفترة لهذا التحدي الحضاري ولا لهذا الصراع الديني والفكري بين فئتين : الفئة الأولى هي فئة المبشرين ، خريجي أعرق الجامعات الأمريكية والتي تقف وراءهم مؤسسات دينية ، تدعمهم ماليا ومعنوياً . والفئة الثانية هي شعب قطر البسيط الذي لم يكن معظمه يعرف القراءة والكتابة ، ولكنهم يقدسون مبادئهم الدينية ويعيشون بعيداً عن الحضارة الغربية المادية التي كانت تغزو أوروبا . ورغم عدم التكافؤ في هذا الصراع ، إلا أن النشاط التبشيري في قطر واجه مقاومة كبيرة غير متوقعة ، قلبت الخطط التي وضعتها الإرسالية الأمريكية لنفسها في شبه الجزيرة .

انطلقت معظم رحلات التبشير إلى قطر من البحرين ، عابرة تلك المسافة القصيرة التي تفصل البحرين عن شبه جزيرة قطر . وكانت قطر واحدة من المناطق التي استأثرت باهتمام الإرسالية ، حيث تعتبر امتدادا

لصحراء شبه الجزيرة من الناحية الطبيعية . وقد قام مبشرو الإرسالية بزيارة المنطقة عدة مرات قبل أن يحصلوا على إذن بالسماح لهم بمزاولة العمل هناك . والمبشرون الذين زاروا قطر هم : القس جيريت بننجس Gerrit Pennings ، والدكتور بول هاريسون Poul Harrison ، والدكتور لويس ديم Louis Dame ، وتومس Thoms ، والآنسة كورنيلا دالنبيرج Miss Cornelia Delenberg ، والدكتور ستورم Dr. Storm ، والدكتورة ماري بيرنس أليسون Dr. Mary Burnis Allison والقس جـ. فان بويرسم G. Van Peursom والمرضة جانيت بويرسم . ويتضح من هذه القائمة أن هؤلاء جميعاً زاروا قطر في رحلات طبية تنصيرية[٤٦] . وما لاشك فيه أن البعثات التبشيرية في قطر قد قدمت خدمات إنسانية جليلة للأهالي ، وإن كان هدفها الحقيقي وهو جذب الأهالي لرسالتهم واضحاً .

ارتبط النشاط التنصيري في قطر منذ البداية ارتباطاً وثيقاً بالخدمة الطبية التي استغلت كوسيلة سهلة تمكن أفراد الإرسالية من النفاذ للمجتمع القطري دون أن تثير أعمالهم الشك والريبة وحتى تجد صدىً وقبولاً لدى الأهالي . وقد استخدم المبشرون الرحلات الطبية إلى القرى والمناطق النائية كجزء مهم من نشاطهم ، حيث تنقلوا بين قرى قطر حاملين حقيبتهم الطبية في يد وصندوقاً مليئاً بالكتب الدينية وأجزاء من الكتاب المقدس في اليد الأخرى .

وظفت الإرساليات الأمريكية الأوضاع الصحية والإجتماعية لصالحها ، حيث استغلت الفقر والمرض للوصول إلى غاياتها . فكما يقول أحد المبشرين " **حيث تجد بشراً تجد آلاماً ، وأينما تكون الآلام تكون الحاجة إلى الطبيب ، وحيث تكون الحاجة إلى الطبيب فهناك فرصة مناسبة للتبشير** "[٤٧] . فكما أوردت إحصائيات الإرسالية الأمريكية في قطر ، فقد تم علاج حوالي ٢٥,٠٠٠ حالة في العيادة الخارجية ، وحوالي ٨٥٣ حالة في العيادة الداخلية طوال فترة عملهم مما يعكس حجم العمل الذي قاموا به . فقد أورد هاريسون في تقرير له إلى الإرسالية بأن الدوام يبدأ - عادة - بالصلوات بأن يهدي الله الناس للمسيح ويشفي أسقامهم . كما أن المستشفيات لها هدف وهو " **تعريف الناس رجالاً ونساءً بالمسيح** . وأظن أن

**الناس هنا محتاجون للرحمة ومحتاجون للمسيح الذي أظن أنه يبكي على قطر كما يبكي على القدس "(٤٨)** .

ولكن الملاحظ هنا أن تقارير أعضاء الإرسالية في قطر لم تورد ذكراً لأية مبيعات للكتب الدينية كما أوردوا في تقاريرهم عن مناطق الخليج الأخرى . ومن الجائز أن يكون سبب ذلك هو شعورهم بعدم جدوى هذا العمل . فالأمية كانت منتشرة بشكل كبير ، كما أن الصلوات – في معظم الأحيان – لم تكن تلاقي آذاناً صاغية . فعادة ما يتساءل الناس بعد الانتهاء من الصلاة عن ماهية الكلام الذي قيل .

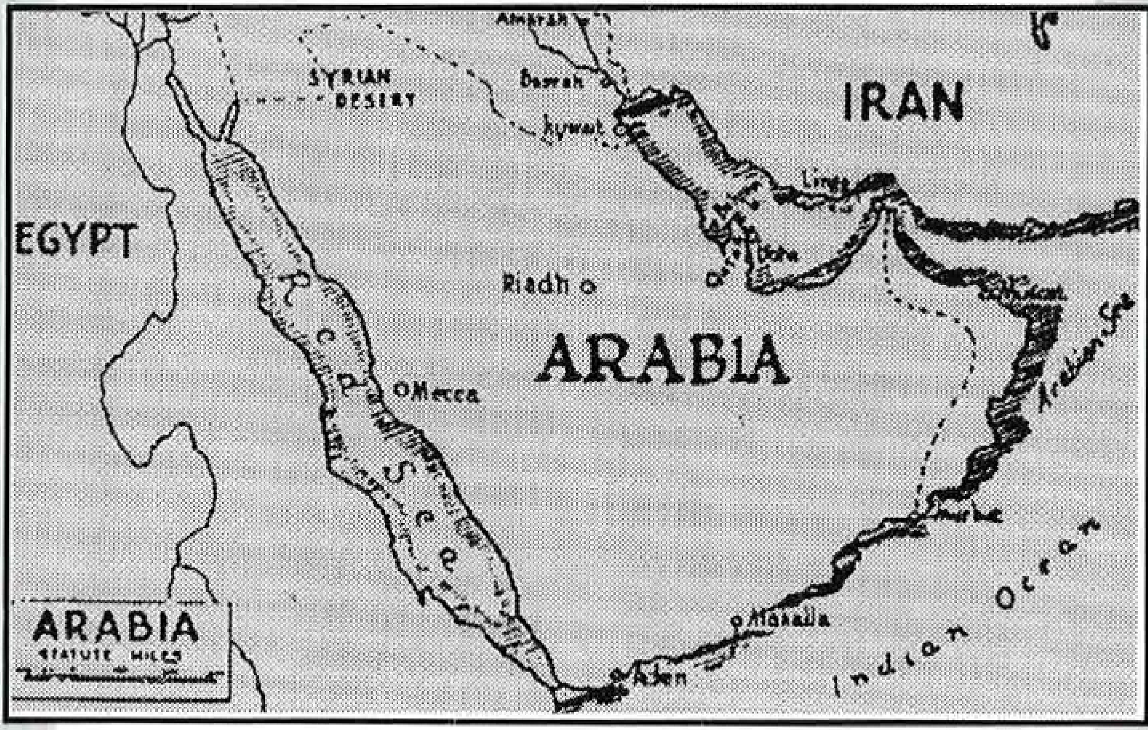
من الناحية العلمية تعتبر تقارير الإرساليات الأمريكية ضرباً من ضروب الأدب . فقد قامت هذه التقارير بوصف الأوضاع الاجتماعية والعادات والتقاليد والوضع السكاني وصفاً دقيقاً ، مما يجعل من تلك التقارير مرجعاً مهماً لتاريخ المنطقة الاجتماعي في النصف الأول من القرن العشرين . ومما لاشك فيه أن تلك البعثات الطبية ، قدمت خدمات طبية جليلة للمنطقة ، نحسها ونشعر بها ونحن نراجع التقارير التي كتبت وحالات المرضى العديدة والحالات المستعصية التي كان المستشفى يزخر بها .

ولكن ماذا عن الأهداف الحقيقية لهذه البعثات ، ألا وهي التبشير ؟ من الواضح من خلال مراجعة نشاط الإرساليات الأمريكية في الخليج عامة وفي قطر خاصة أن الخدمات الإنسانية لها قد فاقت العمل الديني . وقد خرج المبشرون من المنطقة خروج الخاسرين وإن استطاع العديد منهم تكوين علاقات تعاطف وحب مع العرب ، استمرت إلى ما بعد انتهاء عمل الإرسالية وانكماش العمل التبشيري . أما فيما يخص قطر فينطبق عليها ما ينطبق على مناطق الخليج العربي الأخرى ، التي تعرضت للغزو التبشيري . فإذا كانت المهمة التي عملوا من أجلها مهمة دينية فإنهم بذلك يكونون قد فشلوا فشلاً ذريعاً ، أما إذا كانت مهمة إنسانية فيكون التوفيق قد حالفهم في ذلك بدليل الثقة التي أولاها إياهم أهالي قطر في أحلك ساعاتهم .

# ملحق رقم (١)

## المبشرون الذين زاروا قطر في الفترة ما بين ١٩١٨ - ١٩٥٢م

| الاسم | المهنة | السنة |
|---|---|---|
| Dr. Paul Harrison | طبيب | ١٩١٥ -١٩١٨ |
| Mrs. A. M. Harrison | مبشرة وزوجة طبيب | ١٩٤٧ |
| Gerrit Pennings | أسقف | ١٩١٨ - ١٩٢٨ |
| Dr. W. Thomas | طبيب | ١٩٤٠ - ١٩٤٩ |
| Dr. Louis Dame | طبيب | ١٩٣٠ - ١٩٣٢ |
| Mrs. Louis Dame | مبشرة | ١٩٣٠ - ١٩٣٢ |
| Dr. Chandy | طبيب | ١٩٤٣ |
| Dr. Harold Storm | طبيب | ١٩٤١ - ١٩٤٨ |
| Mrs. I. H. Storm | مبشرة | ١٩٤١ - ١٩٤٨ |
| Dr. C. S. Mylrea | طبيب | ١٩٤٠ - ١٩٤١ |
| Mrs. B. Mylrea | مبشرة | ١٩٤٠ |
| Miss Cornelia Dalenberg | ممرضة | ١٩٤١ و ٤٧ و ٤٩ و ٥٢ |
| Rev. Gerrit Van Peursem | أسقف | ١٩٤٥ |
| Dr. Mary Baruns Allison | طبيبة | ١٩٤٨ |
| Jeanette Boersma | ممرضة ومبشرة | ١٩٤٠ - ١٩٤٩ |
| Dr. Gerald Nykerk | طبيب | ١٩٥٢ |
| Rose Nykerk | مبشرة | ١٩٥٢ |




خريطة توضح مسار الإرساليات الأمريكية إلى قطر

# الحواشي والمراجع


١ ـ لمزيد من المعلومات أنظر :

Alfred De Witt Mason & F. Barny, History of The Arabian Mission, New York, 1926.

٢ ـ انظر جي. جي. لوريمر ، دليل الخليج ، القسم التاريخي ، الجزء الثالث ، طبع على نفقة حكومة قطر ، ١٩٦٩م ، ص ١٢٢٠ و ١٢٦٦ .

٣ ـ The Arabian Mission, Neglected Arabia, No. 108, Jan. - March, 1919 .

٤ ـ المصدر السابق ،

أيضاً انظر : خالد البسام ، القوافل ، مؤسسة الأيام للصحافة والنشر ، البحرين ، ١٩٩٣م ، ص ١٤٦ ـ ١٥١ .

٥ ـ المصدر السابق .

٦ ـ المصدر السابق .

٧ ـ المصدر السابق .

٨ ـ المصدر السابق .

٩ ـ المصدر السابق .

١٠ ـ المصدر السابق .

١١ ـ المصدر السابق .

١٢ ـ المصدر السابق .

١٣ ـ Paul Harrison, The Old and The New in Arabia, 1948, Arabian Mission Correspondence, Box 754, New Brunswick, N.J., U.S.A.

١٤ ـ كورنيلا دالنبيرج ، مذكرات شريفة الأمريكانية ، مطبوعات بانوراما الخليج ، البحرين ، ١٩٨٩م ص ١٩٩ .

١٥ ـ المصدر السابق .

١٦ ـ The Arabian Mission, Neglected Arabia, No. 125, April - June, 1923 .

١٧ ـ The Arabian Mission, Neglected Arabia, No. 128 Jan. - March, 1924 .

١٨ ـ Ibid., No. 212, March, 1948 .

١٩ ـ Ibid .

٢٠ ـ Ibid, No. 212, March, 1948 .

٢١ ـ Ibid No. 204, Oct. - Dec., 1944 .

٢٢ ـ Ibid .

٢٣ ـ Arabian Mission Correspondence, A Trip to Qatar, C. Dalenberg, Feb. 21, 1941, Box 754, New Brunswick, N. J. U.S.A.

٢٤ ـ كورنيلا دالنبيرج ، مذكرات شريفة الأمريكانية ، ص ١٧٩ .

٢٥ ـ Arabian Mission Correspondence, Dalenberg, Feb. 21, 1941.

٢٦ ـ المصدر السابق .

٢٧ ـ المصدر السابق .

٢٨ ـ المصدر السابق ، أنظر أيضاً مذكرات جانيت بويرسم :

Jeanette Boersma, Grao in The Gulf, Wm. B. Eerdmans Publishing Co. Michigan, 1991, p. 34 .

٢٩ ـ Arabian Mission Correspondence, Box 754,1941 .

٣٠ ـ Rosemarie Zahlan, The Creation of Qatar, 1979, p. 98 .

٣١ـ The Arabian Mission, Neglected Arabia No. 193, July - Sep., 1941 .

٣٢ـ Ibid., No. 212, March, 1948 .

٣٣ـ أنظر : عبد المالك خلف التميمي ، التبشير في منطقة الخليج العربي ، الكويت ، شركة كاظمة للنشر والتوزيع ، ١٩٨٢ ، ص ١٤٢ .

٣٤ـ The Arabian Mission, Neglected Arabia, No. 212, March, 1948 .

٣٥ـ المصدر السابق .

٣٦ـ المصدر السابق .

٣٧ـ المصدر السابق .

٣٨ـ المصدر السابق .

٣٩ـ المصدر السابق .

٤٠ـ المصدر السابق .

٤١ـ Mary Briuns Allison, Doctor Mary in Arabia, University of Texas Press, Ausin, 1994, p.122 .

٤٢ـ Ibid., p. 123 .

٤٣ـ المصدر السابق .

٤٤ـ كورنيلا دالنبيرج ، مذكرات شريفة الأمريكانية ، ص ٢٥٠ .

٤٥ـ يقال أن قطر قد أصبحت أسقفية سنة ٢٢٥م للحركة النسطورية التي ازدهرت في شرقي الجزيرة العربية . للمزيد أنظر : عبد المالك التميمي ، ص ١٩ .

٤٦ـ أنظر الملحق المرفق بالبحث .

٤٧ـ أنظر عبد العزيز بن إبراهيم العسكر ، التنصير ومحاولاته في بلاد الخليج العربي ، مكتبة العبيكان ، الرياض ، ١٩٩٣ ، ص ٣١ .

٤٨ـ Paul Harrison, The Old and The new in Arabia, Box 754, New Brunswick, N. J., 1948 .

# تاريخ الخليج والبحر الأح

## ملوك هرمز ومقتطفات

ترجمه إلى الإنجليزية : ويليام إف . ستكلايد

( متقاعد من ديوان موظفي الحكومة في بومبي )

مقدمة وحاشية بقلم : **دونالد فيركسيوسوف**

ترجمه إلى العربية دكتور : **عيسّى أمين**

**مقدمة**

**الفصل الأول**

**بيدرو تينحسير**



# في أسفار بيدرو تينحسيرا

## من كتاب ملوك فارس

**حباً في معرفة تاريخ الخليج، ورغبة في دراسة أصول التدخل الأجنبي وأسبابه، أقدم هذه الترجمة لكتاب نادر وآمل أن ينال إعجاب قراء العربية.**

د. عيسى أمين

نحن لا نعلم الكثير عن بيدرو تينحسيرا بقدر ما يذكره هو عن نفسه في كتابه . ولقد جاء ذكره في مقدمة الدكتور إم. كايسر لينج ( Dr. M. Kayserling ) لكتاب آي . جي . بنجامين ( I. J. Benjamin ) [ ثماني سنوات في آسيا وأفريقيا ] طبعة هانوفر ١٨٦٣م قائلاً " أن بيدرو تينحيسرا يهودي من البرتغال ومن اليهود الذين لم يجرؤوا بالإفصاح عن ديانتهم أو تعليم أبنائهم ديانة الآباء ، ورغم أنه ولد لعائلة يهودية في لشبونة ، إلا أن تعليمه لم يكن له صلة بالعقيدة ؛ ولذلك فإنه يبدو



**لنا وكأنه لم يكن يحفل بالوازع الذي يفرض عليه التسليم الكامل للخالق ( والمغروز فيه بالفطرة ) الأمر الذي سوف نرى ملامحه في كل صفحة تقريباً من كتاب أسفاره . . . ورغم ذلك فنحن نعتقد ومن خلال ملخص أسفاره بأنه ولفترة طويلة سابقة لوصوله إلى ( أنتورب ) كان بيدرو ملتزماً بالعقيدة المسيحية ، وأنه كان كاثوليكياً ملتزماً - رغم وجود كتابات أخرى تنفي ذلك .ويبدو أن نصيبنا في معرفة أي شيء عن عائلته سوف يكون أقل من معرفتنا له شخصياً ، حيث أنه كان يفضل كتمان الأمر مع تصريح عابر بأنه كان عاشقاً للتاريخ في حداثة سنه .**

وبما أننا قد سلمنا منذ البداية بجهلنا لهذه الشخصية ، فإننا نستطيع أن نقول الآن أننا نجهل أيضاً مهنته ، أو حتى نشأته العملية في بداية حياته ، مع احتمال بسيط في أنه ربما كان طبيباً أو له صلة بالعقاقير النباتية وذلك لما يذكره هو عن التداوي بالأعشاب ومنافعها في كتابه أثناء رحلاته في الشرق .

ونظراً لعدم ذكره الأسباب الرئيسية لسفره إلى الشرق ( الهند ) ووصوله إليها عام ١٥٨٧م مع إحدى سفن الأسطول البرتغالي قادماً من البرتغال في عام ١٥٨٦م، فإننا أصبحنا نعتقد أن رواية كوتو (Couto) في كتابه ديكادا ديسيما ( Decada Decima) تكاد تبين لنا هذه الأسباب حيث يقول : " لقد بُلّغ الملك أن بريطانيا تجهز أسطولها للتوجه إلى جهة غير معروفة حتى الآن - ولكن ، وخوفاً من اتجاه هذا الأسطول إلى الهند أو مناطق قريبة من ملقا ( Malaka) ، فإنه - أي الملك - يود أن يرسل رسالة عاجلة إلى القبطان المسئول عن القلعة هناك بأخذ الحيطة ، وأن يبلغ نائب الملك في الهند عن الاستعداد لمساعدة الأول في وقت حاجته . لذا أصدر الملك أوامره إلى سفن الأسطول ( الغلايين ) وخاصة السفينة ريس ماغوس Reys ( Magos ) للاستعداد بالتوجه إلى ملقا . وتم تعيين القبطان جوا كاكو دي أندرادي Joao )

( Gago de Andrade ) الرجل الذي سبق له زيارة الهند .

أبحر القبطان المذكور من البرتغال في ٥ يناير ١٥٨٦م وقد أمره الملك استيفاو دا فيجا ( Estevao da Veiga ) بتسليم رسالة إلى نائبه _ نائب الملك - د. دوارتي ( D. Duarte ) ورسالة أخرى إلى القبطان في قلعة موزمبيق ، والتي أخبره الملك فيها بإعداد السفن استيفاو دا فيجا وإرسالها إلى الهند للغاية المطلوبة . . . أما باقي سفن الأسطول فقد توجهت من البرتغال إلى الهند في مارس بقيادة القبطان دي جورينمو كوتينو ( D. Jeronymo Coutinho ) في السفينة القديس توما ( s. Thome) ويرافقه القباطنة أنطونيو جوميز ( Antonio Gomes ) في السفينة كرنجه ( Caranja ) ومعه مانويل ديسوزا كوتينو ( Manoel de sousa Coutinho ) والذي قُلِّد الأوسمة لقيادته حامية ملقا ، ورحلته إلى اليابان ، وزواجه من ابنة رجل مسيحي ذي ثروة ، وترشيحه لمركز نائب الملك في الهند ، والذى قتلوه بعد وفاة ( دي دوارتي ) .

أما السفن الأخرى فكانت السفينة سلفادور ( Salvadoar ) وقبطانها ميجويل دي ابرو ( Miguel de Abreu ) والسفينة ريليكوياس ( Religuias ) وقبطانها فرانسسكو كافاليرو ( Francisco Cavalleiro ) والقديس فيليب ( s. Filippe ) وقبطانها جوا تريجيروس ( Joao Trigueiros ) . ولقد أخذت كل هذه السفن الحيطة والحذر في إبحارها خوفاً من مواجهة مع الأسطول الإنجليزي . ولو فرضنا أن بيدرو تينحسيرا كان على ظهر إحدى هذه السفن فإنه يكون قد وصل إلى جوا في الهند سبتمبر ١٥٨٦م .

ولكن يبدو مرة أخرى أن تينحسيرا لم يهتم بوصف ما رآه في جوا مثل ما فعله قبله الهولندي جان هويجن ( Jan Huyghen ) الذي ترك لنا وصفاً مصوراً للمدينة التي سكنها لعدة سنوات قبل وصول تينحسيرا .

ولكن نستطيع من خلال قراءة التاريخ أن نجزم أن وصول تينحسيرا إلى جوا تزامن مع استعدادات بحرية أخرى من قبل البرتغاليين للانتقام من الأتراك وحكام سواحل شمال غرب أفريقيا الذين هزموا الأسطول البرتغالي ( في البحر الأحمر في شهر مايو١٥٨٧م تحت قيادة روي قونسالفس دا كامارا ( Ruy Qon Salves da Cammara ) وأسروا الكثير من بحارته .

انتهز تينحسيرا قرار نائب الملك بإرسال أسطول تأديبي للبحر الأحمر والخليج والتي كانت مسئوليته الأولى الإبحار إلى هوفر ، ومن ثم إلى مسقط لبناء قلعة فيها لردع الأسطول العثماني .

في ٩ يناير ١٥٨٧م وتحت قيادة القبطان مارتيم الفونسو ديملو ( Martim Alfonso di Mello ) أبحرت اثنتان من الغلايين البرتغالية ، ترافقهما ست عشرة سفينة أخرى بجنودها وبيدرو تينحسيرا بعد حصوله على تصريح خاص لمرافقة الأسطول .

كان أول مكان يصل إليه الأسطول في الساحل الأفريقي أمبازا ( Ampaza ) وقتل ملكها ومساعدوه وأحرقت المدينة وبعدها توجه الأسطول إلى باتي ( Pate ) حيث طلب الحاكم فيها الرحمة والمغفرة من البرتغاليين ، ثم إلى جزيرة لامو ( Lamo ) حيث سبق لملكها أن قام بتسليم روكو دي برتو ( Roqe de Brito ) ومرافقيه إلى الأسطول العثماني .

هرب ملك لامو قبل وصول الأسطول تاركاً زوجته التي قام البرتغاليون بتنصيبها ملكة على الجزيرة انتقاماً من زوجها . . . وواصل الأسطول إبحاره إلى مالندي ، وقام ملكها باستقبال البرتغاليين استقبالاً عظيماً ورافقهم إلى ممباسا .

دخل البحارة البرتغاليون مومباسا بعد استسلام ملكها وسقوط قلاعها وحصونها ، فأحرقوها بعد أن خرج منها ملكها ورعاياه طالباً من البرتغاليين الصفح عنه ومساعدته في عودته إلى ملكه . ورغم وساطة ملك مالندي لم يوافق مارتيم

ألفونسو على ذلك وغادرها هو وأسطوله إلى الخليج ماعدا سفينة واحدة أرسلت إلى نائب الملك في الهند حاملة رأس ملك إمبازا المشوه .

تزامنت مغادرة السفن البرتغالية مع وصول السفينة سلفادور والتي كانت قد أبحرت من ( كوشين ) في الهند إلى أوروبا في نهاية ١٥٨٦م ، محملة بالتوابل وكانت قد صادفتها عاصفة في الطريق ، قرر قبطانها – بعد الخلل الذي أصاب سفينته – الالتحاق بالأسطول البرتغالي في البحر الأحمر وتم قطرها إلى هرمز حيث تحطمت بعد نقل البضائع إلى سفن أخرى .

ويذكر تينحسيرا لنا أنه في زيارته لمسقط شاهد فيها الكم الهائل من السمك وتعجب من طرق صيده بواسطة البحارة العمانيين .

وصل الأسطول بعدها إلى هرمز ليواصل رحلته إلى جزيرة قشم ولكنه يقفل عائداً لمرض القائد العام مارتيم ألفونسو الذي توفى بعد عودته إلى هرمز ودفن فيها .

في سبتمبر ١٥٨٧م غادر الأسطول البرتغالي هرمز متوجهاً إلى ( جوا ) تحت قيادة والد زوجة مارتيم ألفونسو ، سيماو دي كوستا ليصل إلى جوا في أكتوبر من نفس العام .

ورغم أن تينحسيرا كان مرافقاً لهذا الأسطول منذ بداية الرحلة في جوا فإننا نجد أن الوصف الوحيد الذي تركه لنا هو عن مدينة مسقط فقط أما المناطق الباقية فلم يذكرها على الإطلاق .

لقد كان الوجود البرتغالي آنذاك يمتد إلى بحر الصين ويتمتع بمراكز عسكرية وتجارية مهمة أسست لثلاث مهمات ، الأولى عسكرية والثانية تجارية ، والثالثة – في بعض المناطق فقط – إدارية ، تدير أمور البلاد الواقعة فيها . ولقد كانت ملقا أحد المراكز الاستراتيجية المهمة في بحر الصين والتي دخلها الملك راجال ( Rajal) ملك جوهور ( Johor ) ، ودمرها في بداية عام ١٥٨٧م ، بعد أن أغلق المسارات المائية بين الهند والصين في مضيق ملقا ، الأمر الذي أدى إلى المجاعة

والتشــرد ، بالإضافــة إلى التدمـــير السـابق .

في مــارس ١٥٨٧م دعـــي نـــائب الملـك إلى اجتمـاع المجلـس الأعلـى للإدارة فـــي جـــوا ، وباســين ، وشـول ، لمساعدة المدينـة المنكوبـة .

وفي ٢٨ أبريـــل ١٥٨٧م توجـــه الأسطول البرتغـالي - المكون مـن ست عشـرة قطعـة مـن الغلايـين والسـفن الأخـرى بكـامل عتـاده وجنـوده الخمسـمائة وتحـت قيـادة د. بـاولو دي ليمـا - ووصـل إلى مدينـة جوهـور وأحرقها ودمرهـا تدميراً كـاملاً .

لقـد كـان الأسـطول البرتغـالي موزعـاً آنـذاك بـين هرمـز ، وشـرق أفريقيـا ، وجـوا . وتدعمـه حاميـات عســكرية يتحــول بواســطتها إلى أسـطول حربـي في وقـت الحاجـة ، ويباشـر مهمـات التجـارة في أغلـب الأوقـات . لقـد باشـر البرتغـاليون سياسـة الأرض المحروقـة والقتـل والتنكيـل والاضطهـاد أينمـا حلـوا في الشرق ، ولقد طبقـت هـذه السياسـة في هرمـز ، ومسقط ، وعـدن ، وشـرق أفريقيـا ، والبحريـن ، وجـوا ، وملقـا ، وفي سيلان ( كولبـو ) عندمـا ثـار عدوهـم الأول كمـا يطلقـون عليـه ( راجـا سينها ) ضـد الوجـود البرتغـالي في سيلان . وكـانت هـذه الثـورة مـن أخطـر التهديـدات الـتي واجههـا البرتغـاليون في الشـرق ، حيـث استلزم القضـاء عليهـا مشـاركة كـل الأسـاطيل البرتغاليـة .

ويـروي لنـا المترجم عـن هـذا العصيـان وبدايتـه في عـام ١٥٨٦م عندمـا حـاصر راجـا قلعـة كولبو ومنع عنهـا المـؤن ، فـاضطرت الحاميـة المتمركـزة في هـذه القلعـة إلى طلـب المسـاعدة مـن الهنـد . ونظـراً لعـدم وجـود سـفن الأسـطول المطلوبـة آنذاك ، تـأخر وصـول المـدد البحـري حتـى سـبتمبر ١٥٨٧ وذلـك بعـد إلحـاح مـن قـائد حاميـة كولبـو ( جـو كـوريا دي بريتـو ) . في ذلـك الوقـت ، قـرر نـائب الملـك ( دوم دوارتـي ) ومجلسـه الحـاكم في جـوا ، إرسـال أسطول ضخـم إلى كولبو علـى أن يلتحـق بـه أسطول ( د. بـاولو دي ليمـا ) والـذي تم إبلاغـه بالتوجـه الفـوري إلى سـيلان . . . واختـير لقيـادة سـفن الأسـطول المشـتركة القبطـان ( مـانويل ديسوزا كوتينهـو ) والذي لقـب بقبطـان بحـر الهنـد برتبـة

( عميد ) . ومع استعدادات جوا لإرسال أسطولها وصل أسطول هرمز والخاص بـ ( ألفونسو دي ميلو ) بقيادة ( سيما دي كوستا ) ورحالتنا ( بيدرو تينحسيرا ) ، والذي انتهز فرصة توجه ( مانويل ديسوزا ) إلى سيلان فالتحق به بعد حصوله على تصريح خاص بذلك .

في ٤ فبراير ١٥٨٨م توجه الأسطول البرتغالي من جوا إلى سيلان وفي مقدمته الغلايين البرتغالية تحت قيادة ( مانويل ديسوزا ) و ( دي جورينمو دي أزفيدو ) ومعها ست عشرة سفينة أخرى وستمائة رجل ، ليصل إلى جزيرة ( رامس فارام - Rames Varam ) ومنها إلى جزيرة ( منار - Manar ) ثم في النهاية إلى (كاريتيفو - Karaittivu ) .

وفي الموقع الأخير أرسلت الرسائل لقائد حامية كولبو تطلب منه إرسال ضابطين برتغاليين وجنوداً محليين إلى القبطان (مانويل ديسوزا ) والذي كان قد قرر إحراق وتدمير المنطقة الواقعة بين ( كاريتيفو ) و ( وكولبو ) .

وصلت المجموعة المطلوبة بقيادتها البرتغالية إلى الموقع المعين بعد أن دمرت كل القرى في طريقها وتم إبلاغ مانويل ديسوزا عن التحصينات الأهلية لمدينة كولبو وبلدة شيلاو .

بعد وصول هذه الأخبار ، قرر مانويل ديسوزا التوجه إلى بلدة شيلاو التي وصلها بعد أن سبقه دي جورينمو دي أزفيدو إليها وقام بتدميرها وسلبها ثم أحرقها . فتابع مانويل ديسوزا إبحاره إلى كولبو في ١٨ فبراير مطلقاً مدافع سفنه الحربية ابتهاجاً بالنصر ورفع الحصار عنها .

بعد دخول القوات البرتغالية إلى كولبو ولقائها مع الجنود المحاصَرين في قلعتها ، عقد مجلس الحرب اجتماعه الأول لتخطيط الأعمال الحربية المطلوبة ضد ( راجا ) . في هذا الاجتماع كان مانويل ديسوزا مصراً على الهجوم المباشر رغبة منه في الحصول على الثناء والشهرة قبل وصول أسطول ( دي باولو دي ليما ) .

ومع انعقاد هذا المجلس أرسل راجا سفراءه إلى القادة البرتغاليين طالباً منهم مهلة زمنية ، حتى يتمكن من القيام بالشعائر الدينية في مدينته وعاصمته سيتا فاكا ( Sitavaka ) ، الأمر الذي جعلهم يعتقدون أنه خدعة وتمهيداً للانسحاب . لذا تقرر الهجوم الفوري في ليلة ٢١ فبراير ، ودمرت القوات البرتغالية تحصينات الملك راجا ، وقتلت رجاله ، وأحرقت قراه . في اليوم التالي وصل أسطول دي باولو دي ليما إلى كولمبو وشارك في أعمال التدمير التي استمرت إلى بداية مارس ١٥٨٨م عندما غادرت الأساطيل كولمبو عائدة إلى جوا .

ورغم الأحداث الجسيمة والتي يتحاشى بيدرو تينحسيرا ذكرها ، نجده يذكر رحلة العودة إلى جوا فقط وينقلها لنا كوتو عن الرحالة تينحسيرا قائلاً : " عاد مانويل ديسوزا في أسطول حضر إلى كوشين وغادرها بعد أن ترك وراءه سفينة كبيرة بقيادة دي جورينمو ومعه سفينتان صغيرتان ، وذلك من أجل لقاء سفن الأسطول العائدة من الصيد وقيادتها إلى جوا .

انتهز بيدرو تينحسيرا فترة بقائه في كوشين ليقوم بزيارة قلاع ( كنارا وكانانور ) .

في نهاية مارس وصل مانويل ديسوزا إلى جوا ودخلها دخول الأبطال حيث كان في استقباله نائب الملك ومواطنو المدينة . بعدها بأيام وصل دي باولو دي ليما وقام نائب الملك ورعاياه باستقباله استقبالاً أعظم من سابقه . وفي ٤ مايو ١٥٨٨م توفي دي دوارتي دي منزيس ( نائب الملك ) ودفن في احتفال مهيب في كنيسة ريس ماجوس ونقلت رفاته بعد ذلك إلى أبرشية ( الثالوث المقدس ) في سانتاريم .

وبعد وفاة نائب الملك فُضّت الوثيقة الخاصة بتولية السلطة والتي ذكر فيها أن الحاكم القادم يجب أن يكون ماتياس دي البوكيرك ( Mathias de Albuquerque ) على أن يحكم الهند إلى أن يصل مانويل ديسوزا والذي عُين حاكماً في احتفال مشهود .

بعد عودة بيدرو تينحسيرا من كوشن يبدو أنه بقي في جوا حتى

عام ١٥٨٨م ، ولكنه كعادته السابقة نراه قد وجد لنفسه حجة أخرى للسفر ثانية ، فقد تواردت أنباء عن نية القائد البحري التركي علي بك ( والذي هاجم المواقع البرتغالية في شرق أفريقيا عام ١٥٨٦م ) في هجوم آخر يتم الاستعداد له ومتوقع حدوثه بنهاية ١٥٨٨ أو بداية ١٥٨٩م .

وكما توقعت السلطات البرتغالية في جوا ، توجه القائد البحري التركي علي بك إلى الصومال ، متوقفاً في مقديشو حيث استقبله الأهالي استقبالاً رائعاً ومنها اتجه جنوباً ، وكان أهالي المدن الساحلية يزودونه بالمال والمؤن ليصل إلى مالندي ليلاً حيث كان القائد البرتغالي فيها ( ماتياس منديس دي فاسكونيلوس ) على علم بتقدم الأسطول التركي - الذي كانت بعض سفنه قد صودرت في هجوم سابق على الساحل الأفريقي من البرتغاليين - وقد قام القائد البرتغالي بنصب بعض المدافع على التلال الرملية والتي أدى قصفها لسفن الأتراك إلى انسحابها وتوجه علي بك إلى مومباسا لإقامة قلاع تحصينية فيها .

وفي ٣٠ يناير ١٥٨٩م أبحرت سفن الأسطول البرتغالي من جوا متوجهة إلى شرق أفريقيا بعد وصول أنباء عن دخول الأسطول التركي في مياه شرق أفريقيا - وكما كان الاستعداد البرتغالي كبيراً للحملة المتوجهة إلى سيلان فإن الأسطول المتوجه إلى شرق أفريقيا وبقيادة أخي مارتيم ألفونسو ( توما ديسوزا كوتينو ) كان كبيراً أيضاً حيث اشتمل على عشرين سفينة بين كبيرة وصغيرة ، وتسعمائة من الرجال المسلحين .

واجه هذا الأسطول عواصف قوية أدت إلى فقدان ثلاث من سفنه . ومع وصول السفن الباقية إلى برافا ( Brava ) في ٢٠ فبراير ، نقلت إلى قائده أخبار علي بك فتوجه في ٢٣ من نفس الشهر إلى أمبازا ، وإلى قلعتها وأميرها الموالي للبرتغاليين ومنها إلى جزيرة لامو ، حيث تلقى أخباراً بمغادرة علي بك من مالندي إلى مومباسا .

في ٣ مارس وصل الأسطول البرتغالي إلى مالندي محاولاً اللحاق بالأسطول التركي ومنعه من الهرب من مومباسا ، وغادر مالندي يوم الأحد ٥ مارس متوجهاً إلى مومباسا ليواجه مقاومة بسيطة من الأسطول التركي .

في ٧ مارس دخل البرتغاليون مومباسا للمرة الثانية ومعهم ملك مالندي وأمير بمبا ليجدوا أن الأتراك قد توغلوا في الغابات .

لم يكن التخطيط التركي جيداً حيث حوصر علي بك وبحارته بين الأسطول البرتغالي بحراً وقبائل الزمبا من جهة اليابسة وفتكت القبائل المذكورة بالجيش التركى مما اضطر قائده وما تبقى من الجنود للتوجه إلى البحر ثانية لتلتقطهم السفن البرتغالية .

وفى ٢٢ مارس غادر توما ديسوزا مومباسا عائداً إلى مالندي يرافقه الجنود الأتراك وقائدهم علي بك والسفن التركية ، وقبل مغادرة البحر الأحمر قام هذا القائد البرتغالي باعتقال ملك لامو وقتله في باتي ، ونصب مرة أخرى ملك بمبا بعد ثورة الأهالي عليه وأخذ وعداً من أمراء أمبازا وملوك باتي وسيو بالولاء لأسيادهم البرتغاليين والتاج البرتغالي . وفي طريق عودته في ١٥ أبريل توقف في سوقطرة في ٢٨ من نفس الشهر للتزود بالماء ، ثم توجه إلى جوا حيث وصلها في ١٦ مايو ودخلها في استقبال مهيب يرافقه علي بك وبيدرو تينحسيرا .

في هذه المرة يبقى بيدرو تينحسيرا لمدة عامين ١٥٩٠ - ١٥٩١ في مدينة كوشين . ويذكر لنا أن وباء الموت الصيني انتشر فيها (الكوليرا الآسيوية ) .

وفي ١٥ مايو ١٥٩١م وصل نائب الملك الجديد ( ماتياس دي البوكيرك ) على ظهر السفينة ( بوم جيسوس ) بعد سنة من مغادرته لشبونة . وقام ( مانويل ديسوزا كوتينو ) بتسليمه سيف القيادة .

وفي العاشر من يناير ١٥٩٢م أبحرت نفس السفينة التي جاءت بـ البوكيرك وعلى ظهرها الحاكم السابق مانويل ديسوزا وزوجته وكل متعلقاته النفيسة مع منقولات ثمينة أخرى - متجهة إلى البرتغال .

ولكـــن ، وفي طريقهــا إلى موزمبيـــق تحطمت واختفى كـل مـن فيهـا ومـا كـانت تحمله إلى الأبـد .

ولوعدنــا إلى مذكــرات بيـــدرو تينحسيرا ، نجـد أنـه في عـام ١٥٩٣م عـاد مـن الهند إلى هرمـز وبقـي فيهـا حتـى عـام ١٥٩٧م بـاذلاً كـل جهـده في دراسة الفارسـية وتـاريخ فـارس ، ومترجمـاً بصـورة ملخصـة روايـات ميرخواند وتوران شاه . ومقدمـاً لنـا صـورة مفصلـة مـن هرمـز وأحداثهـا أيام إقامتـه فيهـا .

يذكـر المؤلـف أنـه قـام بزيـارة مدينـة مـازاندران وشمـال فـارس في عـام ١٥٩٧م . وفي نفـس العـام رافـق الأسطول مـرة أخـرى إلى ملقـا حيـث طلـب نـائب الملـك في الهنـد مـن الأسـاطيل البرتغاليـة التوجـه مـرة أخـرى إلى هنـاك استعداداً لهجـوم وشيك مـن البرتغـاليين .

بعـد وصولـه إلى أرخبيـل الملايو ، قضى بيدرو تينحسيرا جـل وقتـه في رصد الحياة الفطريـة وأنـواع النباتـات فيهـا . وانطلاقـاً مـن هـذا الفصل مـن رحلاتـه يبـدأ الرحالـة في إعطائنـا صـوراً متواصلـة وكتابـات دقيقـة عـن تنقلاتـه ، ويذكـر في أول فصـل مـن ( يوميات رحلتي ) أنـه في ملقا ، ويـود العـودة إلى البرتغال عـن طريـق جـزر الفلبين ولـذا انتهـز فرصـة مغـادرة السفينة المتوجهـة مـن ملقا إلى الفلبين ( حاملـة الرسـائل مـن قـائد ملقا البرتغـالي ، إلى القـائد الأسباني في الفلبـين يخـبره فيهـا باحتمـال دخـول الأسـطول الهولنـدي ميـاه المنطقـة ) يقـول أنـه انتهـز الفرصـة وغادر ملقا إلى الفلبـين علـى ظهـر هـذه السفينة التي وصلـت بـه في ٢٢ يونيـو إلى مينـاء مـانيلا .

لم يسـتقر المقـام برحالتنـا في الفلبين . فقـد استطاع الحصـول علـى تصريـح مـن الحـاكم الأسباني دوم فرانسسكو تيلـو دي مـنزيس ( Dom Francisco Tello de Menzis ) في ١٨ يوليـو لمرافقـة قافلـة بحريـة مـن أربـع سـفن جديـدة متوجهـة إلى أمريكـا . وبعـد قضـاء فـترة قصيرة في مضيـق سـان برنـاردينو ، توجهـت السفن في اتجـاه شمـال شـرقي لتصـل إلى أكـابولكو في أول ديسـمبر ، ومنهـا يدخـل بيـدرو تينحسـيرا علـى ظهـر الخيـول إلى مدينـة المكسـيك ، الـتي وصـل إليهـا في منتصـف ليلـة عيـد

الميلاد ، وذلك بعد ستة أشهر من مغادرته ملقا . وبعدها يغادر في مايو ١٦٠١ متوجهاً إلى البرتغال ماراً بـ سان جوان ، وكوبا ، وبرمودا ، وسان لوكار ، وفي النهاية يصل إلى لشبونة في ٨ أكتوبر ١٦٠١م .

قبل مغادرة بيدرو تينحسيرا ملقا ، أودع مبلغاً مالياً لدى أحد أصحابه طالباً منه إرساله له إلى لشبونة بواسطة السفن البرتغالية ولكن يخيب أمله ولا يصل المبلغ المذكور . لذا نجده ورغماً عنه يقرر السفر إلى الشرق مرة أخرى في ٢٨ مايو ١٦٠٣م على ظهر إحدى سفن الأسطول المتوجه إلى الهند بقيادة بيرو فيرتادو دي مندوكا ( Pero Fertado de Mendoca ) ويصل إلى جوا في ١٤ أكتوبر من نفس العام .

لقد نال في رحلته هذه ما أراد وقرر العودة بعد خمسة أشهر عن طريق وادي الرافدين .

في ٩ فبراير ١٦٠٤ ، استقل بيدرو تينحسيرا سفينة برتغالية متوجهة إلى الخليج ، فتوقف في اليوم الثاني من شهر مارس في مصيرة ومن ثم حول رأس الحد إلى خليج عمان ويتوقف مرة أخرى في سيفا وبعدها يتوجه إلى هوفر بعد التزود بالماء والخشب من مسقط . وبعد شهر من وصوله إلى هرمز ( في ١٤ أبريل ) يسافر بيدرو إلى البصرة في سفينة صغيرة تابعة لقبطان هرمز البرتغالي ماراً بالمضيق بين جزيرة قشم واليابسة ، ومن ثم إلى الساحل الشرقي للخليج متخذاً وجهته الشمال الغربي متوقفاً بين فترة وأخرى بسبب التيارات القوية .

كانت أول منطقة ترسو فيها السفينة جزيرة لار ( الشيخ شعيب ) لتصادف سفينة أخرى قد هوجمت بواسطة أهالي بندر نخيلو . بعد بضعة أيام تتوجه السفينة إلى شيوة وتضطر للعودة إلى هرمز بسبب الرياح العاتية في ٢١ مايو ١٦٠٤م . وفي محاولة ثانية غادر على نفس السفينة ( والتي اتجه ربانها هذه المرة في مسار بحري جنوب جزيرة قشم ) ، ونجحت هذه المحاولة حيث وصلت السفينة إلى جزيرة خرج في ٢٥ يوليو . وفي تلك الجزيرة يتسلم قيادة السفينة ربان محلي ويبحر بها إلى شط العرب

ورغم بعض الصعوبات تصل إلى هناك في أول أغسطس من نفس العام . ويبدو أن السفينة بقيت في شط العرب خمسة أيام توجهت بعدها إلى مدينة سيراج ( Serrage ) حيث نقلت حمولتها إلى البصرة .

انتقل بيدرو من سيراج إلى البصرة عن طريق قناة مائية يرافقه تاجر فينيقي واثنان من البرتغاليين كانا معه من البداية في هرمز . وكان لهذا التاجر الفينيقي ( السوري ) منزل في البصرة قضى فيه بيدرو عدة أيام قبل التحاقه بالقافلة المتوجهة عبر الصحراء العربية يرافقه دييجو دي ميلو ( Diego de Melo ) بعد حصوله على ترخيص خاص بذلك . هذا الصديق الذي أصبح مصدر إزعاج لحالتنا أثناء رحلته . وكان طريق القافلة المذكورة يمر بمشهد الإمام علي ومن ثم مشهد الإمام الحسين ( كربلاء ) حيث تزوج فيها رئيس القافلة ودعا جميع مسافريه إلى حفل الزواج .

في ٢٩ سبتمبر توجه أغلب المسافرين من التجار إلى بغداد ، وبقي بيدرو ومرافقه دييجو دي ميلو في كربلاء لعدم توفر الجمال لإتمام الرحلة . وبعد عدة أيام عبرا نهر الفرات ووصلا بغداد في اليوم الرابع من أكتوبر حيث سكن تينحسيرا في منزل صديق من هامبورج كان قد تعرف عليه في الهند وكان هذا الصديق يحاول بفعله هذا رد بعض الجميل لبيدرو الذي كان بدوره قد أحسن ضيافته في الهند . وكان حصار حلب قائماً آنذاك ، لذا اضطر رحالتنا إلى البقاء في بغداد لعدة أشهر .

في ١٢ ديسمبر انتقل بيدرو تينحسيرا ، وصديقه الألماني ، ودييجو فرناندو ، ودييجو دي ميلو من بغداد عابرين الفرات مرة أخرى ليصل الجميع إلى مدينة انا ، ومنها في ١٣ يناير ١٦٠٥م يغادر الجميع إلى حلب على الجمال . وبعد مسيرة ثمانية عشر يوماً وصلت القافلة إلى قرية سكانه حيث يثير دييجو دي ميلو إشكالات جديدة بسبب حماقته . ومن قرية سكانه غادرت القافلة في ٩ فبراير في طريقها إلى حلب وتعرضت أثناء السير لقطاع الطرق الذين لم يتمكنوا من بيدرو وأصحابه . وفي ٥ فبراير وصل

الجميع إلى حلب حيث قضى بيدرو تينحسيرا شهرين في انتظار السفينة التي سوف تقله من الإسكندرونة إلى البندقية .

في الجزء الباقي من هذه الرحلة ، التحق اثنان من التجار الفينيقيين ببيدرو وصاحبه دي ميلو متوجهين جميعاً إلى الإسكندرونة في ٥ أبريل .

وبعد مسيرة ثلاثة أيام وصل الجميع مرة أخرى إلى الإسكندرونة. وبقوا في هذه المدينة الساحلية إلى أن غادروها في الثاني عشر من أبريل إلى البندقية على متن سفينة فينيقية .

وبعد توقف في ساليناس في قبرص وجزيرة زانتي وصلت السفينة إلى استريا في التاسع من يوليو ومنها انتقل بيدرو وصديقاه في سفينة أخرى تعرضت للعواصف قبل وصولها إلى البندقية في الحادي عشر من يوليو .

ويعلق بيدرو على خبرته في هذه المدينة بأنه " من المستحيل العمل في مكان مستحيل " . لذا غادر بيدرو البندقية بعد زيارته لأغلب المقاطعات الإيطالية إلى مملكة برمونت وجبال الألب وسافوي وفرنسا وهولندا الأسبانية مستقرا في أنتورب .

ويعلق الدكتور كايسر لنج على استقرار بيدرو في أنتورب : " لقد كانت أنتورب أقدم مستعمرة هولندية للمنفيين من الأسبان / البرتغاليين . وفيها استقر بيدرو تينحسيرا ليبدأ طباعة كتابه ( أصول وسلالات ملوك هرمز ) ويكتب الأسفار من الهند إلى إيطاليا . ونعتقد أنه توفى - هنا وليس في فيرونا - في أواسط القرن السابع عشر باقياً على يهوديته منتقلا مع آبائه إلى عالم آخر أحسن من عالمنا " .

لا نستطيع تأكيد هذه المعلومات المقدمة من الدكتور كايسر لنج ، حيث لا توجد لها مصادر موثقة حتى الآن .

## الفصل الثاني

# وصول الإنجليز والهولنديين إلى الشرق

كانت السنوات التي قضاها بيدرو تينحسيرا في رحلاته الشرقية ( ١٥٨٦ - ١٦٠٥م ) من أهم السنين في تاريخ البرتغاليين في الشرق . ففي عام ١٥٨٠م نودي بالملك فيليب الثاني ( ملك الأسبان ) ملكاً على البرتغال أيضاً وبهذا دخلت البرتغال فيما أطلق عليه [ستون سنة من الحبس ] والتي أدت إلى فقدان البرتغال لكل مواقع نفوذها في الشرق تقريباً .

هناك حدث آخر وعلى نفس المستوى من الأهمية طغى على تاريخ الأساطيل الأوروبية وهو عودة القائد البحري دريك ( Drake ) من جولة حول العالم ودخوله بريطانيا دخول الأبطال . وكانت نتائج جولة دريك مؤشراً لحروب دبلوماسية انتهت بصراع بحري مرير بين أسبانيا وبريطانيا .

قبل عودة دريك إلى بريطانيا كان جون نيوبري ( John Newbery ) قد توجه إلى طرابلس في سوريا ( في ١٩ سبتمبر ١٥٨٠م ) ومنها إلى وادي الفرات ، ثم فارس ، وهرمز ، وعاد من فارس إلى أرمينيا والقسطنطينية وأوروبا ، ليصل في النهاية إلى لندن في أغسطس ١٥٨٢م .

في بداية ١٥٨٣ توجه نيوبري مرة أخرى ومن نفس الطريق إلى طرابلس يرافقه هذه المرة رالف فيتش ( Ralph Fitch ) ووليام ليدز ( William Leedes ) وجيمس ستوري ( James Story ) . وبعد مرورهم بنفس المناطق التي مر بها نيوبري ، وصل الإنجليز الأربعة إلى مملكة هرمز في ٥ سبتمبر ١٥٨٣م .

أثار وصول الأربعة قائد هرمز ماتياس البوكيرك فأمر باعتقالهم اعتقاداً منه بأنهم جواسيس لدوم أنتونيو ، المطالب بعرش البرتغال آنذاك . وبعد فترة في سجون هرمز ، نُفِي الجميع إلى جوا ، حيث بقوا في سجونها إلى أن استطاع الأب اليسوعي توماس ستيفنز ( Thomas Stevens ) إخراجهم بكفالة على أن يباشروا مهنة التجارة في جوا .

في ٥ أبريل ١٥٨٥م هرب فيتش ، ونيوبري ، وليدز من المقاطعة البرتغالية ووصلوا بعد عدة أيام إلى بلاط ( المغول الأعظم ) أكبر في فتح بور سيكري .

في فتح بور قام ليدز بالعمل في بلاط أكبر ، وبدأ نيوبري رحلة العودة في ٢٨ سبتمبر ١٥٨٥ م من لاهور إلى القسطنطينية ، ومنها إلى لندن ، أما فيتش فقد عبر نهر الكانج إلى البنغال ، ثم إلى شيتاكونج وبيجو ، وفي النهاية إلى ملقا في ٨ فبراير ١٥٨٨ ، وينتقل مرة أخرى منها إلى بيجو والبنغال ، وكوشين وجوا ، وشول ، وهرمز والبصرة ، ثم إلى حلب عائداً إلى بريطانيا التي وصلها في ٢٩ أبريل ١٥٩١م .

لقد ذكرنا رحلة فتش بشيء من التفصيل لسببين : الأول أنه كان في ترحال في الشرق في نفس الفترة الزمنية ، حتى أنهما كانا في جوا في نفس السنة ١٥٨٩ ، مع علمنا الكامل بأنهما لم يلتقيا فيها .

والسبب الثاني هو إصراره على زيارة المناطق التابعة للنفوذ البرتغالي مثل ملقا وجوا وهرمز وبقاؤه في الأخيرة خمسين يوماً قبل أن يتوجه إلى البصرة . ولإعطاء السبب الثاني أهمية أكثر نجد أنه في ٢٥ فبراير ١٥٨٥م كتب ملك الأسبان من لشبونة إلى نائب الملك في الهند ( دوارتي دي منزيس ) قائلاً : " أخبرني نائب الملك ( دي فرانسسكو ماسكريناس ) بأن قائد قلعة هرمز ماتياس البوكيرك أرسل له أربعة من السجناء الإنجليز الذين وصلوا إليها عن طريق البصرة وأثاروا الشكوك في أنهم مرسلون من قِبَل دوم أنتونيو ويحملون رسائل منه ، ولكنهم يدّعون أنهم من التجار . لقد قام قائد قلعة هرمز بإيداعهم السجن إلى أن نقرر شأنهم ، إنني أعتمد عليك في معاقبتهم بما تراه مناسباً إذا ثبت جرمهم ، وذلك بعد استقصاء الحقائق بصورة خاصة على أن تتخذ الإجراءات اللازمة لمنع حدوث مثل هذا في المستقبل ، وعدم السماح لأمثالهم بالدخول إلى ممتلكاتنا وخاصة هرمز التي نعتبرها المنفذ الذي يمر فيه أمثالهم وسوف تخبرني بما قمت به " .

إن أهمية السبب الثاني تبدو لنا أكثر جاذبية الآن خاصة لو عرفنا أن هرب هؤلاء السجناء من السجون البرتغالية في جوا حدث بعد شهرين من وصول نائب الملك ، الذي كتب له الملك فيليب توجيهاته ، لذا نجد استياء

الملك من هذا الحادث واضحاً في رسالته إلى نائب الملك في لشبونة في ١٣ فبراير ١٥٨٧م : " إنني مستاء جداً لهرب الإنجليز الذين أخبرني عنهم ماتياس البوكيرك ، وقام بإرسالهم من قلعة هرمز إلى سجون جوا في عهد فرانسسكو ماسكاريناس ، والذين توفى اثنان منهم بعد هروبهم وبقي آخران في مناطق أخرى ( أحد اللذين ما زالوا أحياء هو ستوري الذي بقي في جوا وعمل بالرسم ، والثاني هو ليدز ، أما الميتان منهم فالقصد هنا نيوبري ولانعلم عنه شيئاً ، أما فتش فنحن نعلم أنه لم يمت ) إنني أطلب منك البحث عنهم وإلقاء القبض عليهم وأن تؤمن وتشدد حمايتهم ، وأن تحقق في ملابسات هربهم ، وأن تجد الأشخاص المشتركين معهم وتخبرني بقرارك " .

بعد عامين من الرسالتين المذكورتين كتب الملك رسالة ثالثة إلى نائبه : " إن ما ذكرته لي عن توقعاتكم بوصول دوم أنتونيو حاكم كراتو السابق ، واحتمال وصوله طرفكم والاستعدادات التي قمت بها قبل حلول الشتاء لحماية مضيق مكا ، صار معلوماً . أما بخصوص الإنجليز الأربعة الذين توجهوا إلى الهند في عهد الكونت دوم فرانسسكو ماسكاريناس والذين اكتشفتم أنهم من التجار وقد توفى ثلاثة منهم وبقي الرابع في جوا وتزوج بها ومارس مهنة الرسم ، فإني أطلب منكم التأكد مرة أخرى عن القصد من زيارتهم " .

ويذكر الملك أسماء هؤلاء الإنجليز في آخر رسالة له بتاريخ ١٢ يناير ١٥٩١ مرسلة إلى نائبه يقول : " بالنسبة للإنجليز الثلاثة والذين هربو إلى الهند واثنان منهم في عداد الموتى ، أود أن أخبركم بأن تطلبوا من الإنجليزي الرابع ، والذي يمارس مهنة الرسم في جوا الآن ، مغادرة المناطق التابعة لي والعودة إلى بلاده في أول سفينة متجهة إلى هناك " .

إننا نذكر هذه الرسائل والأوامر الصادرة من الملك بشيء من الغرابة ، حيث أنه وبرغم إنذارات الملك إلى نوابه نجد أن فتش يقضي فترة في ملقا ١٥٨٨ ويعود إلى كوشين ١٥٨٩م ويبقى فيها سبعة أشهر دون أن يتعرض له أحد من البرتغاليين ومن ثم وصوله إلى هرمز ومغادرته إلى لندن دون اعتقال أو تحقيق .

وربما يرتبط هذا كله بتصرفات شخصية أخرى ذات أهمية كبرى في

وصول الإنجليز والهولنديين إلى الشرق حيث أنه وبعد شهرين من مغادرة رالف فتش وأصدقائه لندن ، يتوجه في ٨ أبريل ١٥٨٣ رجل هولندي يدعى جان هويخن لينشوتين ( Jan Huyghen Linscoten ) من لشبونة إلى الهند .

لقد كتب هذا الهولندي الكتاب المشهور المسمى ( إيتنراريو ) أو المذكرات الخاصة والتي نعتقد أن بيدرو تينحسيرا قد قرأه قبل البدء في كتابه ، ومع تواجد الاثنين في جوا في عام ١٥٨٨ إلا أننا نعتقد انهما لم يلتقيا ، ولكن نكاد نجزم بأنه لو لم يكتب الهولندي كتابه ، لكتب تينحسيرا كتاباً مماثلا لذلك .

ورغم أن الهولندي قد غادر كوشن بعدة أشهر قبل وصول فتش إلى البنغال ، إلا أن الأول لم يصل إلى لشبونة إلا بعد ثلاث سنوات في ٢يناير ١٥٩٢م .

ووصل فتش إلى لندن في ٢٩ أبريل أي قبل وصول الهولندي إلى لشبونة ، وقبل ثلاثة أسابيع من مغادرة أول أسطول إنجليزي إلى الشرق تحت قيادة القبطان ريموند ( Raymond) والذي استطاعت سفينة واحدة من الثلاث ( Edward Bonaventure) إكمال الرحلة تحت قيادة القبطان جيمس لانكستر ( James Lancaster) .

إننا نعتقد بأن قرار الإنجليز بإرسال أسطولهم إلى الشرق هو الذي أثار موضوع كتابة الرسائل من ملك الأسبان لنائبه في الهند في ٢٦ مارس عام ١٥٩١م قائلا : " لقد بلغت قبل عدة أيام أن هناك استعداداً في إنجلترا لإرسال السفن إلى جزيرة سانتا هيلانة لانتظار السفن القادمة إليها ، لذا ننصح السفن المتوجهة في ذلك الاتجاه أن تحمل ما يكفيها من الماء وعدم التوقف في هذه الجزيرة . وإذا ما اضطروا إلى التوقف فلتكن ( أنجولا ) . وعلى جميع السفن الانتظار في كورفو في بحر الأزور ، حتى يتمكن الأسطول من مرافقتهم في رحلة العودة إلى لشبونة " .

ولدينا اليوم وثيقتان برتغاليتان عن رحلة لانكستر . الأولى كتبت بعد سنتين من بدء رحلته إلى الشرق ويقول فيها الملك : " صديقي نائب الملك ، أنا الملك أرسل لك تحياتي ، لقد كتب لي لويس فرنانديس دوارتي [ والموجود في بلاط الملك شريف في مراكش ] أنه يوجد في مراكش رجل إنجليزي يتحدث عن

مناطق تجارية بعيدة مثل سومطرة وبيجو ، والتي لا توجد لنا قلاع فيها . وأنصح أن نباشر العمل في ذلك وأن نقوم بالتبادل التجاري مع أهالي هذه المناطق . إن هذا الإنجليزي يحاول الحصول على المساعدة من أهل مراكش على المعلومات التي سوف تساعده في الوصول إلى هذه المناطق . ومع وجود الشكوك في تمكنه من ذلك أرجو منك أن تمنع أي إنجليزي من وضع قدمه في هذه المناطق من أجل التجارة . وأن ترتبط بملوك هذه المناطق بمعاهدات صداقة مع دولتنا أو مع الدول الحليفة لنا ، والقريبة منهم "

كُتب بلشبونة في أغسطس ١٥٩٣م

## استطراد :

وعليك أن تعلم أن الإنجليزي المذكور قد ذكر لنا أنه ومنذ سنتين غادرت إنجلترا سفن تحت قيادة القبطان تمبرتو ( Tembertoe ) والذي وصل إلى هناك واستولى على اثنين من الغلايين ، لذا فإنك ترى الآن أهمية ما ذكرته لك ، وسوف تنفذ ذلك " ( يذكر السفير الفينيقي في البلاط البرتغالي أن السفن الإنجليزية هاجمت أربع سفن لشركة الهند الشرقية واستطاعت أن تستولي على اثنتين ، وقامت بإغراقهما ) .

في الوثيقة الثانية والمرسلة في أول مارس ١٥٩٤ يذكر الملك لنائبه في الهند مايلي : " لقد أخبرتني بأن السفن الإنجليزية قد وصلت إلى تيتانجون وعلى بعد ستة فراسخ من موزمبيق ، وأن الدوم جيرونيمو دي ازفادو منعهم من التزود بالماء . إنني أهنئ الدوم على فعله هذا . وعلمت منكم حالة التوتر التي سببتها هذه السفينة ، والخوف من وصول غيرها . أرجو منك مراقبة الأمور بدقة ومنع مثل هذه السفن من الوصول إلى هذه المواقع ومحاربتها ، واجعل منهم عبرة للآخرين حتى لايجرؤ أحد غيرهم على ذلك ، وأعلم أنك سوف تقوم بذلك " .

لم تكن رحلة لانكستر موفقة كما أرادتها بريطانيا ، وبناءً على نتائجها قرر الإنجليز التريث قبل إرسال أساطيل أخرى إلى الشرق .

ولكن يبدو أن بلاداً أخرى أخذت الفكرة وأرسلت هولندا سفنها الأربع في ١٢ أبريل ١٥٩٥م تحت قيادة كورنيلوس دي هوتمان ( Cornegis de Houtman ) متجهة إلى أرخبيل الشرق

حاملة معها دليل البحر للهولندي لنشوتين [والذي طبع في نفس العام في هولندا] . ومثل المحاولات البريطانية ، انتهت هذه البعثة بكارثة تذكرها رسالة الملك في ١٣ يناير ١٥٩٨م إلى نائبه في الهند : " إنني قد وصلتني الأخبار من الهند والتي تذكر وصول سفراء ملك هولندا الملك أشين ( Achin ) إلى نائب الملك ماتياس البوكيرك محاولين عقد معاهدات صداقة وأمور أخرى ، لقد علمت أنهم غادروا الهند خائبين . ورغم أن هذا الملك [ أي ملك هولندة ] قام بنقل أسقف الصين والبحارة البرتغاليين الذين تحطمت سفينتهم ، وذلك رغبة منه في الصداقة والمودة معنا . مع ذلك أنا في انتظار رسائل ماتياس البوكيرك ومنك أيضاً وأطلب منكم ذلك .

لقد أرسلت لكم رسائل مماثلة عن طريق البر بعد وصول السفن الأربع ، والتابعة لأسفار العام المنصرم ، وقد أخبرتكم في تلك الرسائل عن كل شيء وكيف قام نفس الهولنديين بالتعرض للسفن المذكورة في جزيرة سانتا هيلانة . هذه السفن كانت تحمل الفلفل والأعشاب من سومطرة وجاوة . إنني أعلم أن هولندا سوف ترسل سفناً أخرى إلى هذه المناطق ، وأن ملك هولندا الذي أثاره فشل مهمة سفرائه سوف يحاول مرة أخرى ، لذا أطلب منكم إرسال الأسطول إلى بحر ملقا ليكون مستعداً لمنع مثل هذه السفن من دخول موانئه وأن تحاربهم بكل ما يتطلبه ذلك من قوة وعتاد وألا تمد يد الصداقة لهم " .

وفي رسالة أخرى في ٢٦ يناير ١٥٩٨م يشير الملك مرة أخرى إلى سفراء الملك أشن _ ملك هولندا - ويكتب إلى نائبه أن يبدي الود لهؤلاء السفراء الآن حيث أنه [ أي ملك أسبانيا ] لا يستطيع أن يعادي ملك هولندا ، خاصة وأن سفن هولندا تجوب الآن البحار التي يسيطر عليها البرتغاليون فيقول : " إنك تذكر أن سفراء ملك هولندا عادوا في السابق خائبين من جوا بعد أن فشلوا في الحصول على مطالبهم في عهد نائب الملك ماتياس البوكيرك ، إنني سوف أرسل له [ أي لملك هولندا ] وأخبره أنه يستطيع إرسال سفنه الآن وأنهم يستطيعون التعامل في التجارة مع جزيرة سومطرة . ولك أنت والمجلس الحاكم القرار " .

في ١٠ مارس ١٥٩٨م كتب الملك مرة أخرى إلى نائبه في الهند : " إنه

وفيما مضى كان المطلوب من سفننا الانتظار في سانتا هيلانة لفترة من الزمن لا تتعدى العشرين من شهر مايو ، ولقد تبين لنا الآن أن الفترة المذكورة يمكن امتدادها إلى نهاية شهر مايو والسبب في ذلك أن إحدى سفننا أضطرت لمواجهة السفن الهولندية هناك بسبب تأخرها ووصولها وحيدة إلى سانتا هيلانا ، المطلوب الآن الحذر الشديد عند التوجه إلى سانتا هيلانا حتى لا تفاجئهم السفن الهولندية " .

يزداد الوضع تأزماً بين هولندا وأسبانيا مرة أخرى ، لذا نجد بعد أسبوع من الرسالة السابقة ، يوجه الملك رسالة أخرى إلى نائبه في الهند قائلاً : " الكونت والقائد البحري ، صديقي نائب الملك ، والإنسان المحبب لدي بعد أن كتبت لك سابقاً عن هذا الموضوع [ بخصوص الهولنديين ] وأسفارهم إلى الجنوب . إنني متأكد أنك اتخذت الخطوات اللازمة لإبادتهم في بحر ملقا وأنه أصبح الآن من الضروري إرسال سفينة أو اثنتين إلى هناك - بدلاً من أن تأخذ اثنتين من خمس سوف تتوجه إليكم هذا العام - وسوف يتوجه إليكم كوزمو دي لافيتا (Cosmo de Lafeta) الذي سوف يكون مسئولاً عن السفن المرسلة إلى ملقا لقطع الطريق على الهولنديين ، ويبدو لنا أن إنجاز هذا الأمر سوف يكون أسرع بإرسال سفينة من جوا إلى ملقا بدل الانتظار لكي تنفذوا هذه الأوامر المرسلة لكم والتي أهم شيء فيها تحقيق رغبتي وعدم الاهتمام بأي شيء آخر ، والوصول إلى هدف تحطيم هذا التدخل وصيانة كرامة سفننا "

**وقعت هذه الرسالة بواسطة الأمير في ١٧ مارس ١٥٩٨م وذلك لشدة مرض الملك الذي توفي في ١٣ سبتمبر من نفس العام .**

وعندما كانت السفن البرتغالية جاهزة للتوجه إلى الهند حاملة الرسائل الملكية المغلقة إلى نائب الملك في ٥ أبريل ١٥٩٨م أرسل سكرتير الملك الملحق التالي مع هذه السفن ،وبأمر من حاكم البرتغال : " وفي يوم مغادرة السفن وصلتنا رسالة من جزيرة ماديره تخبرنا عن توجه الأسطول الهولندي إلى الجنوب . لذا وجب عليك حسب تعليمات الحاكم أن تقوم يا صاحب السعادة بالاحتياط اللازم في خليج انتاو جل ( Antao Gil ) ، في جزيرة ساو لورنسو ( Sao Lourenco ) . وعليك بمعاقبة البرتغاليين الذين تسببوا في حوادث جزيرة جاوة الكبيرة ، خاصة

أصحـــاب الأسمـاء المذكـورة في نهايـة الفقرة ، ومرفق مع هذه الأوامر ، أوامـر أخرى سوف يقـوم بتنفيذهـا كوزمـو دي لافيتا " .

كُتبت بواسطة سكرتير حاكم البرتغال - دييجو فيلو ( Diogo Velho )

لقد كانت الرسالة التي وصلت مـن جزيـرة مـــاديره ، تحمـل المعلومـات الآتية :

## ملخص لرحلة السفن الهولندية

خليج انتاو جل الواقع قرب جزيرة س. لورينسو والـذي يوجـد على موقـع ١٦° شرق الجزيرة المذكورة ، وهو خليج متسع وتقع فيه عدة جزر صغيرة إحداها شديدة الارتفاع . ويوجـد خلفهـا موقـع مناسـب لرسـو السـفن . وهـذه الجزيـرة المذكورة مسكونة وتنتج كمية كبيرة مـن الفواكه مثل البرتقال والحمضيات وفيهـا أعداد كبيرة من الحيوانات مثـل الأبقـار والأغنام وبها مائتا منزل .

في خارج هذا الخليج تقع جزيـرة سانتا ماريا والتي وجد فيها الهولنديـون الفواكـه والسمك . ولقد واجههـم تيـار مائي قوي في المضيق الواقع بـين جزيـرة جاوة الصغيرة وجزيرة بالي ، منعهم مـن التوقف . فتوجهوا مـن جزيـرة بـالي إلى الغرب والجنوب الغربي حتى وصلوا إلى بنتـاو ( Bentao ) في جزيـرة جـاوة الكبيرة حيث حملـوا سفنهم بالبضـائع لقـد قـابل الهولنديـون الكثـير مـــن البرتغـاليين في جزيـــرة جـاوة الكبـيرة والذين قاموا بالـترحيب والاحتفـاء بهـم وزودوهـــم بالمعلـــومات وبالأســـرار التجارية ، خاصة عن الفلفل الأسود وما قد يعود به من ربح إذا هم تاجروا به .

ونذكـر مـن البرتغـاليين بيـدرو دي أتيد ( Pidro de Attide ) مـن ملقا الذي أخبرهم بما يحـاك لهـم سراً مـن قِبَل البرتغاليين ، وحذرهم مـن المخـاطر التي تنتظرهم من أهل جاوة إذا ما نفذوا تهديدهم ، ولذلك نجـد أنـه وبمساعدة هـذا البرتغـــالي وغـيره عـادت السـفن الهولندية من هناك سالمة " .

لقد كـان فشـل البعثـة الإنجليزيـة الأولى هـو الدافـع الرئيسـي وراء البعثـة المكلفة من قِبَل الملكة اليزابيث ، والـتي تكونـت مـن ثـلاث سـفن تحـت قيـادة السـير روبـــرت دودلي في عـام ١٥٩٦م ( Sir Robert Dudley ) ، الـذي كـان يحمـل رسـالة إلى امـبراطور الصـين . وكـانت السـفن البريطانيـة الثـلاث [ ذا

بير - وبيرويلب - وبنجامين ] هي ثالث مجموعة من السفن البريطانية تحاول أن تجد طريقها إلى الشرق ، ولم تفلت هذه السفن من العين الراصدة للأسطول البرتغالي . لذا نجد أن الغرفة التجارية في جوا تكتب للملك في ديسمبر ١٥٩٧م مايلي : لقد قضى الكونت نائب الملك الشتاء في مومباسا ، ولقد وجد حالة الاستعداد البحري مزرية جداً ، ولذلك أخذ في الإصلاحات البحرية وطلب بناء السفن الخفيفة والسريعة ، ولقد أبلغه قبطان قلعة موزمبيق بأنه شاهد في يوليو الماضي سفينتين إنجليزيتين في البحر المقابل لقلعة موزمبيق ، مما دعا الكونت نائب الملك أن يعجل بإنزال الأسطول إلى البحر إضافة إلى شراء سفينة كبيرة بمبلغ ستة عشر ألف باردوس ( Pardaos ) وسفينتين ملكيتين كبيرتين وتسع سفن صغيرة قام أيضاً بشرائها لعدم تواجد سفن تابعة لصاحب الجلالة آنذاك في أحواض السفن ولقد تم تجهيز ستمائة مسلح تحت قيادة لورينسو دي برتو ، وتوجه الجميع في ٢٠ سبتمبر إلى ملقا لاعتقادهم أن العدو قد توجه إلى هناك وسوف يتخلص منه أسطولنا . نود أن نبلغ جلالتكم أن تصرفات نائب الملك كانت عظيمة ، خاصةً إذا علمنا أنه في السنوات الماضية قامت السفن الإنجليزية في البحار الجنوبية باحتجاز سفينتين تابعتين لنا كانتا متوجهتين إلى البنغال ولم نسمع عنهما شيئاً ، لذا نطلب منكم يا صاحب الجلالة إمدادنا بالمال والرجال والعتاد وبأسرع وقت ممكن " .

ويكتب الأب جو دي سانتوس من موزمبيق مؤرخاً هذا الحدث في كتاب ( أثيوبيا الشرق ) :

" عندما وصلنا إلى موزمبيق ، كان القلق مسيطراً على أهل البلاد ، وكانوا في خوف عظيم من وصول الأسطول الإنجليزي ، وذلك بسبب المعلومات الواردة عن طريق البر من البرتغال إلى الهند والتي قام حاكم الهند مانويل ديسوزا بإبلاغها إلى القلاع البرتغالية .

لقد انتقل أهل البلاد بمتاعهم ومحاصيلهم إلى القلعة التي أصبحت مزدحمة _ زيادة على دعوة قائد الحامية دوم هورنيمو دي أيزفيدو ( Dom Hieronymo de Azevido ) لقائد مالندي براس دي أجويار ( Bras de Aguiar ) بالانسحاب من قلعته إلى موزمبيق .

لقد وصل الأخير في سفينتين مع رجاله وبارجتين محملتين بالمؤن ، ومع كل التوقعات والاستعدادات لم يصل الإنجليز إلى موزمبيق إلا بعد سنتين ، وفي سفينتين فقط (في ١٣ يونيو ١٥٩٧ ) توجهتا إلى البحر الجنوبي - إلى ملقا - علماً بأنه في عام ١٥٩١ - أي قبل ست سنوات - زارت موزمبيق سفينة إنجليزية واحدة فقط ، وكانت أول سفينة إنجليزية تتوجه إلى الهند منذ عهد فرنسيس دريك . هذه السفينة المذكورة توقفت في تيتانجون [ مورد مائي مشهور ] وتزودت بالماء في ٢٧ أكتوبر وتوجهت بعد ذلك إلى ملقا .

أما كوتو ( Couto ) فهو يذكر هذه الأحداث بعد وصوله إلى جوا في موزمبيق في ١٩ أغسطس ١٥٩٧ .

" لقد نقل قبطان هذه السفينة رسالة من قبطان القلعة في موزمبيق والتي يذكر فيها أن سفينتين هولنديتين ( إنجليزيتين ) وصلتا إلى ميناء تيتانجون على بعد خمسة فراسخ من موزمبيق وتزودتا بالماء . وبدا له أنهما متوجهتان إلى سوندا . لقد قلق الكونت والمدينة وأهلها لمثل هذه الأخبار وطلب الحاكم - حاكم جوا - انعقاد المجلس ودعا إليه الضباط والأسقف الأب اليكسيو دي منزيس ، وكل الضباط المتقاعدين وأطلعهم على هذه الرسالة ، وأخبرهم بخطورة الأمر فيما لو وصلت هذه السفن إلى ملقا ، خاصة وأنهم ربما يثيرون البلاد المجاورة ضد قلعة ملقا . ويتعرضون لتجارة الصين واليابان والهند . ولقد أخبر الكونت المجلس أنه على استعداد لتنفيذ قراراته ( المجلس ) لأنه لديه ما يكفي من الغلايين والرجال والعتاد ، وسوف يدافع عن حق الملك ، وأنه قد جاء إلى الهند للدفاع عنها وليس للراحة . وطلب من أعضاء المجلس إعطاءه رأيهم كتابياً بما يرضي الله والملك ، في اليوم التالي جاء الجميع وأعطوه آراءهم مكتوبة ، واتفقوا على إرسال سفينتين كبيرتين وثلاث عشرة سفينة أخرى ، وخمسمائة من الرجال المسلحين . وكان ذلك في اعتقادهم يكفي للبحث عن هذه السفن - الهولندية - وتأمين المسارات البحرية للصين واليابان .

وبعد الاتفاق ، توجه القائد البحري العام ، الكونت نائب الملك إلى حوض السفن الخاص بالأسطول ، ونظراً لعدم وجود المشرف المسئول ( وذلك لأن المسئول الذي عين في عهد

ماتياس البوكيرك - فيسينسييو دي بوني قد توجه إلى البرتغال في يناير ١٥٩٧ بعد أن أُبلغ بوصول الكونت القائد العام إلى جوا ) وكان الكونت غير راغب في تعيين أحد في هذا المنصب لأنه أراد الاحتفاظ به لنفسه ولكن وفي هذه الظروف قام بتعيين دي فرانسيسكو دي نورونها ( D. Francisco - de Noronha ) مسئولاً طالما بقيت مسئولية الأسطول المذكور . وعين أخاه دي لويس دا جاما ( D. Luiz da Gama ) مسئولاً عن مخازن السلاح والذخيرة ، وعين دي أنتونيو دي ليما ( D. Antonio de Lima ) مسئولاً عن مخازن المؤن . وطلب من ضباط الجمارك مساعدته وإطاعة أوامره .

وعين لورنسو دي بتو قائداً عاماً للأسطول المزمع إرساله إلى ملقا . ولم يستقر نائب الملك حتى أكمل كل التجهيزات اللازمة ، ودفع ثلاثة أرباع أجر كل جندي وعامل على هذا الأسطول . ونتيجة للسرعة التي لازمت الاستعدادات ، جُهز الأسطول المذكور والذي استقل سفينته الكبرى القائد العام ، واستقل السفينة الثانية القبطان بيريرا كوتينو ( Pereira Cotinho ) أما الباقي فواحدة للقبطان د. لويس دي نورونا ابن كوند دي ليناريس والذي جاء إلى البرتغال عام ١٥٩٥م حاملاً معه لقب القائد البحري ، وسفينة أخري بقيادة جورينمودي نورونها ، ابن أنتونيو دي منزيس . هذا بالإضافة إلى سفينة أخرى في انتظار الأسطول في ملقا مع قبطانها روي دياس دي أجواير . أما السفن الصغرى وعددها تسع بقيادة القبطان دي فرانسيسكو هيرنيكي ( D. Francisco - Herniques ) وهو قبطان قلعة ملقا ، والقبطان استيفادو تينحسيرا دي ناسيدو ( Estevado Teixcira de Nacedo ) وهو قبطان قلعة موزمبيق ، وألفونسو دي منزيس ابن فرانسيسكو دي سيلفا دي منزيس ، ونيكولاو بيريرا دي ميرندا ابن هنريك هنريكور دي ميرندا ، ولويس لوبيز ديسوز ، جيرونيمو يوثيلو ، وجورج دي ليمابارتو دي - ديجولوبو ابن دي رودريجو لوبو ، وجو د. سينحاس .

غادر الأسطول جوا في يوم الأحد الرابع والعشرين من سبتمبر . أما عن السفن الهولندية ( الإنجليزية ) فإنها وبعد تزودها بالماء في تيتانجون توجهت إلى قبالة جوا ، ومنها إلى ملبار إلى رأس كوميريم وهناك احتجزوا السفن التجارية المتوجهة من جوا إلى البنغال ، ومحملة

بالأرز . وبعد صدام معها صادروا حمولتها وسرقوا مبالغ كبيرة من المال ، ولكنهم أطلقوا سراحهم بعد ذلك وأرسلوهم في طريقهم متوجهين إلى ملقا - ووصلوها كما سوف نرى لاحقاً .

ويذكر كوتو عن الأسطول البرتغالي - المرسل لتعقب اسطول الهولنديين - بأن هذا الأسطول أي البرتغالي وصل إلى ملقا في ٢٤ سبتمبر ١٥٩٧ ماعدا سفينة واحدة بقيادة لويس لوبيز ديسوزا والتي تحطمت قرب منار ، ولكن التحق القبطان والجنود بسفينة أخرى والتحقوا بالأسطول البرتغالي في ملقا .وبلغت أنباء السفن البرتغالية إلى القبطان البحري لورينسو دي برتو في ملقا وأخبر بأنها متواجدة في رأس كوميريم ، قام القبطان البحري بدعوة مجلس الحرب للانعقاد ، فقرر المجلس بكل أصواته بأنه يتحتم على القبطان البحري التوجه بكامل أسطوله إلى سوندا وساحل جزيرة جاوة لتأديب السكان المحليين الذين ثاروا على الوجود البرتغالي المسيحي فيهما وسرقوا ممتلكاتهم .

هذا إلى جانب دعوة ملوكهم إلى عدم الاتصال بأية قوة أوروبية أخرى إذا ما دخلت سفنها إلى موانئهم ، ومن ضمن التوجيهات إلى القائد البرتغالي بأنه يتحتم عليه إلقاء القبض على اثنين من الإنجليز في جزيرة بالي [ الحقيقة أن الكاتب هنا يخطئ كل مرة ويسمي الهولنديين إنجليزا حيث يؤكد المترجم بأن المذكورين هما هولنديين تخلفا عن أسطول هولندا الذي قاده هوتمان إلى تلك الأراضي في ١٥٩٧م ولم يلحقا بالأسطول عند مغادرته جزيرة بالي وبقيا بين الوثنيين فيها ] .

عندما غادر الأسطول بأمر نائب الملك طلب منهم الأخير عدم التعرض لأية سفينة متجهة إلى سوندا وجاوة ورغم ذلك قام القائد العام للأسطول بمصادرة أغلب محتويات السفن التي صادفها في طريقه ، فسبقته هذه السفن إلى المكانين المذكورين وأخبرت الأهالي بما حصل لها ، فاستعد الناس لوصول أسطول البرتغال .

عند وصول الأسطول إلى سوندا أرسل القائد سفنه الصغيرة للتزود بالماء ولكن منعهم الأهالي من ذلك ، فنزل كثير من بحارة الأسطول وضباطه إلى الساحل فحاصرهم الأهالي وقتلوا الكثيرين منهم بما فيهم القادة الثلاثة د. لويز ، و د. جورينمو د. نورونها ،

وروي دياز أجويار . ولم تستطع سفن الأسطول التدخل لصعوبة مناورتها نتيجة الحمولة الكبيرة والمصادرة من السفن الأخرى ونزول أغلب البحارة المدفعيين إلى الساحل . ولم ينزل القائد الأعلى لإنقاذهم ، وذلك لصعوبة الأجواء وهيجان البحر حول الجزيرة . وبدخول موسم الأمطار ( المانسون ) لم يتمكن القائد البحري لورينو دي بريتو من الانتقام من الأهالي ، أو الحصول على الهولنديين ، فغادر الميناء إلى ملقا ، ووصل إليها في ١٠ يوليو ١٥٩٨ وبقي فيها إلى يناير من العام التالي متوجهاً إلى جوا ، وقبل مغادرته حاول البحث عن البريطانيين المذكورين ، ووصلته أنباء بأنهما قد تسللا سفينة راسية في ميناء كويدا على بعد ستة فراسخ من ملقا ، ولكنه لم يتوجه لاعتقالهم رغم مطالبة قائد حامية ملقا والضباط المرافقين . عندها أرسل نائب الملك يأمره بالتوجه إلى جوا ، وبمجرد وصوله إلى هناك أخبره سكرتير نائب الملك بأن عليه التوجه إلى منزل للإقامة الجبرية حتى يتم التحقيق في بعض المخالفات التي ارتكبها .

وقرر نائب الملك دعوة المجلس الحاكم لنظر القضية وإصدار الحكم فيها ولم يقبل أعضاء المجلس بذلك ولأسباب خاصة قرروا إحالتها إلى المحاكم العادية قبل أية قضية أخرى ونتيجة لذلك حكمت المحكمة على القائد المذكور بغرامة مالية كبيرة وتعيينه قائدا على حامية ( سفالة ) . يقول كوتو : " إن نائب الملك أرسل لورينو دي برتو قائداً لحامية سفالة وذلك بعد إعادة الاعتبار له وتبرئته من التهم الموجهة إليه ، وبعد ثلاثة أعوام عين قائداً لحامية موزمبيق ، حيث قاد في ١٦٠٩م حملة تأديبية ضد عدد كبير من ( الكفرة ) (يبدو أن الكفرة مسمى محلي للسكان وربما كانت هذه التسمية مأخوذة من العرب المقيمين هناك للسكان الأصليين ) وخسر فيها المعركة ، وكانت خسائره البشرية كبيرة جداً مما أدى إلى تجريده من أوسمته ورتبته ، وكانت تلك هي نهايته العسكرية .

ورغم فشل أسطول لورينو برتو في تحقيق مطالب نائب الملك فقد استطاع أسطول برتغالي آخر تحقيق ذلك دون أن تكون مسئوليته القيام بهذا العمل .

فقد كتب كوتو مرة أخرى : " بينما كان لورينسو برتو في سوندا لم

يكن أولئك الذين في ملقا يدركون قرب الأسطول الهولندي ( الإنجليزي ) منهم ، وبينما كان الأسطول البرتغالي المتوجه إلى الهند من ملقا يستعد للإبحار ( كان هذا الأسطول مكوناً من سفينة ماجويل دي كونها الذي كان سينقل الضابط المسئول عن حامية ملقا لانتهاء فترة عمله والذي كان يدعى فرانسيسكو دا سلفا دي منزيس ، وكان في نفس الوقت قائدا لهذه السفن في طريقها إلى جوا . وكانت هناك سفينة أخرى في الصين وقبطانها فيرناد دي أليدا وعدة سفن أخرى ) .

قبل مغادرة هذا الأسطول ملقا توجه القبطان جوجومي فايو - يسبقه بيوم واحد - إلى الهند في اليوم التاسع وعلى بعد ثلاثين فرسخا من ملقا وقرب جزيرة بولو بار سيلار ، شاهد سفينتين هولنديتين ( إنجليزيتين ) ، فعاد أدراجه متوجهاً إلى ملقا مرة أخرى ومرسلاً ( بلم ) في المقدمة لينذر الأسطول المتواجد فيها بقرب أسطول العدو ويخبر فرانسيسكو دا سلفا دي منزيس عن هذا الأسطول . بوصول هذا النبأ ، قام القائد المذكور بجمع كل الضباط المتواجدين لاستشارتهم حيث قرروا عدم التوجه إلى الهند والصمود لمحاربة سفن العدو .

عادت السفن البرتغالية إلى ملقا وكانت في مقدمتها سفينة ( جوجومي فايو ) .

ما إن شاهدت سفن العدو السفن البرتغالية حتى رفعت الأعلام الملونة والبيضاء بدعوى أنها سفن تجارية قادمة إلى الميناء . ورست هذه السفن قرب سفينة جوجومي فايو . وما هي إلا ساعات حتى اشتعلت حرب المدفعية بين الأسطول البرتغالي وبينها فقد فيها أسطول العدو العتاد وأصيبت سفنه وقتلت ابنة فرانسيسكو دا سيلفا دي منزيس وخادمتها بقذيفة مدفع ، وانفجر مخزن البارود لقائد الأسطول المعادي وفر هذا الأسطول المصاب إصابات سيئة من ميدان المعركة . وأرسل الأسطول البرتغالي رسله إلى ملقا لإخبار حاميتها بالأحداث ونتائجها ، وتوجه بعد ذلك إلى كوشن .

أرسل قائد حامية ملقا سفنه للبحث عن أسطول العدو فوجدوه في ميناء كويدا وقد أصيبت سفنه ، وقتل الكثيرون من بحارته وجرح عدد كبير من الباقين ، وغادر الأسطول الإنجليزي

ميناء كويدة أوكده في سفينة القائد متوجهين إلى البنغال .

# الهولنديون في الشرق

في عام ١٥٩٨م توجه أول أسطول هولندي إلى الشرق ، وكانت سفينتا القيادة ( الأسد واللبؤة ) تحت قيادة الرهيب كورنيلوس دي هوتمان ( Cornelis de Houtman ) ، والربان الرئيسي رجل إنجليزي يدعى جون ديفس ( John Davis ) والذي يعتبر الوحيد الذي كتب عن هذه الرحلة والتي هلك فيها القائد الأعلى وكثير من مرافقيه .

بدأت هذه السفن الإبحار من فلشنج ( Flushing ) في ١٥ مارس ١٥٩٨ ووصلت في ٢١ يونيو ١٥٩٩م إلى ميناء أشن ، ويعتبر الميناء الرئيسي لتجارة الفلفل الأسود في أرخبيل الملايو . وكانت هذه السفن أول سفن أوروبية بعد البرتغاليين تصل إلى هذا الميناء . وكانت بهذا أول محاولة لكسر الاحتكار البرتغالي . ولكن ولسوء الحظ انتهت بكارثة عظيمة .

ولقد كانت نصائح الملك الدائمة في أسبانيا والبرتغال ، أن يقوم رعاياه بمعاملة ملك أشن معاملة جيدة وهذا إنعكس على الهولنديين عند وصولهم إلى هذا الميناء . ويذكر كوتو تفاصيل الأحداث كما يلي : " قبل أن يغادر دي لويس دي جاما إلى هرمز ، جاء إليه سفراء من أشن وقام باستقبالهم احسن استقبال ، وفي أبهة زائدة ، وبحضور كل الضباط والشخصيات الكبيرة المتواجدة في جوا آنذاك . وقد أجزل لهم العطاء ورعاهم لحين موعد مغادرتهم إلى أشن ، لا أعلم الغرض من زيارتهم ولم يتم تسجيل الزيارة في سجل الدولة ( كوتو يعتبر مؤرخاً للهند في تلك الفترة الزمنية ، وله حق الإطلاع على السجل ) . على كل حال ، لقد عادوا راضين عن زيارتهم في ٣ مايو ١٥٩٩م . عادوا إلى ملكهم حاملين له الهدايا في سفينة كبيرة يقودها لويس ماسيدو بوتو ( Luiz Machedo Boto ) " .

في ٣ أكتوبر ١٦٠٠م وصل إلى جوا نائب الملك المعين حديثاً إيرس دي سلدانا ( Aires de Saldanha ) ،

وتوافق ذلك مع مغادرة الأساطيل جوا ( هذه الأساطيل غادرت بأمر من نائب الملك السابق دي جاما ) .

بعد مغادرة سفينة السفراء وصلت إلى قلعة ملقا حيث نزل منها السفراء واستقبلوا أحسن استقبال ، حيث كان ذلك سوف يؤدي إلى الأمن والسلام لهذه الحامية ، خاصة إذا ما علمنا أن الملك أشن قد هاجم هذه القلعة عدة مرات ومنع عنها سفن الصين واليابان .

قام قائد حامية ملقا فرنو دي البوكيرك ، بإرسالهم إلى بلادهم بصحبة ألفونسو فينسنت ، حيث كان معروفاً لدى الملك ، ويرافقه الأب أمارو من رهبان الأب القديس أغسطين ، لعلمه باللغة وقيامه بالترجمة .

عند وصول سفينة ملقا إلى هناك وجدت سفينتين هولنديتين في ميناء أشن . هذه السفن هي نفس السفن التي اشتبكت مع سفن د. جورنيمو كوتينهو في جزيرة سانتا هيلانا .

ودخلت سفينتنا الميناء ، ونزل سفراء الملك ومعهم سفيرنا وكثير من المرافقين وعدد كبير من المستقبلين ، أرسلهم الملك لذلك وتمت مقابلة الملك ، وأكرم وفادتهم ، وفرح بالهدايا المرسلة من نائب الملك في جوا .

انتهز الفونسو فينسنت خلوته مع الملك والترجمان وطلب من الملك دعوة البحارة وضباطهم المتواجدين في السفن الهولندية إلى وليمة ، والتخلص منهم جميعاً وقتلهم حيث أنهم قراصنة ( ويذكر جون ديفيس أن الملك أخبر دي هوتمان بما طلب منه البرتغالي ، وأبدى رغبته في التعاون معه ، وأهداه كيساً من الذهب ) ، وطلب منه مساعدته ضد أسطول ملك جوهر ( مملكة في الطرف الجنوبي من ملقا ) وكان في حالة حرب معه .

استعد أسطول ملك أشن لمهاجمة أسطول ملك جوهر ، والتحق الأسطول الهولندي به مقابل شحنة كاملة من الفلفل الأسود . ومن مختلف المصادر توجد ثلاث روايات تذكر مصير الأسطول الهولندي . الأولى منها تؤكد دعوة الملك للقائد الهولندي وقياداته إلى وليمة حسب طلب القائد البرتغالي الفونسو فينسينت ، وأهلكهم جميعاً . أما الرواية الثانية فتؤكد موت الطاقم الهولندي بالسم الذي دس لهم في النبيذ على ظهر السفينة . والرواية الثالثة

وكتبها جون ديفيس ويؤكد فيها الرواية الثانية ، ولكنه يذكر أن العدد المتبقي من الهولنديين كان صغيراً ، لذا قام بإغراق إحدى السفينتين وأبحر بالثانية .

في أول مايو ١٥٩٨ أبحرت ثماني سفن تحت قيادة جاكوب كورنيلز فانيك ( Jacob Cornelisz Van Nick ) و ويبراند فان واريجيك ( Waybrand Van Warwijek ) وغادرت هذه السفن ميناء تيكسل ( Texel ) متجهة إلى الشرق ، وصل ثلاث منها في نوفمبر إلى بنتام والخمس الباقيات بعد شهر من ذلك التاريخ . في ١١ يناير ١٥٩٩ غادرت أربع سفن منها تحت قيادة فانيك مارة بسومطرة ، وبعد توقف في سانتا هيلانة ، وصلت إلى تيكسل مرة أخرى في ١٩ يوليو ١٥٩٩م .

أما السفن الأربع الباقية ، فقد غادرت بنتام في ٨ يناير ١٥٩٩ تحت قيادة فان واريجك وجاكوب فان هيمسكرك (Jacob Van Heemskerk) ووصلت أمبووينا في ٣ مارس ( بعد أن تعرضت في الطريق لاعتداء من أهالي جزيرة أريسابايا وفقدت عدداً من الرجال غرقاً واسترجعت بعض السجناء مقابل دفع غرامات مالية ) .

في ١١ مارس غادرت اثنتان من السفن الأربع تحت قيادة فان هيمسكيرك ووصلت إلى باندا ، وفي ٥ يوليو عادت إلى بانتام ومنها إلى سانتا هيلانا . في أول يناير ١٦٠٠م غادرت هذه السفن سانتا هيلانة ووصلت إلى تيكسل في ١٩ مايو ١٦٠٠م . أما السفن الباقية وتحت قيادة فان واريجيك فقد وصلت في سبتمبر ١٦٠٠ إلى تيكسل . وقد نشرت الصحيفة اليومية خبر الرحلة التي قامت بها السفن الثمان إلى الشرق .

ويبدو أن معركة بحرية كبيرة قد وقعت قرب جزيرة سانتا هيلانا ، سقط فيها العدد الكبير من القتلى من الهولنديين والبرتغاليين . وتذكر المصادر البرتغالية بأنه ما إن غادرت السفن الهولندية هذه الجزيرة حتى ابتدأ البحارة البرتغاليون بعملية إصلاح السفن ، وبعد خمسة أيام من مغادرة أسطول هولندا ( في ٣٠ أبريل وصلت السفينة نوسا سنيورا داباز . وفي ٣مايو وصلت السفينة كونسيساو . وفي ١٦ مايو وصلت سفينة القيادة في جوا وأخبرهم

دييجو ديسوزا عن المعركة مع الهولنديين وساعدوه في إصلاح السفن . وفي يوم وصول سفينة القيادة ، وصلت سفينتان من أسطول هولندا ، ولكن بعد رؤية سفن البرتغال ابتعدتا عن الميناء الرئيسي إلى جزء آخر من الجزيرة ، ولم تكن الرياح مناسبة لمهاجمتهم . وقد أهمل دي جورنيمو كوتينهو وصولهم في البداية ، ولكنه أبدى استعداده لمهاجمتهم إذا ما كانت الظروف مناسبة .

أرسل قبطان السفن الهولندية رسله لمقابلة قائد السفن البرتغالية وطلب المساعدة في الحصول على الماء ، ورفض القائد البرتغالي ذلك مدعياً أنهم إذا كانوا فعلاً أصدقاء ، فعليهم الاقتراب بسفنهم منه ( وكان يقصد تدميرهم ) .

في ٢١ مايو ، وصلت السفينة التي يقودها د. فاسكو دا جاما ( D. Vasco da Gama ) وأطلق مدافعه على السفن الهولندية فاضطرت إلى مغادرة الجزيرة ( سانتا هيلانه ) وأبحرت إلى سواحل غينيا ، ويذكر البحار المرافق للسفن الهولندية أنهم لم يبحروا إلى سواحل غينيا ، بل واصلوا رحلتهم إلى هولندا وقد أصابهم العطش الشديد . أما عن الأسطول البرتغالي فقد فشل في البحث عن السفن الهولندية ، فتوجه إلى جوا بقيادة دي جورينمو كوتينهو .

إلى جانب السفن الهولندية المتجهة إلى الشرق حول رأس الرجاء الصالح ، فقد أرسلت هولندا أسطولين في اتجاه الجنوب الغربي وكان الأسطول الأول مكوناً من خمس سفن تحت قيادة جاكس ماهيو ( Jacques Mahu ) وسيمون دي كورديس ( Simon de Cordes ) وكان القائد البحري وليام آدم ( William Adam ) في إحدى هذه السفن .

استطاعت هذه السفن الوصول إلى موانئ اليابان بعد إبحارها من روتردام في ٢٧ يونيو ١٥٩٨ . وقد انتهت سفن هذا الأسطول إلى كارثة عظيمة . وقد ذكرت تفاصيل هذه الكارثة في عدة مصادر ، ولكننا سوف نعتمد على مصدر كوتو لدقته .

في عام ١٦٠٠ وصلت إلى جزيرة اليابان سفينة هولندية وتوجهت إلى ميناء شاتيقاي ( Oita ) في مملكة بانجو وحيث كانت الرياح غير مناسبة في هذه الفترة من السنة ، فإنها وفي اعتقاد التجار هناك لم تأت من الصين أو

الفلبين ، ولكن من ( أسبانيا الجديدة ) ونعتقد أنها كانت متجهة إلى مكان آخر ولكن دفعتها العواصف إلى اليابان ، فأرسل التجار البرتغاليون المقيمون في الميناء إلى ملك شاتيفا يطلبون منه الاستعداد للمساعدة إذا ما تطلب الأمر ذلك . في نفس الوقت توجهوا إلى السفينة في عرض البحر وما إن وجدوا بأنها هولندية حتى عادوا مرة أخرى إلى الميناء . وما إن بلغت أنباء هذه السفينة إلى البرتغاليين المقيمين في نجازاكي ، حتى أرسلوا إلى تيرازافا ( Tirazava ) حاكم هذا الإقليم يخبرونه أن بحارة هذه السفينة ( من اللوثريين أعداء البرتغال ) وأعداء للمسيحية كلها ، فاتجه حاكم الإقليم إلى بنجو وطلب من السفينة الهولندية دخول الميناء ، وأنزل حمولتها ودون كل ما بها في دفاتر رسمية ، تذكر لنا هذه الدفاتر مايلي :
- اثنا عشر صندوقاً من الأقمشة الصوفية - صناديق كريات الزجاج - مرايا ونظارات - خمسمائة بندقية - وخمسة آلاف من الكريات الحديدية - وثلاثمائة طلقة - وبراميل بارود - وثلاثة صناديق تحتوي على معاطف خاصة - مسامير حديدية - مطارق وأشياء أخرى مختلفة . ويبدو من ذلك أنهم قد جاءوا فاتحين ويريدون الاستقرار ، وأخبروا الحاكم بأنهم جاءوا للبحث عن السفن الهولندية التي غادرت هولندا في ١٥٩٩ متجهة إلى سوندا ومالوكو ولا يعلمون أي شيء عنها حتى الآن .

ويواصل كوتو روايته ، ويذكر ما حدث لهذه السفن كما يلي :

" في عام ١٥٩٨م خرجت خمس عشرة سفينة من هولندا ( روتردام ) متجهة إلى الشرق ، وكانت تبحر في تشكيلة واحدة حتى وصلت إلى ميناء غينيا ، وانقسمت هناك إلى ثلاث مجموعات ، عبرت إحداها رأس الرجاء الصالح ، واتجهت إلى سوندا ، ومن هناك اتجهت اثنتان منها إلى ميناء أشن ، ولا نعلم ما حدث لباقي الأسطول . أما السفينة الثالثة والتي كانت تحت قيادة بلشازار دا كوردا ( Balhazar da Corda ) ( في الحقيقة يخطئ كوتو هنا والاسم الصحيح للقائد هو جاكس مايهو والذي بعد وفاته أصبح سيمون دا كوردا قائد السفينة ) هذه السفينة اتجهت إلى أنجولا ، ومنها إلى مضيق ملجاس وبعدها إلى إحدى الجزر حيث قتل عدة

رجال منهم بحثاً عن الماء . ومن هناك اتجهت إلى قلعة شيلي في بيرو ، فقاموا باقتحام القلعة وقتل ساكنيها ، فقام الأسبان بالهجوم عليهم في الداخل وقتلوا خمسة عشر منهم ، وفر الخمسة الباقون إلى سفينتهم .

في عام ١٥٩٨ اتجه ثاني أسطول هولندي إلى الشرق الأقصى . وكان هذا الأسطول مكوناً هذه المرة من أربع سفن تحت قيادة أوليفر فان نورت ( Olivier Van Noort ) ، وأبحر هذا الأسطول في ١٣ سبتمبر من ذلك العام . وقد صادف الرحالة تينحسيرا ( وهو في طريقه من مانيلا إلى أكابولكو في ٢٤ نوفمبر ١٦٠٠م ) سفينتين من هذا الأسطول ، نجا منهما بأعجوبة . ولكن اشتبكت هذه السفن في معارك ضارية قرب الفليبين مع السفن الأسبانية في ٢٤ نوفمبر و١٤ ديسمبر ، وفقد كل طرف سفينة واحدة . واتجه فان نورت من هناك إلى بورنيو حيث وصل إليها في ٢٦ ديسمبر وبقي بها حتى ٤ يناير ١٦٠١ ومنها إلى جاوة وسانتا هيلانه ، وأخيراً روتردام في ٢٦ أغسطس ١٦٠١ وكان أول هولندي يبحر حول العالم .

وبينما كان الهولنديون يضاعفون من أساطيلهم إلى الشرق في عام ١٥٩٨ ، لم يتمكن البرتغاليون من إرسال أية سفينة ، خوفاً من الأسطول الإنجليزي الذي ينتظرهم ليدمرهم ، ولكن كان حظ البرتغال أفضل من ذلك في عام ١٥٩٩ حيث يذكر كوتو : " وصلت أنباء إلى البرتغال بأن هولندا تهيئ عشر سفن للإبحار إلى الهند ، في هذا العام قامت حكومة البرتغال ممثلة في مجلس التجار بالعزم على إرسال أسطول برتغالي جيد التجهيز إلى هناك بقيادة دي جورئيمو كوتينهو - في بداية فبراير ١٥٩٩ ابتدأت الرحلة بأربع سفن وتأخرت ثلاث أخريات . وفي السفينة إس روك أبحر القبطان دييجو ديسوزا . وفي إس سماو القبطان الجاليسيان ، وسيباستيو داكوستا في السفينة كونسيساو ، وفي السفينة باز ، جو بانير فيريرا - ومعهم جو رو دريجوس دى تورس ، وكان مرسلاً من ملك البرتغال لكي يتسلم مكان فيدرو دا فازندا في جوا .

وفي شهر مارس ١٥٩٩ لحقت بهم السفن الثلاث الأخرى ، وكانت الأولى كاستللو وقائدها سيما دي مندوكا ، وجو سواريز في السفينة سي. مارتينو ، وجاسبر تنريدو في السفينة سي. ماتيوس

والذي طلب منه قيادة قلعة مسقط . وكان على هذه السفن البقاء في الهند بعد الالتحاق بالأخريات في موزمبيق .

ورحلت السفن جميعها إلى جوا ماعدا واحدة (كاستيللو ) التي فقدت في الطريق قرب موزمبيق ، واستطاع ربانها سيما دي مندوكا الوصول إلى الشاطئ مع مجموعة من بحارتها ، ولكن وافتهم المنية بعد ذلك . ومع هذا الأسطول وصلت أخبار وفاة دي فاسكو ابن الحاكم العام لجوا ونائب الملك ، وأيضا أخبار وفاة الملك فيليب ( ١٣ سبتمبر ١٥٩٨م ) .

ويعود كوتو إلى الأسطول الهولندي قائلاً : " ثلاث من هذه السفن تحت قيادة شينفي فان هاجن وقد غادر هولندا في ٢٦ أبريل ١٥٩٩ وبقي عدة أشهر في موريشيوس ووصل بعدها إلى بنتام في ١٣ مارس ١٦٠٠ ومنها إلى أمبوينا وباندا حيث لاقت السفن الصعوبات من أهالي هذه المناطق والسفن البرتغالية وعادوا إلى بنتام ، وهنا التقوا بست سفن هولندية ورحلوا معاً إلى سانتا هيلانه ومنها إلى هولندا في يوليو ١٦٠١م .

في ٢١ ديسمبر ١٥٩٩ توجهت أربع سفن هولندية إلى الشرق تحت قيادة بيتر بوت . وفي ٢٦ أبريل ١٦٠٠ غادرت سفينتان تحت قيادة فان كاردن إلى مدغشقر والمالديف ووصلتا إلى بنتام في ٦ أغسطس ، ولحقت بهما السفينتان الأخريان بعد ذلك .

أرسلت هاتان السفينتان بواسطة القبطان بوث إلى بريامان ، ولكنهما توجهتا إلى سومطرة ومنها إلى أشن في ٢١ نوفمبر حيث أخبرهم بعض الهولنديين المعتقلين هناك عن سوء المعاملة التي يلقونها من ملك أشن ، فغادرها فان كاردن إلى بنتام ووصل إليها في ١٩ مارس ١٦٠١م .

في ٢٩ مارس وصلت ثلاث سفن هولندية إلى بنتام توجهت واحدة منها إلى مولكاس وغادرت الاثنتان الباقيتان مع فان كاردن إلى هولندا عن طريق سانتا هيلانه .

ويبدو أن الأساطيل الهولندية التي توالى وصولها إلى أرخبيل الملايو ، أثارت القلق والمخاوف في جوا ، ولكن ما يثير التعجب أن غرفة تجارة جوا لم تذكر في رسائلها إلى ملك البرتغال أي شيء عن هذه المخاوف . ورغم إرسالها

في نفس الوقت الدعم الحربي إلى ملقا وقلاع أمينو وملاكو ، ورغم تأكيد كوتو في مراسلاته عن نية البرتغاليين منع الهولنديين من القيام بأية أعمال تجارية في الهند أو أرخبيل الملايو ، يبقى الصمت ملازماً مراسلات نائب الملك إلى لشبونة .

وقد ازدادت السلطات البرتغالية في جوا توتراً عندما أسست شركة الهند الشرقية الإنجليزية في عام ١٦٠٠ ، واتحدت الشركات التجارية الهولندية في شركة واحدة أطلق عليها شركة الهند الشرقية المتحدة في عام ١٦٠٢ . هنا وفي هذه الظروف فقد البرتغاليون هدوءهم وأرسلوا الاستغاثة الآتية في عام ١٦٠٣ إلى ملك البرتغال :

" مع أن أمور الجنوب تحتاج شرحاً أوفر ، إلا أننا سوف نختصر . ان الجنوب ملئ بالهولنديين الآن . وفي هذا العام استولوا على سفينة متجهة من سامتوم إلى ملقا وكانت محملة ببضائع تبلغ قيمتها ثلاثمائة ألف كروزادوس ( عملة برتغالية ) ، ومبالغ من المال تبلغ ثلاثة أو أربعة آلاف مرسلة إلى البنغال . وقد صادروا أغنى وأعظم سفينة غادرت الصين في التاريخ ، وكانت محملة بكل شيء من الهند ، وانتظروها قرب مضيق ملقا ، وفي نفس الوقت صادروا سفينة صينية . إن قلعة ملقا لم تزود ولا تستطيع تزويدها . وقد أصابت مدينة ملقا المجاعة بأسباب منع الهولنديين لسفن التموين من التوجه إليها .

إن هذه الأمور تحتاج قراراً سريعاً . وهو لديكم يا صاحب الجلالة ، لقد أرسل لنا ملك أشن سفراءه يطلبون بناء قلعة في أرضه ، ولكننا لم نوافق . لذا نجده قام بالاتصال بالإنجليز من أجل ذلك . لذا نرجو جلالتكم أن ترسلوا لنا أسطولاً قوياً ويتم توجيهه إلى ملقا وليس للهند خوفاً من عدم وصوله إلى الجنوب حيث سوف تنتهي الهند فيما لو فقدنا الجنوب " .

كانت هذه الحالة سائدة في الشرق الأقصى عندما غادر بيدرو تينحسيرا الهند في بداية ١٦٠٤م عائدا إلى بلاده .

[ يتبع ]

# تأملات في فكر التطرف فيما بين الحربين

## التطرف مرض تاريخي أفرزته الفاشية والنازية

بقلم الدكتور :

**إبراهيم المقدود**

" إن كثيراً من الناس كتبوا في افتراق الناس في دياناتهم ، ومقالاتهم كتباً كثيرة جداً فبعضهم أطال وأسهب ، وأكثر وهجر ، واستعمل الأغاليط والشغب ، فكان ذلك شاغلاً عن الفهم ، قاطعاً دون العلم ؛ وبعضٌ حذَف وقصَر ، وقلّل واختصر ، وأضرب عن كثير من قوى معارضات أصحاب المقالات ، فكان في ذلك غير منصف لنفسه في أن يرضى لها بالغبن في الإبانة ، وظالماً لخصمه في أن لم يوفه حق اعتراضه ، وباخساً حق من قرأ كتابه إذ لم يغنه عن غيره ، وكلهم . . عقّد كلامه تعقيداً يتعذر فهمه على كثير من أهل الفهم ، وحلق على المعاني من بُعد ، يُنسي آخر كلامه أوله، وأكثر هذا منهم ستائر دون فساد معانيهم ، فكان هذا منهم غير محمود في عاجله وآجله[1] .

هكذا تحدث ابن حزم الأندلسي في كتابه " **الفصل في الملل والأهواء والنحل** " عن المنهج الذي يجب السير عليه في دراسة الظواهر الفكرية ، وهذا من القواعد التي التزمها المسلمون في الدراسات المقارنة للملل والنحل ، تتميز بالحيدة التامة في عرض وجهة نظر الآخرين ، دون أية محاولة للرد عليها أو إظهار بطلانها أو تهافتها قبل إتمام العرض ونراه جلياً في كثير من الأعمال مثل كتاب " مقالات الإسلاميين " لأبي حسن الأشعري وكتاب " الملل والنحل " للشهرستاني و " مقاصد الفلاسفة " للغزالي ، فقد بدأ المسلمون بدراسة الظواهر الفكرية والعقائد المذهبية مبكراً ، وكانوا أول من وضع بعض قواعد المنهجية لدراسة الملل والنحل ، وأن غيرهم ممن اشتغل بهذه العلوم اتبع قواعدهم واستفاد من محاولاتهم(٢) ولم تكن الدراسات مقتصرة عن الظواهر الفكرية والدينية في دار الإسلام فقط فدراسات البيروني عن معتقدات الهند - من مقبولة في العقل أو مرذولة - رغم البعد الجغرافي للهند ، فقد قام المسلمون بدراسة العقائد والملل والظواهر الفكرية خارج دار الإسلام أيضاً لفهمها واستيعاب إيجابياتها وسلبياتها بما يوضح معالم الطريق التي تمكن من دراسة التيارات الفكرية المختلفة المآرب ، تجنبا لتطبيق الأنماط الجاهزة والمفاهيم التقليدية والتعليلية ، وفك وتحرير كل مفهوم من المضامين الجامدة المضمنة فيه بحيث يتحمل المفهوم التعيين ثم الطرح بكيفية إشكالية وفتح طرق جديدة للبحث والتنقيب حتى لا تسد الأبواب أمام تقاليد البحث الإسلامية العلمية العقلانية(٣) .

التزم ابن حزم مبدأ الوضوح في الطرح ، والدقة في إبداء الرأي ، واجتناب التعقيد في الفكر ، واستيفاء حجج الخصوم عند العرض ، تتميز عقلانيته عند تفسير الظواهر عند قوله : " بأن العلم والمعرفة اسمان واقعان على معنى واحد ، ويكون ذلك إما بشهادة الحواس " التجربة العلمية " وأول العقل " العقلانية " ، وإما ببرهان راجع من قرب أو من بعد إلى شهادة الحواس . ورد الروايات التاريخية التي تصادم مقررات العلوم على ما وصلت إليه في عصره من الحساب والهندسة والجغرافيا والحيوان والنبات والمعادن ، وبالجملة كل ما يتعارض مع القوانين اليقينية الثابتة المطردة التي يسير العالم والمجتمع الإنساني ، حسب

مقتضياتها ، وهذا " الروايات " يعد عند ابن حزم كذباً ، ومحالاً من باب ما يتسلى به العجائز من الخرافات والأسمار[٤] ، وفي تباين اختلاف الصور ، واختلاف الهيئات وتباين الأخلاق ، إنما يقال هذا الشيء يشبه هذا على أن ذلك في أكثر أحوالهما لا في كلها . . . وقد علمنا بالمشاهدة أن كل ما يتكرر عليه ذلك الشيئان المتشابهان تكررا كثيراً ، متصلاً بأنه لابد أن يفصل بينهما ، ويميز أحدهما عن الآخر ، لا يشبهه فيها[٥] إذا ما توفر القاسم المشترك للظاهرة فحتماً يكون التشابه في جزئية الظواهر لا في كليتها .

" عندما تستتب أمور الحياة بتوفر الأمن والراحة النفسية في فترة تاريخية ما ، يقوم الإنسان السياسي بوضع الحدود والإدارة والتشريع للدولة ، قائمة على أمل خلق بيئة خالية من العنف ، ولكن عندما تجري الرياح بما لا تشتهي السفن ، يكون من سوء الحظ وشؤم الطالع أن تعيش الأمة فترة تهدد بانحلال الأسس التقليدية للوطن ، وفي المجتمع وفي بناء العلاقات الإنسانية ؛ ذلك عندما تصبح حرية فرد أو أفراد معدودين تهدد حرية وأمن الآخرين ، هنا تكون السيادة للعنف " هذه الملاحظة قدمها ميرليو بونتي Merleau Ponty في مقدمة كتابه " الإحياء الثقافي والعنف " مشيراً إلى الكارثة الأوروبية في فترة ما بين الحربين ، فأطر بشكل مثالي الشروط والأوضاع والخلفيات السياسية والبسيكولوجية التي نما فيها وانفجر التطرف بالمفهوم الحديث ، متمثلاً في فكر الفاشية حيث يكون ظاهرياً نتاجاً وخلاصة لتغيرات كبيرة فعلت فعلها في العلاقات بين الناس ، وشكلاً سياسياً يجنح إلى الشمولية بإقحام جميع مظاهر ووضعية الحياة الإنسانية ، وإخضاعها إلى تفسيرات ذلك الفكر والتعبير عنها على مستويات متعددة تتميز بالحدة والشطط ، حاملة بها إلى أقصى درجات التطرف ، كما تشتمل تفسيراتها ، المتناقضات والاتجاهات الفكرية الأخرى والجديد الذي لم تتضح معالمه بعد ، في عالم السياسة والاجتماع في اقتران متباين ؛ وهو الوضع الذي كانت عليه أوروبا في النصف الأول من القرن العشرين ، وهذا يحتم إعطاء الظاهرة شكلاً مشبعا ومركزا باعتبارها مرحل تاريخية هامة على مستوى المعاني والمفاهيم[٦] فإذا ما اعتبرنا تحديد فترة تاريخية معينة ، يميزها الصراع السياسي ، والتواتر

السريع للأحداث ، ما يعطي شكلاً جديدا للظواهر ، فإنه لا مجال من التنصل من تسمية فترات الحرب الكونية بزمن " التطرف الفكري " ؛ فالتطرف الفاشي ، التقت في بؤرته وعلى مستويات مختلفة العديد من خطوط الأزمات الناتجة عن خلل في التوازن الاجتماعي والاقتصادي والسياسي ، يرجع ظهورها إلى القرن السابق لنمو الظاهرة ، حيث أخذت الأزمات تنمو لتصل إلى مستوى النضوج في العشرينات والثلاثينات ، مستقطبة حولها حالات الاكتئاب والانكسار وعدم الرضى المتفشي في ثنايا الشرائح الاجتماعية التي تعيش أزمة النظام الذي كان قديماً / جديداً في نفس الوقت ، والذي شهد إقحام الناس في مرحلة التحول الرأسمالي العالمي في تجربة للانتقال إلى مرحلة أكثر تطوراً ، فبدا الحجم الحقيقي للعالم الموضوعي ، بصرف النظر عن العقلانية الإنتاجية ، أكثر تعتيماً ومشوباً بالظلال التي صعُب معها تحديد معالمه .

في القرن الثامن عشر بشرت نخبة المفكرين والمثقفين والكتاب والفنانين بمستقبل عملية التحول الاجتماعي والإنتاجي الضخمة التي أقحمت فيما بعد وزجت عمودياً بكامل منظومة حركة العلاقات الإنسانية والاجتماعية بإثارة جذور القيم فيها ، وتحريكها من الأعماق ، محطمة الوحدة الروحية والثقافية التي كانت تميز ذلك القرن ، فكانت الدعوة إلى مناهضة العالم التاريخي وواقعيته وشن حرب شعواء ضد القيم الجمالية التقليدية(٧) .

فإذا كان هذا هو الدور الفكري التخميني المبشر بمستقبل تغير واقع واتجاه التفكير وإلى إعادة قراءة التاريخ ، فإن العلم بدوره قد أخذ في استعمال أدوات جديدة ووسائل قائمة على العقلانية الجديدة (٨) والتنظيم العلمي للإنتاج ، مما أدى إلى إحياء حركة تجديدية قلبت نظام الرأسمال العالمي القديم رأساً على عقب .

أدى ظهور هذه المفاهيم الجديدة في الفكر وفي عالم الإنتاج ، وقيادتها للتحولات الكبيرة إلى خلخلة النظم نفسها ، وإلى نشوء فراغ وجد الفكر المتطرف فيه كوة يدخل منها وينمو داعياً إلى القديم ، فكان تطرفاً ناجماً عن عملية التحول ، يهدف إلى إغلاق أبواب المتناقضات التي فتحت في عمق النسيج الاجتماعي فطرح فكر التطرف

نفسه على أنه " الفكر والتنظيم الذي يمكنه الحد من التحول السريع وربما إيقافه ، والفصل بين المستوى السياسي ومظاهر الحياة الأخرى ، على أن يحتل بشكل كامل وشمولي تنظيم العلاقات الإنسانية " فصعد بذلك إلى أعلى مستوى الأزمات التي أثارتها عملية التحول والتحديث الكبرى مقدماً " شكلاً جديداً / قديماً للتحديث " يخفي وراءه أصوليته وتطرفه ليصبح باطنياً إلى حد ما ، والإيحاء ببرنامج لتنظيم كافة مظاهر الحياة العملية والروحية ، وهذا يتفق مع المصطلح الذي غالبا ما وصف به الفكر المتطرف الفاشي وهو أنه " فكر تدخلي " في كامل مجالات الحياة بما في ذلك العلاقات الشخصية الفردية وصيغ السلوك ، وكل هذا قصري بمنظور أحادي الاتجاه . ويؤكد على " شخصنة السياسة " بوضعها في مصدر وضعي واحد للتشريع والتنفيذ وتسييس التصرفات والسلوك من خلال إيديولوجية متطرفة ونشطة تتصف بالتميز و" الاختيارية " فنجد عنصرية العِرق وسمو الفرد / الفرقة / الجماعة[9]. والحرص على استعمال الطرق التقليدية في مجال التصوف السياسي والديني وفي نفس الوقت استغلال ما تمنحه " التكنولوجيا " ونمو قوى الإنتاج ، خاصة في مجالات الاتصالات ، وطرق تطويع الرأي العام وممارسة العنف والإرهاب بشكل شامل منظم ودقيق .

عني الكثير من الباحثين بتفسير سمات الظاهرة " الفاشية " كنظرية للتطرف الفكري[١٠] فالحديث عن النظرية ، بالذات من حيث مجالها الشمولي ، لا يسعنا الوقت إيفاء الحديث حقه بالتطرق إلى تحديد خصوصية الظاهرة ، وسنحاول طرق باب النموذج العام للتحليل ، الذي تعرض إلى المتغيرات الهامة وعبر عن الكيفية السائدة التي تعاملت مع ظاهرة تميزت بالجرأة ، فالتفسير يعني افتراض وجود موقف تحدده القيم والفكر بشكل أو بآخر ، فإذا كان الإنسان سيد فضائه كما يقول لوكاش ، يحكمه العقل وتسيره القيم ، فإن ترتيب المادة الوثائقية المعقدة ، يحتم أن يكون للثقافة المعاصرة الشكل السيادي لفهم معضلات العصر ، ولترتيب مبادئ نظريات التطرف ، كي يكون هناك مجال للمقارنة بينها والوصول إلى " المحتوى النقدي المتكامل " لها ، وهذا ضروري حيث تبعثُر وتعدُد

التحليلات ، فقد أدت شمولية وعمق الظاهرة إلى تمحور التحليل على أسس العلوم التقليدية التي اهتمت بالمظهر التاريخي السياسي ، ولكن التسجيل التاريخي أظهر محدوديته فكانت الدعوة إلى مساهمة جميع فروع العلوم الإنسانية من علم الاجتماع إلى علم النفس الاجتماعي و " الأنثروبولوجيا " والفلسفة ، والاقتصاد وعلوم اللغة وعلم الكلام ، فأدلى كل بدلوه ، وأنجز مادة التحليل مفسراً على ضوء علمه ، ولغته وجدليته ، وكان من الصعب إيجاد أرضية موحدة لها بالمقابلة مع تفسيرات الآخرين ، نشير هنا وبشكل مقتضب إلى بعض من نتاج التحليلات الغربية للظاهرة فيرى إ. نولت E. Nolte أنها " ظاهرة عصر تتعدى السياسة[11] وأغلب الكتابات التي تعرضت للناحية النفسية والبسيكولوجية الفردية والجماعية " تعبير سلوكي طبيعي للإنسان يتصف بالإثارة والغريزية ويتميز بعدم القدرة والعجز[12] و" جنون شيطاني "[13] و " الاستمتاع برثاء الذات "[14] والماركسيون يرونها " تعبيرا عن الرأسمالية التي وصلت إلى أقصى مداها والمتمثلة في الإمبريالية " [15].

النظرية الاجتماعية الاقتصادية لدى كروشانو تقول : " هبوط مستوى الضمير النازع إلى الحرية "[16] و " نزوع سيزوقراطي أي نزوع إلى النفسية الطفولية التي ترى الحقائق الخارجية بشكل كلي بدل التمييز وتعيين الخصوصيات " . ويصفها لوكاش بأنها " أفكار غير عقلانية تعبر عن الانحطاط حيث أنها [ ايديولوجية ] رجعية عدائية " و " تجمع غير متجانس " لاشك أن هناك نوعا من عدم التجانس بين التفسيرات المختلفة ولكن في نفس الوقت هناك الكثير من نقاط الالتقاء ، عند المقابلة بينها ،مما يجعل من الضروري تحديد أسس منظمة يمكنها تجاوز محدودية مختلف العلوم عندما يوضع كل منها على حدة ، والدخول إلى مركز مجالات التفكير بحيث نكون في وضعية تسمح لنا بتقابل ومقارنة مختلف التفسيرات ، في أسسها وكيفيتها .

فالزخم والتشيع السياسي الذي يدفع به الفكر المتطرف ، الناشئ عن ارتباطه بالخطوط الأساسية للحركة السياسية وأهميتها في الغرب المعاصر " سواء من حيث مفهوم الدولة والدستور والرقابة الاجتماعية ، والعلاقات بين

القوى السياسية والاقتصادية وبين الحرية والمركزية . . . إلخ " يجعل مادة التفسير متراكمة الجوانح ، مما يفرض ترتيب نوعي قادر على احتواء الحركة التاريخية والسياسية وتحديد دورها كعامل رئيسي بين عوامل أخرى لا تقل أهمية . بعد أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها وانقضت ، كان لابد أن تتواصل الحرب بصيغ أخرى في إيطاليا ، فقد كانت فترة مليئة بالأحداث ، فالحماس الذي أثير في مرحلة الحياد / اللاحرب واللاسلم ، ومن بعد حالة الاكتئاب التي رافقت العمليات العسكرية ، وخيبة الأمل في الدبلوماسية ، والآمال التي لم تتحقق ، والوعود التي لم يوف بها ، وارتفاع حرارة النفوس ، والتغيرات في الطبقات الاجتماعية ، إضافة إلى أزمة اقتصاد ما بعد الحرب ، والمشكلات المالية ، والتناقض والانفصام الروحي ، كل هذا أدى إلى حرب بوسائل مغايرة " .هذا التفسير الذي يعطي الحرب أهمية كبيرة في الصياغة التاريخية لنشاط بؤر التطرف ، يعتبر من الأسس الهامة التي توحي بما تكون عليه الحال فور انتهاء الحروب ، فمحاولة استقطاب الأسباب الخارجية فقط حول المحور السياسي والاجتماعي التقليدي بإعطاء الحرب " القوة المحركة Deus exmachina " فيه شيء من المبالغة ، وإن كان هذا التبسيط يوحي بشيء من راحة البال .

إن إضفاء الشرعية على الدولة الليبرالية كشكل سياسي مجد يحتاج إلى زمن موضوعي يفترض إرجاع الأزمات إلى عوامل وقتية وإلى ضرورات ، ما إن تنتهي حتى يعود النظام السياسي والاجتماعي القديم وبذلك يكون الفكر السياسي المتطرف عبارة عن " وقفة في الزمن " حيث كانت الحرب الفرصة السانحة لفرض نفسه ، وبلوغ ما بلغ .

فقد استغلت الفرق المنتمية إلى الأفكار الفاشية المتطرفة أحداث ما بعد الحرب العالمية الأولى والانتفاضات العمالية والشعبية والصراع الاجتماعي حول أسس الدولة والدستور ، شاهرة مبدأ " القيم " و " النظام " لتدخل المعمعة السياسية كحكم بين القوى السياسية التي كانت تحلل الظاهرة دون إعطائها البعد الحقيقي[١٧] فمن قائل بأن التطرف في المدن مغاير لماثله في المجتمعات الفلاحية ، ومن أخذ يضع الفروق ، مشعبا ومميزاً ، بين التطرف الرجعي ، والتطرف الثوري ، وبين

المستقبلي وقرينه التقليدي ، وقد عبر عن هذه المواقف رجال السياسة والفكر ورجال الدين من مختلف الاتجاهات ؛ وإن كان ذلك التركيز على عدم تجانس الحركة كظاهرة من قبل الجميع ، لم يكن سوى تكتيكاً مرحلياً لتحديد التناقضات وترسيم الاختلافات والفروق بين مختلف القوى البرلمانية لإضعاف مواقف الخصوم السياسيين ، واتخاذ مواقف تلائم الرغبة لكسب واستقطاب الناخبين ، وربما كان القصور ناتجاً عن الصعوبة البالغة في فهم وتقدير الظاهرة الجديدة ، التي ضمت مختلف الشرائح الاجتماعية ، معبرة بشكل ما عن ائتلاف اجتماعي لم يكن له نظير في السابق . ولم يكن من اليسير استقراء الظاهرة من وجهات نظر التحليلات والتعليلات السياسية التقليدية السابقة .

في الثلاثينات أدت الأزمات الاقتصادية ونشوء الفكر المتطرف النازي في ألمانيا إلى تفاقم الظاهرة التي أصبحت تهدد النظم الليبرالية الديموقراطية في أوروبا كلها فلم يعد التطرف هامشياً بل أدى إلى مضاعفات على المستوى الدولي ، وكانت التفسيرات والمواقف في معظمها تعبر عن الإدانة وتوجيه الرأي العام الديموقراطي إلى وجهة مضادة للتطرف ومعادية للنازية والفاشية ، وكان هناك التزام سياسي كبير من هذه الناحية ، فتجددت أنماط التحليل والتقويم التأريخي ، حتى لا يكون الحكم على المراحل السابقة جزافياً ومؤطراً ، فنشأت نظريات جديدة لها هويتها محاولة تكثيف الجهود لمواجهة الخطر الداهم ، فنظريات " ردة الفعل الشعبي " و " الوقفة التاريخية " و " التبوء " التي أشرنا إليها ، صارت تهدف إلى كشف النقاب عن الظاهرة ، متفقة جميعها على أنها " مرض تاريخي " له من المضاعفات ما أدى إلى نشوب الحرب العالمية الثانية ؛ فاتحدت بذلك وجهات النظر متفقة على القاسم المشترك للظاهرتين ، الفاشية والنازية ، دون النزوع إلى التفصيلات اللغوية ، وهكذا كان اليقين ورسوخ فكرة ضرورة مناهضة التطرف الفكري بما يسمى بالنضال ضد الفاشية ودحرها .

مصطلح " إشكالية الأزمة " الذي طغى على التيارات الفكرية لمواجهة الفاشية ، في الأدب وعلم الاجتماع والاقتصاد ، أدى إلى ظهور حركة تجديدية لأدوات الفهم والتفهيم للحقائق ، بما يتعدى الأرضية

السياسية ، فكسرت الأطروحات الجديدة وأمواج الفكر السياج متعدية الميدان التاريخي السياسي وعالجت وجهات عامة مرتبطة بأزمة الهيكل الاجتماعي في مجمله ، ومكافحة الظاهرة بالحكم إلى العقل في مقابل اللاعقلانية الضاربة أطنابها على كافة المستويات في المجتمع ، وكانت المهمة شاقة حيث " عقلنة غير المعقول "[١٨] كان الهدف الرئيسي في تلك المرحلة التي كانت فيها التصرفات الإنسانية خارجة عن ميدان العقل[١٩] وعن عقلانية الحساب الاقتصادي للفائدة والمصلحة وعن القيم السلوكية الأخلاقية والروحية مما أدى بدوره إلى نشوء أزمة العلوم والتعليم ، فعلم الاجتماع كـ " علم للتوافق الاجتماعي " ، وعلم الاقتصاد " كونه علم الاتزان الاقتصادي " ونشأ علم آخر هو " علم الأزمة " الناتج عن " التراكم " وحصيلته ، مما يفرض الرجوع إلى علم النفس الاجتماعي لتحديد معالم العلاقة بين الفرد والمجتمع في فترة لا يمكن فيها توقع المفاجآت السلوكية .

نموذج ليبست ١٩٦٠م ، يعتبر مرجعاً هاماً لدراسة ظاهرة التطرف الأوروبي ، فهو يؤكد بأن : " من الأمور المعقولة وجود علاقة تربط بين القاعدة الاجتماعية والفكر التنظيري [ الإيديولوجية ] " فالحركات السياسية تنقسم فيما يصفه " يسار يدعو إلى المساواة " وإلى التغيير وإلى التجديد ، تسانده الطبقات الدنيا ، وإلى " يمين " معتدل ومحافظ تسانده طبقة الملاك والأرستقراطيين ، ثم " الوسط " تعاضده الطبقات الوسطى ، فعندما يكون هناك هدوء اجتماعي تعبر كل طبقة عن إرادتها وأفكارها بالطرق الديموقراطية سواء كانت اشتراكية نهضوية ، أو معتدلة محافظة ليبرالية ، ولكن ما إن تظهر الأزمات والخلل الاجتماعي والاقتصادي حتى يطفو على السطح الجزء المتطرف لكل منها ، فالشيوعية إلى اليسار ، والديكتاتورية المحافظة على اليمين ، أما الفاشية فهي " التطرف الوسط " فقد أخذ ليبست بعين الاعتبار التفسيرات السابقة له متحققا من أنه في فوضى عدم الثقة وغياب الأمان والاستقرار في مرحلة تركيز التصنيع هو العامل الرئيسي في تغيير معالم الشرائح الوسطى في المجتمع ويدفع بها في اتجاه متراجع مع أن هذه الشرائح كانت مثالاً في النضال ضد الاستعمار وكان لها السهم الأوفر في تقدم

الحركات العقلانية في مراحل سابقة ، ولكن ما إن يستجد ما يهدف إلى التغيير ومسابقة الزمن[٢٠] وبسرعة كبيرة حتى ترى جزءا كبيراً منها يتعلق بأفكار أصولية جذرية متطرفة وغير عقلانية تسير في اتجاه مضاد لسير التاريخ، في محاولة للاستيلاء على السلطة لبناء ذلك الأمان والاستقرار التقليدي وإيقاف سير التحديث " الحقبة الصناعية " وبذلك تنمو حركات مناهضة للمنطق وتتجاوز فهم العقل .

***

– سيماء التطرف الفكري ظاهرة مرتبطة بالتاريخ الإنساني ، تبرز كأحد سمات المجتمع عندما تتوافر الظروف الموضوعية السياسية والاجتماعية حيث تعبر عن نفسها في مظهري السمو والفوقية من جهة والعنف من جهة أخرى وكثيرا ما يكون هذا التعبير نتيجة للتطورات الناتجة عن فكر تحديثي أو فلسفة جديدة للنمو . وبذلك يأتي هذا التطرف متسترا بأثواب متعددة الألوان ، مختلفة الأشكال وجميعها يفسر الماضي بأدوات قد تكون دينية أو قومية أو مادية ، وفي معظمها ترنو إلى بناء الماضي في حاضر تغيرت فيه العلائق ولغة الخطاب ، كما أن عشوائية الفعل وديماجوجية الطرح قد تتناسب في بعض الأحيان مع المفاهيم السائدة ورخوية الضمير السياسي في المجتمع والانفصام الذي يعيشه الفرد نتيجة ما يتلقاه في المعاهد التعليمية من مبادئ وإيحاءات خالية من الدقة متناقضة في التفسير ومع السلوك اليومي الذي يعيشه بين الآخرين .

– في فترة ما بين الحربين العالميتين برزت ظاهرتان للتطرف الفكري جديرتان بالبحث والتمعن مرتكزتان على الفكر الفاشي وتابعه النازي ، ظاهرة السمو والفوقية والتعالي التي أدت بدورها إلى العنف ثم إلى كارثة الحرب الكونية . فما هي القيم والقاسم المشترك بينها وبين أفكار التطرف في الشرق اليوم ؟ . وما هي السبل الفكرية الكفيلة المؤدية إلى انبعاث جديد ونهضة دون اللجوء إلى أدوات وأساليب تنبذها الأديان والطرف الخير من الطبيعة الإنسانية ؟

الدكتور : إبراهيم المقدود

# الهوامش

١ – ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، بيروت ص ١٧ .

٢ – محمد ابراهيم نصر وعبد الرحمن عميرة : مقدمة الفصل في الملل والأهواء والنحل ص ١٧ .

٣ – عبد الله العروي : ثقافتنا في ضوء التاريخ ص ١٨٨ ، بيروت ١٩٨٣م ، أنظر أيضاً عبد المجيد مزيان : التوازن بين الفكر الديني والفكر العلمي عند ابن خلدون ، في إبن خلدون والفكر العربي المعاصر ، تونس ١٩٨٠م ص ٢٢٣ ومايلي .

٤ – محمد محفوظ : ابن حزم وابن خلدون ، مجلة الفكر ص ٤٢ – ٤٨ عدد ١ ١٩٨٣م تونس .

٥ – ابن حزم : الفصل . . . (س إ) ص ١٦٨ الجزء الأول .

٦ – أنظر نولت : النظم الليبرالية والحركات الفاشية ، بولونيا ١٩٧٠م ص١٢ وما يليها E. Nolte : La crisi dei regimi liberale ei movimenti fascisti Bologna, 1970 pp12 sgg .

٧ – المقصود بالقيم الجمالية قيم التناغم والاتزان في الشكل والموضوع . أنظر صورة الإنسان الجديد في البيان المستقبلي Il Manifesto Futurista والاتجاهات الفكرية لتيار الدادائية والانطباعيين في مجلة المستقبليين " Lacerba, 1, n20, 1931 ص٢٢١ "

٨ – مفهوم العقلانية المتوافق مع تفسير ابن حزم : التجربة العملية الحسية وما يقبله العقل .

٩ – تقوم نظرية السمو والفوقية على فكر نيتشة الذي نادى بالرفع من شأن ما تحتويه النفس الإنسانية من اندفاع حيوي جاعلاً إياه في مرتبة أرقى من العقل منادياً بإعادة النظر في جميع القيم الإنسانية مبشراً بالإنسان الفوقي الجديد ، الأعلى والمثالي ، ولا يبعد هذا عن سمو الفرد/ الفريق/ الجماعة في خطاب الفكر المتطرف المعاصر من حيث سمو الفريق وكفر من

دونه ؛ أنظر حسن صادق : جذور الفتنة في الفرق الإسلامية ، القاهرة ١٩٩١م ص ٣٤٩ . وكذلك شكري مصطفى : كتاب الخلافة . وأيضاً صالح سرية في كتابه الفريضة الغائبة .

١٠ - من أهم ما كتب في هذا المجال مؤلفات مؤرخ الفترة الفاشية رينزو دي فليتشي ، أنظر : الفاشية ، تفسير المعاصرين والمؤرخين ؛ وأيضاً حوار حول الفاشية وموسيليني الأسطورة ومختارات عن الفاشية : الحكم عليها سياسياً والحكم عليها تاريخياً ( أنظر المراجع والمصادر ) .

١١ - تعرض نولت إلى النظرية الفاشية في أكثر من عمل قيم نذكر منها جذور الفاشية الثلاثة ١٩٦٧م ، وأزمة النظم الليبرالية والحركات الفاشية ١٩٧٠م .

١٢ - أنظر مالك بن نبي : مقياس القيم النفسية والاجتماعية الدالة على أحوال التطور لدى ابن خلدون في شروط النهضة بيروت ١٩٧٩م ص٦٦ .

١٣ - اقتحامات تلقائية لاستمرارية العملية الشعورية من جانب المركبات "العقد" اللاشعورية وجذبة التحلي . أنظر كمال دسوقي : ذخيرة علوم النفس ، المجلد الأول ، القاهرة ١٩٨٨م ص٣٦٩ .

١٤ - أنظر الهروب من الحرية **Fromm, Escape From Freedom, Milano, 1963** ص٩٢ وص ١١٨ . ووليام ريخ : السيكولوجية الجماعية للفاشية ودراسة متقاطعة في فكر الحركات ، كامبردج ١٩٦٥ .

١٥ - أنظر مالك بن نبي في شروط النهضة ، فصل توجيه رأس المال والثروة ص ١٠٩ وص١١٣ ، وأيضاً ابن خلدون عن الملك والانحطاط ونتائج تراكم رأس المال . والاقتصاد في دوريه السلبي والإيجابي فهو " يعتبرها أدواراً متناقضة في حركة تطور المجتمع والدولة في إطار الجدلية الاجتماعية " . محمد زنيبر ، الحكم والاقتصاد عند ابن خلدون في " ابن خلدون والفكر العربي المعاصر ص ١٧٩ ، وص ١٩٩ ، وص ٢٠٥ " .

١٦ - مفهوم الحرية في الإسلام ضمان حرية الفرد وبالتالي شعور المسلم وتوقه إلى الحرية ، أنتونينو بيلليتيري ، بعض الأمثلة عن فكرة الحرية في حركة التحديث الإسلامي ، أنظر

أيضاً ، بيانكا ماريا سكارشا أموريتي ، مفهوم الحرية فيما كتب عن الاقتصـاد الإسلامي ، مجلة ألف باء ، عدد ٧/٦ باليرمو ١٩٨٦م .

١٧ – جوليتي رئيس الحكومة الديموقراطية في ذلك الوقت ، كان يصر على أنها ظاهرة غير جديرة بالاهتمام ، فهي كفقاعة الصابون ، أنظر محاضر البرلمان الإيطالي عام ١٩٢١م في مجلة المحاضر البرلمانية ، السياسة الداخلية بين الاشتراكية والفاشية ، روما ١٩٢١م .

١٨ – Leimotiv في علوم الاجتماع .

١٩ – ابن حزم : الفصل في . . سبقت الإشارة . .

٢٠ – المفكر المسلم " أبو الحسن المراكشي " كان أول من أدرك فكرة اتصال الزمن بالتاريخ والصلة الوثيقة بنهضة العالم المادي ، ونادى مالك ابن نبي في شروط النهضة ص ١٤٠ إلى تحيد فكرة الزمن الذي يتحد ومعنى التأثير والإنتاج

# المصادر والمراجع


١ – مالك ابن نبي : شروط النهضة ، دار الفكر ، لبنان ١٩٧٩م .

٢ – جامعة الدول العربية ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم : ندوة ابن خلدون والفكر العربي المعاصر ، الدار العربية للكتاب ، تونس ، ١٩٨٠ .

٣ – ابن حزم ، أبو محمد علي بن أحمد ، الفصل في الملل والأهواء والنحل ، دار الجيل ، بيروت ، بدون تاريخ .

٤ – حسن صادق : جذور الفتنة في الفرق الإسلامية ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ١٩٩١م .

٥ – عبد الله العروي : ثقافتنا في ضوء التاريخ ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء / بيروت ١٩٨٣م .

٦ – عبد القادر عودة الإسلام وأوضاعنا السياسية ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٨٦م .

٧ – محمد عمارة : الإمام محمد عبده ، مجدد الإسلام ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٨١م .

٨ – أدونيس ، محمد سعيد ، الثابت والمتحول ، ٣ صدمة الحداثة ، بيروت ، ١٩٨٣م .

٩ – الغزالي ، أبو حامد محمد ، إحياء علوم الدين ، الدار المصرية اللبنانية ، بدون تاريخ .

١٠ – سميح عاطف الزين : حركة التاريخ في المفهوم الإسلامي ، دار الكتاب المصري / اللبناني ، القاهرة/بيروت ١٩٩١م .

١١ – كمال الدسوقي : ذخيرة علوم النفس ، الدار الدولية للنشر والتوزيع ، القاهرة ١٩٨٨م .